«إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»
(سورة يس)

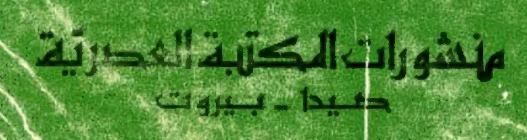




تنزيله وأسلوبه وأثره وجمعه وتدوينه وترتيبه
وقراآته ورسمه ومحكمه ومتشابهه وقصصه
وغيبياته وتعليقات على مناهج مفسريه
والطريقة المثلى لفهمه وتفسيره

تأليف
محمد عزة دروزة





﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾
(سورة يس)



القرآن المجيد

تنزيله وأسلوبه وأثره وجمعه وتدوينه وترتيبه
وقراآته ورسمه ومحكمه ومتشابهه وقصصه
وغيبياته وتعليقات على مناهج مفسريه
والطريقة المثلى لفهمه وتفسيره

تأليف
محمد عزة دروزه

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
☎ ٢٣٢٥٢٥ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥٥

محتويات الكتاب

الفصل الاول : القرآن أسلوبه ووحيه واثره

الفصل الثاني : جمع القران وتدوينه وقراراته ورسم المصحف وتنظيماته

الفصل الثالث : الخطة المثلى لفهم القران وتفسيره

الفصل الرابع : نظرات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم .

خاتمة الفصل المناهج لتفسير القران

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبت هذا الكتاب في مدنية بورسه أثناء هجرتي في الحرب الى تركيا وبعد ان اتم الله عليّ نعمته فانتهيت من كتابة تفسير القرآن بكامله فيها. وقد وجدت في مكتبات المدينة العديدة ما استعنت به من مراجع قيمة في التفسير والحديث والكلام والقراءات وعلوم القرآن. وقد جاء الكتاب ككتاب مستقل لما احتواه من بحوث عديدة كما جاء كمقدمة للتفسير لما احتواه من شرح المنهج الذي سرت عليه فيه وبيان الطريقة المثلى لفهم القرآن وخدمته وتفسيره.

ولقد عدت فقرأت كتبا عديدة اخرى لاستيفاء الكلام في مواضيع الكتاب وتوثيقه، وادخلت تنقيحات كثيرة على مسودة بورسه فجاء الكتاب على اسلوب و[illegible] جديدين بحث في نطاقها مختلف مسائل القرآن ووصلت بذلك الى نتائج [illegible]لول هامة وجديدة ارجو ان يكون الله قد هداني فيها الى الحق و[illegible]واب، وان اكون بذلك قد خدمت كتاب الله المجيد فيما اخذت على نفسي من خدمة له منذ اربع عشرة سنة استغرقت اكثر اوقاتي. كما ارجوه أن يتم نعمته وتوفيقه بتنقيح وطبع اجزاء التفسير وهو ولي التوفيق ومنه نطلب العون والسداد.

المؤلف

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن واسلوبه وروحه وأثره

- ١ -

القرآن والمسلمون

ليس غريباً أن يكون القرآن شغل الناس في كل زمان ومكان طيلة القرون الثلاثة عشر السالفة وطيلة ما شاء أن يكون من أمد هذه الدنيا وأن يتنافس في الكتابة فيه الكتاب والعلماء والمصلحون والباحثون من مسلمين وغيرهم ، وان يصدر فيه كل يوم كتاب .

فهو الكتاب المقدس للمسلمين المنتشرين في كل صقع من أصقاع الارض والذين تتمثل فيهم شتى أممها ، فيه اصول دينهم وشرائع حياتهم ونبع الهامهم ونبراس أخلاقهم ونور هدايتهم في مختلف شؤونهم الدينية والدنيوية ، الروحية والمادية ، العامة والخاصة ، السياسية والقضائية والاجتماعية والشخصية والانسانية ، وفيه أقوى الحوافز إلى اسمى الآفاق وأبعد الاشواط الموصلة الى اعلى ما يمكن أن يكون من رفعة الذكر وعلو القدر وقوة التمكين والنصر ، وجعل متبعيه خير أمة أخرجت للناس إذا هم قاموا بأعباء ما حملهم إياه من تبعات ، وأدوا ما اؤتمنوا عليه فيه للانسانية من أمانات : من دعوة إلى الخير والحق والهدى ، ومن

أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ومن تواص بالصبر والحق والمرحمة ، ومن تناصر ضد البغي والاثم والعدوان ، ومن اتصاف بكل صفات الخير والعدل والبر والرحمة والاحسان والكرامة والعزة والصدق والوفاء وكل خلق كريم ، ومن تحظير الفواحش والآثام والمنكرات ما ظهر منها وما بطن ، وما صغر منها وما عظم . ووصفه الله فيه بأنه يهدي التي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بعظيم الاجر وأن فيه لهم الشفاء والرحمة والهدى ، ووصفه نبيهم بهذا الوصف الشامل الرائع المأثور عن طريق علي بن أبي طالب والمثبت في كثير من كتب الائمة والثقاة : فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره تأصله الله ، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الالسنة ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدي إلى صراط مستقيم » . فهم من اجل هذا مكلفون بالاشتغال به دينياً فهما وتدبراً وتفسيراً واستنباطا واستلهاما واستيحاء .

- ٢ -

القرآن وشخصية النبي

وشخصية السيد الرسول عليه السلام الذي انزل عليه القرآن هي الشخصية الوحيدة التي ليست محل شك وريب من الوجهة التاريخية وعند مختلف الملل والنحل والاقوام من بين شخصيات الانبيـــاء ، وفي صدد حادث « نبوة النبي » المتصل بسر وحي الله وسر الوجود وواجب الوجود والذي تواترت الاخبار عن تكرره في مختلف عصور التاريخ السالفة .

والقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي ليس محل شك وريب من بين الكتب السماوية المتداولة في كونه متصلا بالنبي ، وفي صدوره عنه بحروفه والفاظه وسوره بوحي من الله ، وقد تكرر فيه تقرير بشرية النبي وكونه في طبيعته البشرية كسائر البشر وكون قصارى مهمته دعوة الناس الى الله وحده ، واخراجهم من الظلمات الى النور باذن ربهم ، والحث على مكارم الاخلاق ، والتحذير من الشر والاذى والفواحش ، وتبشير المستجيبين بالخير والنجاة وانذار المعرضين بالويل والخسران كما ترى في الآيات التالية التي هي فيض من غيض في هذا الباب:

١ – قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم واوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل انما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون .
الانعام ١٩

٢ – وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا باياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون .
الانعام ٤٩

٣ – قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون .
الانعام ٥٠

٤ – الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد .
ابراهيم ١

٥ – قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي أنما إلهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا. الكهف ١١٠

وقد تكرر فيه تقرير كونه اعظم مظهر لنبوة النبي وأقوى آياتها ودلائلها كما ترى في نص الآيات التالية :

١ - وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. ان تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين . او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن اظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون . الانعام ١٥٥ - ١٥٧

٢ - ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . الاعراف ٥٢

٣ - ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . الحجر ٨٧

٤ - وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون .

العنكبوت ٥٠ - ٥١

وقد تكرر فيه توكيد اتصاله بوحي الله وصدوره عنه وعجز الناس عن الاتيان بمثله معلنا ذلك على ملأ من خصومه الالداء وجاحديه الاشداء كما ترى في الامثلة التالية بالاضافة الى الآيات السابقة .

١ - وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .

البقرة ٢٣ - ٢٤

٢ ـ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيراً . النساء ٨٢

٣ ـ لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . النساء ١٦٥

٤ ـ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . الاسراء ٨٨

٥ ـ وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٥

وبالاضافة الى هذا فقد احتوى آيات كثيرة فيها اعلان باشهاد الله على صحة هذه التوكيدات والتقريرات ؛ وتعظيم لجرم الافتراء على الله كما ترى في الآيات التالية :

١ ـ وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالاخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .

الانعام ٩٢ ـ ٩٣

٢ ـ واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين

آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين . ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله واولئك هم الكاذبون .

النحل ١٠١ - ١٠٥

٣ - أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور .

الشورى ٢٤

٤ - أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم .

الاحقاف ٨

٥ - تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الاقاويل . لاخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه حاجزين . وانه لتذكرة للمتقين . .

الحاقة ٤٣ - ٤٨

ففي اسلوب هذه الايات وامثالها الكثيرة ما يبعث في نفس كل منصف حسن النية مهما كانت نحلته وملته اقوى معاني اليقين بصدقها ، ويزيل منها اي معنى من معاني الشك والارتياب في عمق ايمان الرسول عليه السلام بصحتها ، وفي استغراقه فيها استغراقا تاما لا يمكن أن ينبعث الا من اقوى الايمان واليقين والصدق الصميم .

- ٣ -

الدعوة القرآنية

واحتوى دعوة الناس كافة إلى عبادة الله وحده ، وعدم الخضوع لاي قوة من قوى الكون غيره وتنزيهه عن كل نقص وشائبة ، والى جماع مكارم الاخلاق والفضائل ، واسباب سعادة الدارين والتصديق بنبوة انبياء الله والكتب المنزلة عليهم وتقرير اتحاد المتبع والوجهة بين ما دعا اليه ودعوا اليه من غير تفريق بينهم ، وتقرير كون هذه الدعوة التي احتواها هي الدين الحق الذي ارتضاه الله للناس جميعا منذ بعث الله رسوله محمداً عليه السلام بالهدى ودين الحق الذي فيه اظهاره على الدين كله ، يقيم البشر في ظله دعائم مجتمعهم ، ويسيرون في مختلف شؤونهم وفق تعاليمه ومبادئه وتلقيناته القائمة على اسس الحق والعدل والمساواة والاحسان والتعاون ، ورفع الاصر والاغلال ، وحل الطيبات وتحريم الخبائث والفواحش والمنكرات ، وتوطيد السلم العام بين الناس كافة إخوانا متحابين ، لا يظلم بعضهم بعضاً ، ولا يبغي بعضهم على بعض ، ولا تنبذ فيه طائفة ، ولا تحرم فيه فئة ولا تتعالى فيه طبقة على طبقة ، مع إيجاب التناصر على الباغي حتى يفيء الى حكم الله والحق ، ومع الدعوة إلى التمرد على كل ضار والاقبال على كل صالح بقطع النظر عن قدمه وجدته ، ومع تقرير كون الله إنما يريد للناس اليسر ولايريد بهم العسر ولم يجعل عليهم في الدين حرجا ، وباسلوب قضي له بالخلود من حيث البرهنة على صدق الدعوة وأهدافها بتوجيه الخطاب للعقول والقلوب ، وإدارته حسب أفهام الناس ومداركهم في هذا النطاق ودون ان تجعل المعجزة الخارقة دعامة أساسية في ذلك لان مثل هذه

الدعوة في غنى عن المعجزة لاثبات حقها وصدقها ، ثم من حيث سعة الافق والشمول والميزات التي لم تسبق ولم يلحق بها في شتى مناحي التشريع والتلقين ، والتوجيه إلى افضل المثل واقوم الطرق مع الاتساق التام وحقائق الامور وطبائع الاشياء والتمشي مع كل ظرف ومكان والاستجابة الى كل شأن من شؤون الناس وحاجاتهم الروحية والمادية والعامـــة والخاصة ، وحسب اختلافـــهم وتفاوتهم في العقل والسعة والثقافة والافق

واحتوى كذلك حلولا للمشاكل المعقدة التي كانت تجعل الناس شيعا واحزابا ، وفرقا واضداداً ، وإهابة بالغلاة والمفرطين للارعواء عن غلوهم وإفراطهم ، وارشاداً للحائرين والمترددين للانتباه من حيرتهم وترددهم باسلوب وجه فيه الخطاب الى العقول والقلوب معاً فيه كل القوة وكل النفوذ وكل الاقناع لمن لم تخبث طويته ، ويجعل إلهه هواه ، ويتعمد العناد والمكابرة والاستكبار عن قصد وتصميم ، ثم احتوى تنظيماً للمناسبات بين مختلف فئات الناس وخاصة بين المستجيبين للدعوة - المسلمين - وغيرهم على أساس المسالمة والحرية والحق والعدل والتزام حدود ذلك بالتقابل ، وكف الاذى وعدم الصد والتعطيل والدس ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن إلا الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، ومقابلة العدوان بمثله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (١)

---

(١) ١- اقرأ مثلا الآيات التالية في صدد تقرير كون الدعوة في غنى عن الخوارق: الانعام ٤- ٢٠ و ١٠٩ - ١١٧ ويونس ١٥ - ٣٦ والرعد ٧ - ٣٢ والاسراء ٨٩ - ١٠٠ والانبياء ٢ - ١٠ والفرقان ١ - ١٠ والعنكبوت ٤٥ - ٥٢

اسلوب القرآن

وقد جاء في نظمه وسوره وآياته وقصصه وعظاته وتلقيناته وامثاله وخطابه وحججه وجداله اسلوبا والنما متميزا في ذلك كله بخصوصيات جعلته فذاً بالنسبة لأسلوب الكتب السماوية السابقة ، وبالنسبة لما هو مألوف من اساليب النظم والسبك والخطاب ، ذا طابع خاص خالد مما لا يصح أن يقاس عليه أنواع الكلام وأساليب الكتب والتأليف ومما يصح أن يعد أسلوبا خاصا فيقال ان اللغة العربية نظم ونثر وقرآن كما قاله كثير من ادباء العربية الحديثين بقطع النظر عن الباعث عنده على هذا القول ، ومما يصح أن يكون معينالا ينضب في فنون النظم والسبك وسمو الطبقة .

٢-اقرأ مثلا الآيات التالية في صدد أهداف الدعوة ومبادئها ووحدتها من دعوة النبيين وحل المشاكل وتنظيم المناسبات : البقره ٨٣ - ٩٠ و ١٠١ و ١٣٦ - ١٣٩ و ١٧٧ و ٢١٣ و ٢٦١ - ٢٨٦ وآل عمران ٣٤ - ٦٤ و ١٠٤ و ١١٠ و ١٨٩ - ١٩٩ و ١٥٠ - ١٦٦ والنساء ١ - ٣٨ و ٩٠ - ١٣٥ و ١٦٣ - ١٧٩ والمائدة ١ - ٥ و ٤٤ - ٥٠ و ٥٩ - ٨٦ والانعام ١٤٧ — ١٥٣ والاعراف ٢٩ - ١٣٣ و ١٠٦ - ١٥٨ والنحل ٩٠ - ٩٧ و ١٢٥ - ١٢٨ والاسراء ٢٢ - ٣٩ ومريم ١٦ - ٣٧ والمؤمنون ١ - ١٠ والفرقان ٦٣ - ٧٦ والعنكبوت ٤٥ - ٤٩ والشورى ١٣ - ١٥ و ٣٦ - ٤٣ والممتحنه ١ - ١٢ والحشر ٧ - ١٠ والحجرات ١ - ١٨ فان الكتاب يضيق عن استيعابها لكثرتها .

وعلى اعتباره أصدق مدونة دونت في عهـــد النبي ، بل وأوحد مدونة من عهد النبي احتفظت بصورتها الاصلية دون تحوير وتعديل فقد جاء بما احتواه من معان واساليب واصطلاحات ومفردات وتشبيهات واستعارات وفنون خطاب ولغة دليلا قويا رائعاً على ما وصل اليه العرب الذين نزل بلسانهم في عهد نزوله من الدرجة الرفيعة في سلم الفصاحة خاصة وما كانوا عليه من حضارة مادية وعقلية وثقافية بصورة عامة خلافا لما حلا لبعضهم ان يرويه ويقوله على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي (١) وعلى ما نبهنا عليه في مناسبات كثيرة من التفسير .

واحتوى بالاضافة الى ذلك أولا اصدق الصور وأوثقها لبيئة النبي وعصره من النواحي الاقتصادية والمعاشية والجغرافية ، وعما كان عليه اهلهما من تقاليد وظروف وعادات دينية واجتماعية وأخلاقية وعقلية وثقافية واقتصادية اتصلت بظروف البعثة والسيرة النبوية وتطوراتهما اوثق اتصال ، وثانيا أصدق الصور وأوثقها للسيرة النبوية الشريفة في عهديها المكي والمدني . وسواء في ذلك ما كان روحاني المظهر من حيث الصلة بالله ووحيه وتلقينه وتوجيهه ومدده وتأييده وتعليمه وتأديبه وتثبيته ، او ما كان متصلا بالناس من حيث مواقفهم من النبي عليه السلام ودعوته مسلمين وكتابيين ومشركين ، ومن حيث تأثرهم بهذه السيرة وهم شهود العيان لحادث « نبوة النبي » في شخص محمـــد عليه

---

(١) صدر عام ١٣٦٦ = ١٩٤٧

السلام ، ثم من حيث موقف النبي من الناس ومن حيث تطور موقفهم منه وموقفه منهم بتطور الدعوة واتساع نطاقها .

فالقرآن من اجل ذلك كله كان وسيظل موضوع نظر وتدبر واستلهام واستنباط لدى الناس على مختلف الملل والنحل والاجناس بطبيعة الحال .

ونريد ان نستدرك بأننا لا نعني أن القرآن قد احتوى جميع صور السيرة النبوية والبيئة النبوية وأحداثها ، أو ان ما احتواه منها قد جاء قصداً لها بالذات . فهناك من دون ريب أحداث وصور كثيرة من البيئة والسيرة النبوية لم ترد في القرآن ، كما ان ما جاء منها فيه إنما جاء في الحقيقة عرضا وبسبيل الدعوة والموعظة والتذكير والتشريع والامر والنهي بما اقتضته الحكمة ليكون مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه ، ومرجع تشريع وتلقين للمسلمين في جميع العصور ، ولكن الذي نعنيه أن في القرآن من هذه الصور شيئا كثيراً منه ما جاء بصراحة ووضوح ومنه ما جاء إشارة وتلميحا .

- ٦ -

الوحي الرباني والوحي القرآني

وصلة النبي عليه السلام بالوحي الرباني التي كان القرآن مظهرها الرئيسي وان كانت وظلت في حقيقة كنهها سرا على غيره ، لانها متصلة بسر النبوة ، فإن القرآن احتوى آيات عديدة قد تساعد بعض الشيء على فهم مظاهرها ومداها بقدر ما تسمح به اللغة البشرية وتتسع له أفهام البشر الذين يتخاطبون بها .

منها ما جاء في سورة التكوير :

« إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالافق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ١٩ - ٢٦»

حيث ترد الآيات كما هو واضح على نسبة الجنون وصلة الشيطان بالنبي التي نسبها الكفار اليه حينما أخذ يخبر بحادث رؤياه ملك الله وخطابه له ، وسماعه منه اولى آيات القرآن . ولعل هـذه الآيات أقدم آيات واردة في الموضوع بهذه الصراحة والصميمية النافذة .

ومنها ما جاء في سورة النجم :

« والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عـن الهوى . إن هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرةفاستوى . وهو بالافق الاعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ١-١٢ »

وهي كسابقتها مضمونا وتوكيدا بصدق تقرير النبي عن صلته بالله أو ملك الله ، ونزول وحي الله عليه . والآيتان الأخيرتان تشيران إلى ان رؤية النبي لملك الله كانت بعين بصيرته وفؤاده ، وتتضمنان حجة قوية على انسداد مجال المماراة في هذه الرؤية الخاصة التي ليست قدراً مشتركا بين الناس . ولعل ما يصح التمثيل به - ولله ووحيه ونبيه المثل الاعلى - على سبيل التقريب لمفهوم الآيات ما يخطر ببال الانسان من خواطر أو ما يراه الرائي في المنام ، فهذه وتلك إحساسات أو رؤى

خاصة ليست قدوا مشتركا بين الرائي او الماجس وغيره حتى تصح فيها المماراة والتكذيب كما تصح في تقرير رواية مشهد من شاهد الكون كالشمس والقمر والشجر وغيرها . فاذا قال احد إنه يرى القمر ولم يكن بازغا أو يرى شجراً ولم يكن هناك شجر فالمماراة واردة وصحيحة .

ومنها ما جاء في سورة الشعراء :

« وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين « ١٩٢ - ١٩٥ » والسياق الذي جاء بعدها يلهم أنها هي الاخرى بسبيل الرد على نسبة الكفار صلة النبي الى الشيطان دون الملائكة والتوكيد بأن القرآن وحي رباني حيث جاء بعد قليل :

١ - وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون » ٢١٠ - ٢١١

٢ - هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع واكثرهم كاذبون ٢٢٢-٢٢٤ وفي الايات الاولى ١٩٢ - ١٩٥ إشارة الى كيفية صلة وحي الله القرآني بالنبي وهي نزوله به على قلبه بما يتسق مع تقرير آيات النجم الأخيرة .

ومنها ما جاء في سورة النحل :

« وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

« إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين امنوا وهدى وبشرى للمسلمين ٩٨-١٠٢ وهي مثل سابقاتها تؤكد صلة النبي بالله ووحيه

القرآني وتنفي صلة الشيطان المزعومة من الكفار من جهة وتنطوي على كيفية مقاربة لما جاء في الآيات السابقة من جهة أخرى

ومنها ما جاء في سورة البقرة :

« قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ٩٧ »

وقد جاءت الاية في سياق التنديدباليهود ومواقفهم وإعلانهم العداء لجبريل عليه السلام ، وانطوت على كيفية مماثلة الكيفية التي احتوتها آيات الشعراء مع صراحة اسم ملك الله الذي كان اسمه معروفا في معرض الوحي الرباني عند اليهود والنصارى والذي ذكر اسمه في احد الاناجيل في معرض بشارة مريم وحملها بالسيد المسيح عليه السلام .

وفي سورة الشورى آيات فيها بيان كيفيات اتصال الوحي الرباني بالبشر وبالنبي عليه السلام :

« وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه علي حكيم « وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم ٥١ - ٥٢

ومع ان الوحي الرباني اصطلاحا هو ملك الله الذي يتصل بالنبي فان الآية الثانية تلهم أنه أريد به المعنى اللغوي وهو القذف بالقلب والروع على ما فسره العلماء مما هو متسق مع مضمون الآية الاولى التي احتوت إشارة إلى طريقتين اخريين كما هو ظاهر .

ومنها آيات في سورة القيامة :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ١٦ ١٩ »

وآية في سورة طه مقاربة لهذا المعنى :

«فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل ربي زدني علما ١١١»

وآيات القيامة خاصة احتوت نهيا صريحا للنبي عن حركة آنية كانت تبدو منه حينا كان ينزل عليه الوحي القرآني وفيها صورة عظيمة المدى لصلة الشعور النبوي بالوحي الرباني ، حيث كان النبي يردد ما كان يوحى اليه بلسانه مماشاة لالقاء الوحي القرآني في آن نزوله عليه حرصا منه على ان لا يفلت منه آية أو كلمة أو حرف أو معنى مما كان يوحى اليه بـــه .

وفي سورتي النحل وغافر آيتان وإن كانتا ليستا في صدد صلة النبي محمد عليه السلام بالوحي خاصة وشخصية فانهما في صدد معنى ومدى صلة الله ووحيه بمن يختاره لرسالته من عباده :

١ - ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون « النحل » .

٢ - يُلقي الروح من أمره على من يشاء مـــن عباده لِيُنذِرَ يوم التلاق .. غافر ١٥ » والآية الثانية قد تلهم أن الروح فيها لا تعني جبريل الذي فسرت به الكلمة في أكثر ما ورد في صدد الوحي الربّاني وإنما قد تعني تجلياً ربانياً يتصل بالشخص المختار . أما الآية الاولى فانها

تلهم ان هذا التجلي يحدث بمرافقة الملائكة واطلاقا . وفي سورة فاطر آية لتزيد هذا الاطلاق والشمول :

« الحمد لله فاطرِ السموات والأرض جاعِل الملائكةِ رُسلاً أولي أجنحةٍ مثنى وثُلاث ورُباعَ يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » (١) .

ولقد وردت في صدد صلة النبي بوحي الله أحاديث عديدة توضح أحيانا بعض ما احتوته الآيات من صور وتلتقي احيانا معها . منها حديث البخاري المشهور عن عائشة رضي الله عنها في كيفية بدء الوحي :

« أول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلق الصبح . ثم حُبب اليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى اهله ويتزود الى ذلك . ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال اقرأ . قال ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربُّك الاكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة وأخبرها الخبر . لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة كلا والله ما يُخزيك أبداً . إنك لتصل الرَّحم وتحمل الكلّ وتُكسب المعدومَ وتُقري الضيفَ وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقة بنَ نوفل بن أسد بن عبد العُزّى ابن عم خديجة .

وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع ابنَ أخيك . فقال له ورقة يا ابن اخي ماذا ترى. فأخبره رسول الله خبر ما رآه . فقال له ورقة هذا الناموس الذي انزل الله على سيدنا موسى ويا ليتني فيها جذع ، ليتني اكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم او مخرجيّ هم قال نعم . لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عوديَ . وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزّراً . »

ومنها حديث رواه الطبري عن ابن زبير :

« قال رسول الله فجاءني وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ماذا اقرأ. فغتّني حتى ظننت انه الموت ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ماذا أقرأ . وما أقول ذلك إلا افتداء من ان يعود إليّ بمثل ما صنع بي . قال اقرأ باسم ربك الذي خلق إلى قوله علّم الانسان ما لم يعلم . قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عني وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا . قال ولم يكن من خلق الله ابغض عليّ من شاعر او مجنون . كنت لا اطيق ان انظر اليهما . قال قلت ان الابعد يعني نفسه لشاعر او مجنون . لا تحدّث بها عني قريش ابداً . لاعمدنّ الى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسي منه فلاقتلنها فلاستريحنّ . قال فخرجت اريد ذلك حتى اذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وانا جبريل . قال فرفعت رأسي الى السماء فاذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدميه في افق السماء يقول يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت انظر اليه وشغلني ذلك عما اردت فما اتقدم

وما اتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا انظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما اتقدم امامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليـــها وأنا واقف في مكاني . ثم انصرف عني وانصرفت راجعا الى اهلي . »

ومنها احاديث اخرى وردت في البخاري ايضا :

١ ـ عن عائشة رضي الله عنها ان الحرث بن هشام رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فينفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة (رض) ولقد رأيته يتنزل عليه الوحي في اليوم الشديد البـــرد فينفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقا .

٢ ـ اخبر صفوان بن يعلى ان يعلى كان يقول ليتني أرى رسول الله (صلعم) حين ينزل عليه . قال فبينا النبي كان بالجعرانة وعليه ثوب قد أظلّ معه فيه اناسا من الصحابة إذ جاءه اعرابي علـــيه جبة مُتضمّخ بالطيب فقال يا رسول الله كيف ترى في رجل بعمرة في جبته بعد ما تضمخ بالطيب فأشار عمر الى يعلى بيده أن تعال فجاء يعلى فأدخل رأسه فاذا بالنبي (صلعم) محمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم سُرّي عنه فقال أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً . فالتمس الرجل فأتي به فقال اما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات واما الجبة فانزعها ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك .

٣ ـ اخبر زيد بن ثابت ان رسول الله (صلعم) أملى عليه ولا يستوي

القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» (فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها قال يا رسول الله والله لو استطعت الجهاد لجاهدت وكان اعمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت ان ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله (غير أولي الضرر) .

٤ ــ عن عائشة قالت قال رسول الله (صلعم) يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام قالت وعليه السلام ورحمة الله قالت وهو يرى ما لا نرى

ففي بعض النصوص القرآنية صراحة بنزول وحي الله بالقرآن على قلب النبي ، وفي بعضها ما يمكن ان يلهم ان الوحي تجل روحاني رباني ينزل على من يختاره الله من عباده لرسالته تارة متوافقا مع الملائكة وبتخصيص مع جبريل وتارة بدون ذلك ، وفي بعضها اشارة الى ان النبي كان يرى الملك الرباني بعين بصيرته وكان يسمع كلامه ويتلقى عنه ايضا . والأحاديث الواردة تفيد تارة نزول الوحي على قلب النبي ، وتارة رؤية النبي لملك الله وسماعه كلامه وتلقيه عنه كذلك .

وهذه رتاك وآثار عديدة اخرى تفيد ان الوحي كان ينزل على النبي وهو بين الناس أو هو في بيته فلا يشعر به غيره ، وكل ما يكون من مظهره أن يأخذه الجهد ويطرأ عليه شيء من الانفعال الروحاني ويتصبب عرقا ثم ينفصم عنه وقد وعى ما نزل عليه فيبادر الى ابلاغه وإملائه في مجلسه الذي يكون فيه ، ويستأنف ما كان فيه من عمل او حديث ، وتفيد كذلك أن النبي كان يشعر بان الوحي الرباني الذي نزل عليه بمختلف الطرق هو شيء منفصل عن ذاتيته ، ولا تصح المماراة في ذلك لانه المخبر الصادق بأمر لا يستطيع غيره أن يشعر به .

هذا ولقد أثر عن النبي النهي عن تدوين شيء غير القرآن عنه كما

تواترت الاخبار بأنه كان يأمر أحد كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القرآني فوراً . فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل عليه من وحي قرآني وبين كلامي العادي أو ما يجول في نفسه من أفكار وخواطر أو ما يلهمه من الله إلهاما او يوحى اليه إيحاء من غير القرآن وبالحرص علي عدم الخلط بينهما .

ومما يتصل بهذا الالهامات أو الايحاآت الربانية النبي في صدد أعمال وتشريعات عديدة . فغزوة بدر مثلا أقدم عليها النبي نتيجة لهذه الالهامات ، وسورة الانفال إنما نزلت بعد وقوعها .

وفي هذه السورة آيات تحتوي ، اشارات الى وقوع تلك الالهامات قبل الخروج احداها في صـــدد القافلة وهي (وإذ يعدكم الله إحدي الطائفتين أنها لكم) واثنتان منها في صدد المعركة وهما (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الابشرى ولتطمئن به قلوبكم . . . ومع ذلك فان النبي لم يبلغ هذه الالهامات على انها وحي قرآني قبـــل الخروج أو قبل المعركة ، ولكنه سار سير المسلمين إلى الهدف بها ، ولم يبلغ الآيات نصاً على أنها كذلك . الا بعد الواقعة وحينما أوحيت اليه مع فصول أخرى من سورة الانفال على انها كذلك . ومن هذا رحلة الحديبية وما كان مـن النبي فيها ورحلة خيبر وتشريع الفيء والخمس والزكاة وصلاة الجمعة وكيفيات وأوقات الصلوات الخمس والوضوء والتنكيل ببني النضير وبني قريظة وغير وغيره مما يصعب حصره لكثرته حيث كان ذلك بالايحاء والالهام الرباني فلم يبلغ النبي ذلك كوحي قرآني وإنما سار وسير المسلمين عليه بقوته ولعله بكفه للمسلمين على أنه إلهام او ايحاء مطلق ولم يبلغ ما جاء

في القرآن في هذا الشأن بعد السير والتسيير والعمل إلا حينا اوحي اليه على انه وحي قرآني .

ومما يزيد هذا وضوحا ما يروى عن النبي من الاحاديث المعروفة بالأحاديث القدسية والتي تحتوي كلاما ربانيا .

فليس من احد يمكن أن يفهم منطقيا بين هذه الاحاديث وبين ما يوحى الى النبي قرآنا .

ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظا او انذارا او تبشيرا أو اخبارا أو قصصا .

ومع ذلك فقد فرق بينهاوبين القرآن ولم يأمر النبي بتدوينها قرآنا.

ومما لا ريب فيه ان هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التي كان يدركها النبي لما يوحى اليه به قرآناً .

ولعل في آيات سورة يونس هذه :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي ان أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع الا ما يوحى الي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ١٥ – ١٦) .

دليلا قويا على ما نقرره من ذلك الشعور كما أن فيها برهانا على ان النبي ما كان يفكر في اي شيء من دعوة الناس والاستعداد لها ، وكل ما كان من امره أنه كان مستغرقاً في الله وآلائه وعظمته حتى صار مظهر رسالة الله والله اعلم حيث يجعل رسالته فأمربهافصدع بماأمر.

ومما يجدر التنبيه عليه :

اولا – إن في القرآن آيات عديدة تبدو أنها جاءت على لسان النبي أو على لسان الملائكة مباشرة أي غير مسبوقة بأمر القول ولا معطوفة على آيات فيها ذلك . مثل :

١ – الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله انني لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شي قدير . هود ١-٤

٢ – وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا .. مريم ٦٤

٣ – وما منا الا له مقام معلوم . وانا لنحن الصافون . وانا لنحن المسبحون .. الصافات ١٦٤ – ١٦٦

٤ – ففروا الى الله إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر اني لكم منه نذير مبين .. الذاريات ٥٠-٥١

وثانيا – إن فيه آيات أخرى احتوت تنبيهاً على حركة شخصية وفورية من النبي عليه السلام وليست متصلة بما سبقها او بما لحقها من الآيات سياقا وموضوعا وهي ايات سورة طه (١١١) والقيامة (١٦– ١٩) التي نقلناها قبل قليل .

ومع ان المفسرين قالوا في صدد الآيات المذكورة في الفقرة الاولى وأمثالها إن هناك تقديراً وهو ان الله أمر النبي بأن يقول ما قال ، وان الله بلغ النبي ما قاله الملائكة ، وأن الآيات على هذا التقدير هي من الوحي الرباني القراني فان في هذه الآيات وتلك ما يسبغ على المعنى الذي

نقرّره وضوحا على ما هو المتبادر حيث بلغت قرآنا مع ما جاءت عليه من صيغة واسلوب .

وعلى كل حال فالنصوص والآثار تسوغ القول ان صلة الوحي الرباني بالنبي هي صلة روحية خاصة به ، كان يشعر بها بالقوة التي اختصه الله بها دون ان يكون بامكان غيره إدراكها ، غير ان اثرها قائم قياماً حاسما لا سبيل الى المماراة فيه ، وان من الممكن ان يدرك بعض كيفياتها وصورها من الايات والاحاديث والايضاحات التي اوردناها آنفاً .

وروحانية صلة النبي عليه السلام بالوحي الرباني وخصوصية ذلك بادراك النبي عليه السلام قد تبدوان واضحتين ايضا بما كان من تحدي الكفار للنبي باستنزال الملائكة مما حكته آيات مكية عديدة مثل هذه :

١ - وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون .. الانعام ٨

٢ - فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل . هود ١٢

٣ - وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا اذاً منظرين .. الحجر ٦ ٨

٤ - وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً . الفرقان ٧

وجل هذه الآيات نزل في سياق الحجاج في صحة اتصال النبي بالوحي الرباني . فلو شاءت حكمة الله ان تكون صلة النبي هذه مادية يمكن ان

يدركها غير النبي لكان الملك تراءى الكفار أو غيرهم في معرض الافحام والالزام او التأييد .

هذا ، وننبّه على ان لعلماء القرآن ومفسريه من اصحاب النبي وتابعيهم ومن بعدهم أقوالا كثيرة في كيفية نزول القرآن ووحيه من الناحية الشكلية والعملية مثل كيفية تلقي الملك القرآن عن الله ، ومثل نقله القرآن عن اللوح المحفوظ ، ومثل انزال القرآن جملة واحدة الى السماء الدنيا وانزاله منها منجما ، ومثل كيفية تلقي النبي القرآن عن الملك وتحوله روحياً ليكون متناسباً مع الرواح الملكية وقادراً على التلقي من الملك الخ لم نر ضرورة الى التطرق اليها في هذا المقام ، لانها يبدو عليها آثار التكلف والتجوز التي تؤدي الى عدم الاطمئنان ، ولا سيما إن فيها تطرقاً لا يشفي غليلا ولا طائل من ورائه إلى السر الذي ظل على الرغم من ذلك كله محجوبا عن سائر الناس . على اننا سنعود الى طرق هذا الموضوع وما يتصل به في مقام اكثر مناسبة من هذا المقام .

شهود العيان لاعلام النبوة

واذا كانت صلة الوحي الرباني بالنبي على الوجه المشروح حقيقة لا يصح إيمان المسلم إلا بالايمان بها فإن اي شخص منصف حسن النية مهما كانت عقيدته لا يسعه إذا ما تمعن بالآيات والاحاديث ، إلا التصديق بصدق الشعور النبوي بها وبكون النبي إنما يصدر عن أمر راهن مهما ظل سراً ربانيا ونبويا فإنه لا يمكن المماراة فيه . على ان في شهود العيان دعامة حقيقية حاسمة في ما نعتقد أيضا . فقد شهد حادث نبوة النبي محمد (صلعم) آلاف الناس منهم العرب ومنهم غير العرب ، ومنهم المشركون ومنهم الوثنيون ومنهم الكتابيون ، ومنهم المستقرون من هؤلاء في

مكة والمدينة ومنهم الوافدون خصيصاً عـلى هاتين المدينتين للاستعلام والاطلاع على النبأ العظيم الذي بلغهم . ولقد آمن بنبوة النبي في بـدء الامر مئات منهم في مكة طوعا وشوقا ممـن طابت انفسهم وحسنت نياتهم وانار الحق قلوبهم في وسط المعارضة الشديدة التي تولى كبرها زعماء أشداء ألداء لاسباب عديدة ذكرها القرآن ، وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية في عقولها وشخصياتها وارومانها والتي لمع أفرادهـا لمعانا باهرا فيه الدلالة على هذه المزايا مثل ابي بكر وعمر وعـثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وابي عبيدة وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، ثم كان بينهم كثير مـن اهل الكتاب بـل وعلمائهم مستقرين ووافدين ممن طابت طوياتهم وحسنت نياتهم وتجردوا من الهوى والغرض وأنفوا من المكابرة والعناد ولم يبالوا بما كان من قوة الزعماء الاعـداء وتحرشهم واذاهم على ما احتوته الآيات القرآنية المكية كما ترى في هذه الامثلة :

١ ـ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون . الاعراف ١٥٧

٢ ـ ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . يونس ٦٢ ـ ٦٣

٣ ـ والذين أتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك الرعد ٣٦

٤ ـ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما

في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به اولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد . أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الالباب الرعد ١٨ ـ ١٩

٥ ـ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوءنهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون النحل ٤١ ـ ٤٢

٦ ـ قل آمنوا بـه اولا تؤمنوا إن الذين أوتو العلم من قبله أذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا . الكهف ١٠٧ ـ ١٠٩

٧ ـ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين(١) القصص ٥٢ ـ ٥٥

ثم آمن بها الرعيل الاول من اهل يثرب وكان من شأنهم ما كان من نصر وتأييد وتفان في دين الله ونبيه وامن منهم فريق من علماء اليهود وسط معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب مع زعماء اليهود لاسباب عديدة وصفها القرآن وصفا مسهبا وهي متصلة ايضا بنفس اسباب معارضة زعماء مكة وآمن معهم وفود من علماء النصارى وفدوا على

---

١ هناك ايات كثيرة اخرى وصف رائع لتقوى وورع وعباده وخشية المومنين السابقين تدل على عمق الايمان والاستغراق فيه في العهد المكي مثل الايات التالية الرعد ٢٠ ـ ٢٢ والفرقان ٦٣ ـ ٧٦ والمومنون ١ ـ ٨ والذاريات ١٥ ـ ١٩ والمعارج ٢٢ ـ ٣٥ والانسان ٥ ـ ٢٢

النبي في المدينة مستظلمين مستعلين ايضا على ما احتوته الآيات القرآنية المدنية كما ترى في الامثلة التالية :

١ - ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين ..

آل عمران ١١٣ ١١٤

٢ - وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم اجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب آل عمران ١٩٩

٣ - لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم اجراً عظيما.. النساء ١٦٢

٤ - لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين .. المائدة ٨٢ - ٨٣

٥ - والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ابداً ذلك الفوز العظيم (١) .. التوبة ١٠٠

---

(١) هناك ايات كثيرة اخرى تصف عمق ايمان المؤمنين الصادقين في العهد المدني واستغراقهم في نصرة الله ودينه ونبيه مثل البقرة ١-٥ و ١٥٥-٢٠٧ وال عمران ١٥ و١٧ و١٣٣-١٣٦ و١٩٠-١٩٥ والمائدة ٥ ، ٤-٦ والتوبة ٧١ والاحزاب ٢٣ و٣٥ والفتح ٢٩ والحديد ٨ ، ١-٩ والمزمل ٢٠ وهي مكية والحشر ٨-١٠

فالرعيل الاول من المؤمنين العرب المشركين سابقا في مكة والمدينة الذين آمنوا رغبة وطوعاً واستهانوا بكل شيء في سبيل ايمانهم، والكتابيون في مكة الذين آمنوا رغبة وطوعا مع أنهم كانوا اكثر تعرضا للاذى - وهذا وذاك في ظروف ضعف النبي المادي - وعلماء اليهود الذين آمنوا رغبة وطوعا واستهانوا بكل شيء في سبيل إيمانهم ولم يبالوا بعداء قومهم، وعلماء النصارى الذين جاؤوا مستطلعين فآمنوا كذلك بالصفة الرائعة التي ذكرتها آيات المائدة ٨١-٨٦ ما كانوا ليؤمنوا لو لم يشهدوا من اعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية وصلة النبي بالله ووحيه ما لا يسع الطيب النفس المتجرد عن الغرض الا ذلك.

- ٧ -

اثر القرآن الروحي وبلاغته النظمية

وهنا محل لاستطراد وتنبيه، فقد ذهب بعض الباحثين(١) استنتاجا مما ذكره علماء المسلمون عن بلاغة اللغة القرآنية الى ان هذه البلاغة كانت هي المؤثر الاول في ايمان الذين آمنوا في نجاح الدعوة النبوية. ومع كون اللغة القرآنية في الذروة العليا من البلاغة ليس محل شك فان في هذا الحصر شيئا من الخطأ في ما نعتقد، إذ يجب أن يضاف إلى ذلك روحانية القرآن وقوة نفوذه، بل ان هذه وتلك يجب ان تكونا مقدمتين.

والحق إنها كانتا المؤثرتين في الدرجة الاولى بالاضافة إلى روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها وشواهد اعلامها. ويبدو هذا واضحا في

(١) فيليب حتي واخرون من المستشرقين

كون فريق الرعيل الاول من المؤمنين في مكة قد آمن في وقت مبكر جداً ، وقبل ان يكون نزل من القرآن جملة كبيرة ، فلا يصح ان يشك في أن إيمانهم إنما كان بما نفذ الى اعماقهم من روحانية الدعوة النبوية وصدق لهجتها وبما شاهدوه من اعلام النبوة في الدرجة الاولى

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الوصف الذي به وصف أثر القرآن في الذين أوتوا العلم في ايات سورتي الاسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥٢ ٥٣ المكيتين لا يصح ان يكون وصف أثر فصاحة القرآن وبلاغته اللغوية فقط بل ولا يصح أن يشك في أنه وصف أثر روحانيـــة القران وقوة نفوذه بالاضافة الى روحانية الدعوة النبوية وشواهد اعلامها الصادقة في الدرجة الاولى ولا سيما إن المذكورين في الآيات كتابيون ويحتمل ان لا يكونوا عربا او ممن يجيدون العربية ويتذوقون بلاغتها بقوة والى أمثالهم على الارجح نسب الكفار تعليم النبي كما جاء في اية النحل « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ١٠٣ » حيث تقرر صراحة عجمة لسان بعض اهل العلم والكتابيين الذين كانوا في مكة . وهذا الذي نقوله في صدد المؤمنين السابقين من العرب والكتابيين في مكة ينسحب على من آمن بعدهم في مكة ثم في المدينة من الفريقين ايضا . والآيات التي نقلناها قبل قليل وخاصة ايات المائدة بالنسبة لعلماء النصارى تحتوي برهانا حاسما في هذا الشأن

وهناك ملاحظات مهمة في هذا الصدد تدعم ما نحن بسبيل تقريره ، وهي ان الذين آمنوا في العهد المكي كانوا بضع مئات في حين بقيت

الاكثرية العظمى من أهل مكة ثم سائر اهل المدن والبوادي العربية متصامّة عن الدعوة النبوية بل ومناوئة لها طيلة هذا العهد ، والنبي يتلو القرآن على كل من يلقاه من هؤلاء واولئك في المواسم وغيرها ، وظل الامر كذلك مع ان ثلثي القرآن قد نزلا في هذا العهد وأن الاسلوب القرآني المكي هو أقوى وأنفذ من حيث النظم والانـــذار والتبشير والترغيب والترهيب والحجاج والافحام والالزام ، وليس ما يصح قوله في حال إن الذين امنوا هم فقط الذين تذوقوا بلاغة القرآن وتأثروا بها فغالب الزعماء والنبهاء والشعراء وذوي الشأن كانوا في صفوف الكفار واقد ذكرت روايات السيرة (١) ما كان القرآن من تأثير في بعض زعماء الكفار ونبهائهم في مكة، وما كان منهم من اعتراف بسمو طبقته وبلاغته وحلاوته وقوة نفوذه ، ومع ذلك فقد ظلوا مناوئين الدعوة إلى النهاية استكباراً وعناداً وأنفة وعصبية وخوفاً على مراكزهم وزعامتهم إلى الفتح المكي أو بعبارة اخرى إلى أن هلك بعضهم وضعف شأن من بقي منهم وأمكن الله منهم

— ٨ —

أثر الدعوة القرآنية في نجاح الفتوحات الاسلامية

والمناسبة تجرنا الى استطراد وتنبيه آخر مهما كان موضوعه أمس بالتاريخ فإن له مساسا ايضا بالبحث الذي استطردنا اليه . فقد حلا لبعض المستشرقين والباحثين (٢) ان يقولوا إن مـــا تم من انتصار الجيوش الاسلامية في بلاد الشام ومصر والعراق إنمـــا كان انتصاراً للعروبة لا

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ و٢٦٦ و٢٧١ — ٢٢٢ و٢٨٥ — ٢٨٦

(٢) فيليب حتي وكايتاني

« المحمدية » – الدعوة الاسلامية – أو إن العامل الاقتصادي في بلاد العرب والعامل السياسي في امبراطوريتي الفرس والرومان هما أبرز عوامله وان الذين أسلموا من أهل هذه البلاد إنما أسلم أكثرهم للتخلص من الجزية أو نتيجة للاضطهاد. فهذه الدعوى تدعونا هنا الى التنبيه فقط – لان المقام لا يتسع للاسهاب – على أن القائلين قد أغفلوا أو تجاهلوا عن قصد أو غير قصد أثر الدعوة المحمدية القرآنية العظيم في يقظـــة العرب الجديدة وتجمعهم وموجتهم الكبرى في عهد الخلفاء الراشدين ، وكون قواد الحملات الاسلامية الاولى بنوع خاص وزعمائها ومشاهيرها كانوا من أصحاب النبي الذين رسخت فيهم مبادىء تلك الدعوة ، وكون هذه الحملات إمتداداً لحركات التنكيل والتأديب الدفاعية التي بدأت في عهد النبي في نطاق تلك المبادىء ، وكون الشعار الذي حمله هؤلاء هو الدعوة الى الاسلام بالموعظة والحكمة والجزية على من أبى من الاعـــداء وخضع السلطان الاسلامي حتى لا يُصدّ عن الدعوة ولا يُفتن المستجيبون إليها ويكون الدين كله لله ، والقتال لمن ظل على عدائه وصدّه إلى ان يتحقق ذلك القصد ، وما احتواه التاريخ الاسلامي من الصحف النورانية الوهاجة عن التصرف الذي تصرفه هؤلاء القواد والزعماء الذين زوّدهم الخلفـــاء الراشدون بالاضافة الى مـــا رسخ فيهم من مبادىء القرآن من الوصايا بالرحمة والبر والرأفة والوفـاء ورعاية الذمة وترك المسالمين والحياديين وغير المحاربين والعَجز والنساء والرهبان وشأنهم مما هو مستمد كذلك من تلك المبادىء ومن السيرة النبوية الشريفة ، وكون الدين الاسلامي لم يكن غريبا أو منحرفا في الاصل والجوهر عن الاديان السماوية التي كانت سائدة في هذه البلاد. فلكل من هذه الامور أثر قوي في ما تم للعرب المسلمين

من نصر وفتح، وما تم للدين الاسلامي من إنتشار واقبال في أثناء الحملات الأولى وما تبعها من ظروف . واذا كان التاريخ يذكر بعض ثورات قامت في بعض الجهات، وبعض نكسات حدثت أو بعض أحداث توقفت فيها تلك المبادىء فإن ذلك لا يبرر القول الذي قيل، وما أريد توجيهه من غمز أو إستهانة بآثار الدعوة النبوية القرآنية. واذا كان قصد التخلص من جزية خفيفة هي في الوقت ذاته بدل ضريبة الدم التي كان يؤديها المسلمون وبدل ما كان يبذله هؤلاء من حماية وذمة للدافعين سببا في اعتناق الاسلام فإنه يحمل نفسه معنى كبيراً ، وهو كون الدين الذي كان المرتدون عنه يدينون به لم يكن من الرسوخ والقوة في النفوس بحيث يكون أغلى من أن يباع بدينار أو دينارين أو أربعة دنانير في السنة يؤديها الرجل البالغ القادر حسب مقدرته ؛ لان الجزية لم تكن تؤخذ من النساء والاطفال والعجز. على أن من الحقائق التي لا تتحمل مماراة أن أكثر الذين اعتنقوا الاسلام من هؤلاء قد اعتنقوه عن قناعة ورغبة لانهم رأوه متطابقا مع ما هو عليه دينهم من أسس ، ومع كثير من تقريرات كتبهم المقدسة ، ووجدوا فيه حلولا لعقد عقائدية كانت تثير بينهم الحيرة والفتن الهوجاء وتجر عليهم الاضطهادات . ولعل انحدار اكثرهم من الأرومات العربية الجنس التي سماها المستشرقون الحديثون بالساميين ، وانتساب كثير منهم للعروبة التي تمركزت فيها هذه الارومات قد ساعد على الانطباق والاندماج . على ان بقاء شراذم من النصارى واليهود والسامريين والصبئة بعد الحملات الاسلامية الاولى ثم خلال ثلاثة عشر قرنا كان السلطان فيها والكثرة للمسلمين ، بل كان هذا السلطان في بعضها قويا ليس في الميدان من يدانيه قوة وشمولا أو يتحداه لدليل خالد رائع على ان الطوائف غير المسلمة لم

ترغم على الاسلام إجمالا ، وخاصة في عهد الحلات الاولى والظروف القريبة منها ، وان الذين اعتنقوه انما اعتنقوه بطوعهم وقناعتهم ، وان من بقي على دينه منهم قد تمتع بحريته وأمنه في ظل هذا السلطان وفي ظل مبادىء القرآن الذي قام عليه بما لم يكن مثله في أي حركة دينية قبله وبعده عاضدتها القوة والغلب ، بل وبما جاءت الوقائع والنصوص مؤيدة لعكسه على خط مستقيم . ومن الغريب أن يتجاهل المستشرقون المغرضون والمبشرون ذلك ويحاولوا ان يجعلوا الشذوذ في المسلمين وتاريخهم . وانه لمن الحق والانصاف ان يلاحظ استناداً الى ذلك الدليل الخالد الرائع انه قد يكون لما يمكن ان يكون وقع من نكسات أو تصرفات قاسية أسباب سياسية أو إدارية أو محلية كتمرد أو دس أو استفزاز أو إستجابة لدعاة سوء وشر أو لتحريكات خارجية مما سجل التاريخ بعض شواهده في سياق النكسات والتصرفات ومما كان سببا لايقاع مثلها في بعض طوائف المسلمين أنفسهم ايضا (١)

ومن الغريب الباعث على الدهشة ايضا ما يحلو لمبشري النصارى بل ولكتاب عرب (٢) منهم يودون ان يظهروا غير متعصبين تعصبا أعمى وغير مغرضين من تكرار القول بقوة تأثير النصارى في المسلمين وأثر النصرانية كدين في مدنية وحضارة بلاد الشام والعراق ومصر حتى بعد اعتناقهم الاسلام وتسلسله فيهم أجيالا عديدة ، وضنهم مع ذلك ان يجعلوا للاسلام والمسلمين والمبادىء القرآنية أثراً ما في الحضارة التي صارت

---

(١) في كتاب تاريخ التبشير والدعوة الاسلامية لارنولد تقريرات وشواهد كثيرة على ما جاء في هذا البحث ، ومثل هذه الشواهد مثبوتة في كتب التاريخ الاسلامي ايضا

(٢) فيلب حتي والاباء اليسوعيون في كتبهم العربية والافرنسية مثلا .

عليها هذه البلاد ، حتى بعد ان مضى على السلطان الاسلامي منها اجيال عديدة ، ثم من الاصرار على وصف رجل أو امرأة بأنه نصراني قديم او انه يستمد مظهره ودوره وروحه وسلوكه ومدنيته من نصرانيته ولو انه صار مسلما راسخا وقضى في إسلامه أضعاف السنين التي قضاها نصرانيا وغدا كيانه قائما بالاسلام ، حتى ولو كان عربيا أعرابيا من بني كلب او تغلب ولا ندري لماذا لا يُعقل ان ينطبع هؤلاء بالطابع الاسلامي ويتأثروا به وانهم لا بد من ان يكونوا منطبعين درما بالطابع النصراني وطابعين به الاسلام ؛ ثم لا ندري لماذا يحاول اولئك الكتاب العرب خاصة تهوين هذا التراث العظيم والبناء الباذخ ، وهم يعرفون انهم إنما يحاولون عبثا لا جدوى فيه .

- ٩ -

تطور سيرة النبي والتنزيل القرآني

والمناسبة تسمح كذلك بتنبيه واستطراد آخر . فقد حلا المستشرقين والمبشرين ان يستعملوا تعبيراً عجيبا في معرض الاشارة الى تطور السيرة النبوية في العهد المدني فيقولون ان النبي في هذا العهد انقلب من نبي الى حاكم او صار سلطانا اكثر منه نبيا او ما في معناه ، وقد اتخذ بعضهم بعض ما روته الروايات او ما تبادر لهم انهم فهموه من عباراتها او من عبارات القرآن في صدد بعض أحداث السيرة النبوية الشخصية والعامة في العهد المذكور وسيلة الطعن والغمز ، والقول ان النبي قد نقض المبادىء التي بشر بها ودعا اليها في مكة وخالفها .

اما ان السيرة النبوية في العهد المدني قد تطورت فهذا ما لا شك فيه وفي القرآن شواهد حاسمة عليه ؛ غير ان هذا لا يقتضي ان يكون النبي

قد انقلب إلى حاكم أو صار سلطانا أكثر منه نبياً . لان في القول تحكما في تعيين مدى « النبي » ومهمته لا يستند الى دليل واهن ، كما ان القول إن النبي قد نقض المبادىء التي بشر بها في مكة وخالفها خطأ فاحش لا يستند الى حق او شبهة من حق . والقرآن هو الحكم الحاسم والقول الفاصل في هذا وذاك ، لانه من جهة احتوى مبادىء وقواعد من شأنها تعيين مدى مهمة « النبي » ، ومن جهة احتوى صوراً للسيرة النبوية في مختلف ادوارها وعهديها . فعدم النفوذ الى مدى الايات والفصول القرآنية او عدم الاحاطة بها لا يمكن ان يغير حقيقة ما احتواه من هـذا وذاك بطبيعة الحال ، كما انه إذا كان هناك روايات متعارضة مع هذه المحتويات فانها تكون مدسوسة أو محرفة من دون ريب . والمماراة في ذلك مكابرة تنشأ عن الغرض وسوء النية والقصد حتما .

ولقد عين القرآن المكي مهمة النبي الرسول وهي الدعوة إلى دين الله الحق واخراج الناس من الظلمات الى النور ، وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث ، ورفع التكاليف الشديدة السابقة التي تقيد البشر وتغل ايديهم ونشاطهم ، وتبشير الذين يتبعونه ويطيعونه ويستجيبون الى دعوته بسعادة الدنيا والاخرة، وانذار الضالين المنحرفين بشقاء الدنيا والاخرة ، وبيان الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام ، ومحاربة الشرك بكل معانيه ، والا مختلف المكارم الاخلاقية الشخصية والاجتماعية والانسانية ، وال مختلف الاثام والمنكرات الشخصية والاجتماعية والانسانية . الحرية والمساواة والتسامح والتعاون والتواد والاخوة والاحسان ودفع البغي والعدوان ومقابلتها بالمثل

الناس حقوق بعضهم ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلا مع الظالمين ، وعلى اساس صلة النبي والقرآن بالوحي ، ثم على اساس طبيعة النبي البشرية ، والاتساق مع العقل والمنطق والمصلحة وطبائع الامور وحقائق الاشياء . وقد وعده الله هو والمسلمين معهبالنصر وأمرهم بالصبر الى ان يأتي أمر اللهفينصر رسوله والذين آمنوا وكان حقا عليه نصر المؤمنين مما هو مثبوت في مختلف الفصول والسور المكية .

فاذا انعم المرء النظر في القرآن المدني واخذه كمجموعة يتم بعضها بعضا فانه لا يجد مندوحة عن التسليم بأنه قد ظل في حدود ما رسمه القرآن المكي لمهمة النبي والدعوة النبوية ومبادئها وأسسها وتوجيهاتها ، ويرى دلائل ذلك في صريح الآيات ومراميها وتلقيناتها وروحها ، فنواة كل ما ورد فيه من تشريع وأوامر ونواه وتلقين وتوجيه اوجله موجودة في القرآن المكي ، وليس مما يصح في عقل عاقل وانصاف منصف ان يكون النبي الذي بلغ القرآن والذي قام الايمان بنبوته وتنزيله وطاعته والفناء فيه من قبل المؤمنين على ما شاهدوه من اعلام نبوته وقوة روحانيته وصدقه واستغراقه في مهمته العظمى وتخلقه بأخلاق القرآن قد خالف في مختلف ادوار سيرته بأقواله او افعاله او اوامره او نواهيه او توجيهاته النصوص والتلقينات والمبادىء القرآنية .

نقول هذا ونحن نعرف ان القائلين يذكرون فيما يذكرون على سبيل التدليل ما كان من تبدل موقف القرآن والنبي من اليهود قولا وفعلا ، ومن الدعوة الى قتال المشركين كافة ومطلقا وعدم قبول غير الاسلام منهم ، ومن الامر بقتال الكتابيين عامة حتى يسلموا او يعطوا الجزية ، وما وهموه من مناقضة بين هذا وبين الحرية الدينية التي قررها

القرآن المكي ، ومن اقتران الدعوة إلى الجهاد بالاغراء بالغنائم ، ومن ظهور النبي في مظهر ذي السلطان السياسي والحربي والقضائي والمالي والتشريعي ، وما وهموه من مناقضة بين هذا وبين مهمة « النبي » وما قرره القرآن المكي من انه لا يطلب اجراً وليس هو مسيطراً على الناس ولا جباراً ولا وكيلا ولا مسئولا ، وليس هو الا نذيراً وبشيراً وداعيا الى الحق فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، ومن القائلين من ضاق افقه ونظره وخلط مع هـذا زوجات النبي وحياته الخاصة ايضا .

غير ان انعام النظر مع الانصاف والاحاطة يظهر الحقيقة ساطعة وهي ان ما كان من تطور في السيرة النبوية المدنية وفي المرامي القرآنية المدنية ليس هو تطوراً في معنى الانحراف عن الاصل المكي سيرة وقرآنا وانما هو في حدود هذا الاصل ونطاقه . فالقرآن المكي وان كان دعا إلى ما دعا اليه ونهى عن ما نهى عنه بأسلوب الحث والتحريض والترغيب والترهيب والتحسين والتقبيح والتقرير والتبليغ فانه انطوى على نواة الامر والنهي والتشريع ايضا كما نرى في الايات التالية مثلا :

١ – قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا اولادكم من أملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . الانعام ١٥١ – ١٥٢

٢ ـ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل بــــه سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون (١) . الاعراف ٣٢

فاذا تطور تطور هذا الى اسلوب التشريع الحاسم في العهد المدني فانه انما كان تطورا تطبيقيا ليس فيه شيء من الانحراف والغرابة ، كما ان تمثل قوة التشريع والحكم والقضاء والقيـــادة والزعامة في شخص النبي عليه السلام هو نتيجـة طبيعية لهـذا التطور التطبيقي ، وليس من مسوغ للقول إن طبيعة مهمة النبوة لا تتحمله .

وكل ما كان من تبدل في القرآن وموقف النبي إزاء اليهود والدعوة الى قتال المشركين والامر بقتال الكتابيين لم يخرج في اصله عن المبادىء القرآنية المكية ، ويجد الذي ينعم النظر في الفصول القرآنيـة المكية والمدنية دلائل حاسمة على ذلك . فالقرآن المـــكي قرر الحرية الدينية والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولـكنه قرر كذلك حق المسلمين في الدفاع والانتصـــار من البغي ، واوجب الوقوف من الظالم موقف الشدة بالمقابلة كما ترى في هذه الايات :

« فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبـائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجـــابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله . انه

---

(١) ومن هذا القبيل آيات الاسراء ٣٢ ــ ٣٩

لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون النـاس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم .

الشورى ٣٤ - ٤١

والقرآن المدني . انما ثبت هذه التقريرات في صيغة الامر والتشريع وحسب وامر بالتزام العدل التام مع الاعداء والوفاء بعهد المعـــاهدين وبترك المسالمين والمحايدين وشـــأنهم ، وبل وبتشجيع البر بهم والتواد معهم ، وبانكار كون الغنائم غاية من غايات الحرب الاسلامية ، وبالجنوح للسلم اذا جنح العدو لها كما ترى في الايات التالية التي هي قليل من كثير في هذا الباب :

١ - وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتـــلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المســجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الـكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتـدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين . البقرة ١٨٩ - ١٩٢

٢ - الا الذين يصلون الى قـــوم بينكم وبينهم ميثاق او جاؤكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم او يقاتلوا قـــومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والـقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . . النسـاء ٨٩ .

٣ - يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا . ان الله كان بما تعملون خبيرا النساء ٩٤

٤ - ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب .. المائدة ٢

٥ - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون .. المائدة ٨

٦ - وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم .. الانفال ٦١

٧ - الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . التوبة ٤

٨ - الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين . . التوبة ٧

٩ - لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون الممتحنة ٨ - ٩

ولا يمكن في حال ان يكون النبي عليه السلام قد ناقض المبادىء

القرآنية التي بلغها ، وروايات السيرة الوثيقة تؤيد ان ما كان من قتال بين المسلمين والمشركين العرب وغيرهم في حياة النبي انمــا كان دفاعا وانتصارا من الظلم والعدوان وتوطيداً لحرية الدعوة الى الاسلام . وانه لم يكن بسبيل اكراه الناس على الاسلام او بدء احد بالعدوان والاكراه ولا يقدح في هذا ان يكون كثير من العرب قد اسلموا بعد ان قوي المسلمون وانتصروا على اعدائهم وفتح الله عليهم مما يمكن ان يكون طبيعيا لا شذوذ فيه طالما لم يكن فيه اجبار واكراه . ولعل ما كان بين النبي عليه السلام وبين فئات المشركين من معاهدات في مختلف أدوار العهد المدني اكبر دليل على ما نحن بسبيل تقريره . ولعل التمعن في نص سورة النصر يجلّي هذه الحقيقة كل التجلية ؟ فان في تعبير «يدخلون في دين الله افواجا» لوصفا رائعا للاقبال التطوعي على الاسلام مهما كان ذلك نتيجة من نتائج الفتح والنصر والتغلب على الاعداء البغاة الصادين عن دين الله وخضد شوكتهم ، بل ان هذا يحمل على القول ان عدم اقبال الناس على الاسلام قد كان اثراً لنشاط هؤلاء الاعداء ومكرهم ومؤامراتهم وحسب . وهو ما تؤيده نصوص قرآنية عديدة ايضا كما ترى في الآيات التالية مثلا .

١ ـ اذ تبرأ الذين اتبِعوا من الذين اتبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب . . البقرة ١٦٦

٢ ـ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا . انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء . ابراهيم ٢١

٣ ـ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار

اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له انداداً . سبأ ٣٣

كذلك يجد الذي ينعم النظر في النصوص القرآنية ان قتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية محدود بحد الذين لا يدينون بدين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وان هؤلاء ليسوا جميع اهل الكتاب وانما فريق منهم . ومعلل كذلك بان زعماءهم الدينيين كانوا يصدون عن سبيل الله لضمان منافعهم المادية كما ترى في الآيات التالية :

١ - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . التوبة ٢٩

٢ - يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . التوبة ٣٤

ثم يجد ان اليهود وغيرهم تمتعوا بكل حرية الجدل والحجاج والانكار والجحود بل بث الشكوك والريب في صدور المسلمين وغيرهم بل والوقوف موقف السخرية والتحدي مع احتفاظهم بدينهم وطقوسهم وعهودهم وان موقف العداء الحربي ضد العرب منهم انما كان مقابلة على ما بدا منهم من صد وأذى وطعن واخراج وفتنة وظلم ومؤامرة وبغي وإنّ هذا الموقف من اليهود لم يكن الا بعد أن بدا منهم الصد والطعن والاذى والغدر والنكث والتآمر مع الاعداء المحاربين ومظاهرتهم في في الحرب مما جاء في القرآن قوياً صريحاً واضحاً (١) وبالتالي ان ما كان

---

(١) في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة آيات وفصول عديدة وطويلة فيما كان لليهود من مواقف حجاجية وتشكيكية وتآمرية كما ان في سور الانفال والحشر والاحزاب آيات صريحة بمواقف النكث والعداء والخيانة التي وقفوها فاستحقوا عليها

من احداث بين النبي واليهود لم تخرج عن نطاق المبادىء القرآنية المكية والمدنية . أما ما كان من غزوات مشارف الشام التي يقطنها نصارى العرب في زمـــن النبي كدومة الجندل وبني كلب ومؤتة وتبوك فالروايات كثيرة على انها لم تقع الا مقابلة على عدوان هؤلاء على قوافل المسلمين ، والحملات التي جهزها ابو بكر ليست الا امتداداً لها ولحركات حروب الردة .

والقول ان الجهاد اقترن بالاغراء بالغنائم مهما كان فيه شيء من الحقيقة الا انه طبيعي لا شذوذ فيه ما دام الجهاد دفاعيا وفي نطاق الانتصار من الظلم . على ان في اطلاق القول توسعا لا ينطبق على نصوص القرآن فاكثر آيات الجهاد اقترنت ببيان واجب الجهاد وضرورته وثوابه عند الله والقليل الذي اقترن بوعد الفتح والغنائم اقترن ايضا ببيان الواجب والضرورة وحسن الثواب عند الله ، وان من الحق ان يقرر ان ذلك على كل حال قد جاء في القرآن وظل ثانويا ولم يكن رئيسيا أصلا (١)

وعلاوة على هذا فان الحث على الانفاق في سبيل الله قد شغل حيزاً غير يسير من القرآن وجاء بأساليب قوية نافذة .

التشكيل مما يستغرقه حيزا واسعا اقرأ مثلا ايات البقرة ٢٤٠-٢٤٤ و٧٥-٧٦ و١٠٦ و١٣٩ و١٤٧ وال عمران ٦٥ - ١٢٠ والنساء ٤٤-٥٦ و١٥٣ - ١٦٥ والمائدة ٤١ - ٤٢ و٥٧-٧٦ و٧٧ والانفال ٥٥-٦٣ والاحزاب ٢٦ - ٢٧ والحشر ١-٤

(١) اقرا مثلا الآيات التالية البقرة ١٥٤ الى ١٥٧ و١٩٠ الى ١٩٤ و٢١٦ الى ٢١٨ وال عمران ١٣٩ الى ١٤٨ و ١٦٩ الى ١٧٩ و ١٩٥ والنساء ٧٢ الى ٧٦ و ٩٤ الى ١٠٠ والمائدة ٣٣ الى ٣٤ و ٥١ الى ٦٦ والانفال ١ الى ٨ و٣٨ الى ٤٧ و ٥٥ الى ٧١ والتوبة ١ الى ١٦ و ٢٠ الى ٢٢ و٢٩ الى ٣٥ و٨٩ الى ١٠٠ و ١١١ و١١٨ الى ١٣٢ والحج ٣٩ الى ٤١ والاحزاب ٢٢ الى ٢٧ و ١٠ الى ١٤ والصف ١٠ الى ١٣

وهذا بما يكون قرينة قوية على الهدف الذي استهدف بالجهاد وهو توطيد الامن وحرية الدعوة ودفع البغي والعدوات وايجاب الانفاق عليه على المسلمين اكثر من اغرائهم بالمغانم من ورائه (١)

اما حياة النبي الشخصية وزواجاته فانها من جهة متسقة مع طبيعة النبي البشرية التي قررها القرآن ، ومن جهة فان في الفصول القرآنية ما يزيل ما وقع من الوهم في مشكلاتها وما يدل على الخطأ في فهمها ورواياتها . وفي آيات تخيير نساء النبي في سورة الاحزاب ٢٨-٣٤ ما فيه كل الاتساق مع عظمة خلق النبي واستغراقه في الله ومهمته العظمى وما كان يختاره من شظف العيش وضنكه في حياته البيتية الخاصة . هذا مع القول ان الاخذ والرد في هذه الناحية ليس الا ظاهرة من ظواهر التمحل والهوى وضيق الافق والنظر والتعامي عن الجوهر واللباب (٢)

- ٩ -

القرآن والعرب في عهد النبي

والناظر في القرآن يجد ان موضوع (القرآن) وصلته بالوحي الرباني كان موضوعا رئيسيا بل من اهم المواضيع الجدلية بين النبي وبين زعماء

---

(١) اقرأ الفصل الرائع في سورة البقرة ٢٦٠ الى ٢٦٤ وكذلك ايات البقرة ١٩٥ و ٢٤٥ و ٢٥٤ والحديد ١٠ الى ١١ و ١٨ مثلا

(٢) في مختلف فصول كتابنا سيرة الرسول الذي صدر عام ١٣٦٨ - ١٩٤٨ شروح وبيانات وافية مؤيدة بالاسانيد القرآنية في صدد جميع ما تناوله هذا البحث وخاصة في فصول اليهود والنصارى والجهاد والتشريع في الجزء الثاني

الكفار ونبائهم . وقد نسبوا الى النبي في سياق ذلك أنواع النسب فقالوا انه شاعر وانه كاهن وانه ساحر وانه كاذب وانه مفتر وانـــه يقتبس ما يتلوه من اساطير الاولين وكتبهم وقصصهم، وان هناك من يعلمه ويساعده في ما ينظمه ويتلوه ، وأنـــه مسحور وانه مجنون وان الذين يوحون اليه به هم الشياطين والجن على ما كانوا يعتقدون ذلك في شأن السحرة والكهان والشعراء وتآمروا سراً وعلناً على التشويش عليه واللغو عند تلاوته، والاعراض والصد عن سماعه، واستغلوا بعض الظروف (١) في صدده فحملوا بعض ضعفاء الايمان على الارتداد الخ ، ويجد أنّ هذا الموضوع قد شغل حيزاً غير يسير من سورة القرآن وخاصة المكي منه (٢) ، وان القرآن قد حكى عنهم ما قالوه وفعلوه بكل ما في ذلك من جرأة وصراحة وبذاءة وسوء أدب واتهام ومكابرة ، ورد عليهم ردوداً قاطعة قوية عنيفة كانت تتلى عليهم على ملأ الناس وتقذف في وجوه الجاحدين والمعاندين والمكذبين والصادين والمحاجين مسفهة تارة

---

(١) اقرأ آيات النحل ٩٨—١١٠ وكتابنا سيرة الرسول ج ١ ص ٢٤١—٢٤٤

(٢) الآيات كثيرة جداً ومثبوتة في سور القرآن عامة المكي منها خاصة ومع ذلك فانا نشير الى بعضها للرجوع اليه والتمعن فيه : البقرة ٢١—٢٥ و٤٠—٤٦ و ٨٩—٩١ والنساء ١٦٣ ـ ١٧٠ والانعام ٦٨ - ٦٩ و ١٢٤ والانفال ٣١—٣٢ ويونس ١٢—١٧ و٣٦ ـ ٤٠ وهود ١٣ ـ ١٤ والحجر ٦ ـ ١٥ والاسراء ٤٥ ـ ٤٨ و ٨٩ ـ ٩٣ والكهف ١—٦ والانبياء ٢—١٠ والمؤمنون ٦٦—٦٧ والفرقان ١ ـ ٦ و ٣٠ ـ ٣٤ والشعراء ١٩٢ ـ ٢٢٧ والنمل ١—٦ والعنكبوت ٤٥ ـ ٥٢ والسجدة ١ ـ ٣ وسبأ ١ ـ ٩ و٣١ ـ ٣٥ و٤٣ ـ ٤٨ والحج ٧٢ ـ ٧٨ وفاطر ٢٩ ـ ٤٣ ويس ١ ـ ١٢ و ٦٩ ـ ٧٠ وفصلت ٢٦ و٤٤ الى ٤٦

ومندّدة تارة ومتحدية تارة ومبينة للاسباب الحقيقية التي تمنعهم من الايمان والتصديق تارة كالاستكبار والتعاظم والاعتداد بالمال والجاه والعصبية، وخشية فقدان المنافع والمصالح وعدوان الخارج وقطيعة الناس وانفضاض الجمهور عنهم الخ ، ثم ظل النبي بتأييد الله ووحيه وقوته وتثبيته لا يزداد إلا استغراقا في مهمته وفناء في ربه واستمراراً في الدعوة اليه واشفاقا على قومه لينقذهم ثم لينقذ البشر جميعا من الضلال ويخرجهم من الظلمات الى النور ، الى ان يسر الله أمر الهجرة إلى المدينة المنورة وأيـد نبيه بنصره وحقق له وعده فنصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب ،واهلك اكثر الزعماء الاقوياء المستكبرين الصادين الذين قادوا حملة المعارضة وتولوا كبرها ، ودخل الناس في دين الله افواجا وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلي . فالقرآن يمثل فيما يمثل هذه القوة الروحانية العظمى التي كانت وما زالت الحاسمة في الموقف والمثيرة للاعجاب والاعظام والاجلال .

ومن الجدير بالذكر ان كل ما يمكن ان يقوله كافر جاحد عنيد شديد العداء عن القرآن والنبي قد قاله كفار العرب في حضرته مباشرة ، وبكل عناد وقوة ولجاجة ، وان النبي قد رد عليه بلسان القرآن بكل قوة وعنف وقطعية وإفحام وصمد له صموداً رائعاً عظيما . وكان ذلك على مرأي ومسمع مـن مختلف الفئات ثم استمر في تبليغ الدعوة الى الله ومكارم الاخلاق واسباب سعادة الدارين ، وفي كل هذا دليل قوي أخاذ على ما كان من عمق شعوره عليه السلام بصدق رسالته وصدق صلته

بالوحي الرباني وادراكه التام لمدى مهمته العظمى واستغراقه فيها .
وان المرء ليشعر بهذا شعوراً يملك عليه نفسه اذا كان حسن النية متجرداً
عن الهوى اذ يقرأ في القرآن آيات النساء ١٦٧ والانعام ٩٣ والشورى ٢٤
والاحقاف ٨ والحاقة ٣٨ ٥٢ الـتي نقلناه قبل ويقرأ منها آيات
يونس هذه :

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن
غير هذا او بدله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا
ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله
ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً مـن قبله أفلا
تعقلون » . ١٥ – ١٦

ومن العجيب ان يظل المفرضون من المبشرين والمستشرقين يأخذون
ويردون ويعيدون ويبدئون فيما لم يقصر به زعماء كفار العرب مع
النبي مباشرة ، وبعد ان احتوى القرآن ما احتواه في صدد ذلك من
آيات رائعة وردود قوية وتحد مفحم وصميمية نافذة متولية ، وان
يتمسكوا كما تمسك اولئك بالقشور دون اللباب وبالعرض دون الجوهر
وان لا يتورعوا عن البذاءة والغثاثة والصغار والمراء بالباطل وان لا
يكون تقدم الادب الانساني والحضارة الانسانية والتفكير الانساني
ذا اثر رادع في مكابرة المكابرين ومماراة الممترين وخروجهم فيهما عن
نطاق الادب والحق والمنطق .

الفصل الثاني

جمع القرآن وتدوينه وقراءاته ورسم المصحف وتطبعاته

- ١ -

مجموعات من الروايات والاقوال في تدوين القرآن :

أما تدوين القرآن وجمعه وترتيبه فان الناظر في كتب علماء القرآن ورواة الحديث عنهما يجد اقوالا وروايات كثيرة حول هذا الموضوع مختلفة اختلافا غير يسير ، ومتعارضة احيانا .

فأولا : ان هناك اقوالا وروايات تفيد ان النبي عليه السلام توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، وان جمعه وترتيبه انما تما بعد وفاته وان ما كان يدون منه في حياته كان يدون على الاكثر على الوسائل البدائية مثل اضلاع النخيل ، ورقائق الحجارة واكتاف العظام وقطع الاديم والنسيج ، وان المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة ، وكانت على الاكثر متفرقة عند المسلمين ، وان المعول في القرآن ، انما كان على القراء وصدور الرجال :

١ - فقد ورد حديث منسوب الى زيد بن ثابت برواية الزهري جاء فيه ان النبي قبض ولم يكن القرآن قد جمع بشيء . ولقد علق الخطابي على ما جاء في اتقان السيوطي على هذا الحديث بقوله إنما لم يجمع النبي القرآن لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وآياته . فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك بوفاء وعده الصادق بضمان

حفظه على هذه الامة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر . ثم قال وأماما اخرجه مسلم من حديث ابي مسلم « لا تكتبوا عني غير القرآن » فلا ينافي ذلك لان الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة . وقد كان القرآن كله كتب في عهد رسول الله لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور .

٢ - وقد روى البخاري حديثا عن زيد بن ثابت عن جمع القرآن بعد وفاة النبي هذا نصه : قال زيد/ ارسل الي ابو بكر بعد مقتل اهل اليمامة فاذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر إن عمر اتاني فقال ان القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن واني اخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن واني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله قال عمر هو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري بذلك ورأيت الذي رأى عمر . قال ابو بكر إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني في نقل جبل من الجبال ما كان اثقل علي ما أمراني به من جمع القرآن . قلت فكيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله . قال هو والله خير . فلم يزل ابو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر . فتتبعت القرآن اجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الانصاري لم اجدها مع غيره . فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة .

٣ - وقد روى ابن شهاب حديثا جاء فيه أن ابا بكر قال بعد أن تم جمع القرآن التمسوا له اسما فقال بعضهم السفر وقال بعضهم المصحف

فان الحبشة يسمونه المصحـــف . فسماه ابو بكر المصحف . وقد أورده المظفري رواية أخرى جاء فيها أن ابا بكر لما قال سموه قال بعضهم سموه إنجيلا فكرهوه وقال بعضهم سموه السفر فكرهوه فقال ابن مسعود رأيت بالحبشة كتابا يدعونه المصحف (١) فسموه به . هـذا في حين ان هناك حديثا بخاريا آخر في نفس السياق يذكر أن المجموعة كانت تسمى « الصحف » . وعلى كل حال فحديث تسمية المجموعة بالمصحف يفيـد ان هذه التسمية التي استفاضت حتى صارت العلم على مجموعة القرآن استعملت لاول مرة في جمع عهد أبي بكر .

٣ — واخرج ابو داود حديثاً آخر جاء فيه ان عمر أعلن الناس من كان تلقى من رسول الله شيئا من القران فليـأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والالواح والعسب . وكان لا يقبل من احـد شيء حتى يشهد شاهدان .

٤ - وروى ابن شهاب حديثا آخر جاء فيه : إنه لما اصيب المسلمون باليمامة فزع ابو بكر وخاف ان يذهب من القران طائفة فأقبل النـاس بما معهم حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق . فكان ابو بكر اول من جمع القران .

---

(١) الاول بأنه اقترح ان تسمى المجموعة انجيلا محل نظر في ذاته لان اصحاب رسول الله يعرفون ان هذه التسمية خاصة بكتاب عيسى والنصارى . ولقد قيل ان كلمة « المصحف » دخيلة ونحن نرى ذلك غريبا لأن معنى هذا انها لم تكن معروفة الاصل والاشتقاق والمعنى عند العرب في حين ان الكلمة على ما هو الارجح ان لم نقل على الجزم متصلة بكلمة صحف وصحيفة . وكلمة صحف وردت اكثر من مرة في القرآن حيث وردت في سور الاعلى والنجم وعبس والقيامة .

٥ - وروى الليث ابن سعد حديثاً جاء فيه ان عمر اتى بآية الرجم فلم يكتبها زيد لانه كان وحده .

٦ - وروى عمارة بن غزية حديثا جاء فيه أن زيداً بن ثابت قال أمرني أبو بكر فكتبته في قطع الاديم والعسب . فلما هلك ابوبكر وكان عمر ، كتبت ذلك في صحيفة واحدة .

٧ - وروى عكرمة ان علياً بن ابي طالب قعد في بيته بعد بيعة أبي بكر فقيل لابي بكر كره بيعتك . فأرسل اليه فقال اكرهت بيعتي . قال لا والله قال ما اقعدك عني . قال رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسي ان لا البس ردائي إلا للصلاة حتى اجمعه . قال له ابو بكر نعم مارأيت

٨ واخرج ابن سيرين حديثا جاء فيه ان عليا لما مات النبي قال آليت ان لا اخذ علي ردائي حتى اجمع القرآن . فجمعه وانه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ .

٩ - واخرج أبو داود حديثا عن علي جاء فيه اعظم الناس في المصاحف اجرا ابو بكر رحمة الله على أبي بكر . هو اول من جمع كتاب الله .

١٠ - وأورد ابن اشته في كتاب المصاحف حديثا جاء فيه ان أول من جمع مصحفا بعد وفاة النبي هو سالم مولى حذيفة .

١١ - وأورد السيوطي في الاتقان أن ابن فارس وهو من علماء القرآن قال إن تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين قد تولته الصحابة .

١٢ - وقال الحاكم إن جمع القرآن الثالث هو ترتيب السور وقد تم ذلك في زمن عثمان .

- ٢ -

ثانياً : إن هناك روايات كثيرة عن وجود اختلاف في ترتيب مصاحف بعض الصحابة وعن كلمات زائدة كتبت في بعض المصاحف ولم تكتب في المصحف المتداول وعن آيات كانت تقرأ ولم تكتب كذلك هي هذا المصحف مما يفيد ان النبي توفي ولم يكن القرآن قد جمع ورتب ايضا .

١ - فمن الروايات التي اوردها السيوطي نقلاً عن كتب علماء القران والمصاحف انه كان لكل من ابي بن كعب وعبد الله مسعود وهما صحابيان وعالمان في القران (١) مصحف وان ترتيب سور كل منها مغاير لترتيب الآخر من جهة ومغاير لترتيب سور المصحف العثماني المتداول من جهة اخرى ، وان في احدهما زيادة وفي احدهما نقصا وان المصحفين ظلا موجودين يقرآن إلى ما بعد عثمان بمدة طويلة . وقد نقل السيوطي كلا من الترتيبين عن كتاب المصاحف لابن اشته ، وفي مصحف ابي سورتان صغيرتان زائدتان عن سور المصحف واحدة اسمها سورة الحفد وهذا نصها : « اللهم إياك نعبد . ولك نصلي ونسجد . واليك نسعى ونحفد نخشى عذابك . ونرجو رحمتك . ان عذابك بالكفار ملحق » . والثانية اسمها سورة الخلع وهذا نصها : « اللهم انا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك . ونخلع ونترك من يفجرك » . وقد اخرج الطبراني بسند صحيح عن ابي اسحاق على ما ذكره السيوطي ان امية بن خالد ام الناس في خراسان فقرأ بسورتي الحفد والخلع . وهذا

(١) في حديث عن عبد الله بن جابر اورده السيوطي انه سمع النبي يقول خذوا القران عن اربعة عبد الله بن مسعود ومعاذ وسالم وابي . وهناك احاديث اخرى في هذا المعنى فيها بعض الخلاف ولكن اسمي عبد الله وابي موجودان فيها .

كان بعد عثمان بمدة طويلة. ومما اورده السيوطي ان سورتي الفيل وقريش في مصحف ابي سورة واحدة ، وان سورتي الضحى والانشراح في مصاحف بعض الصحابة سورة واحدة كذلك . اما مصحف ابن مسعود فليس فيه على ما رواه أولئك الرواة سور الفاتحة والمعوذتين ، ومن المروي كذلك انه كان يحك المعوذتين ويقول إنهما ليستا من كتاب الله

٢ - وروى عبد الله بن زبير الغافقي ان عبد الملك بن مروان قال له لقد علمت ماحملك على حب ابي تراب (١) الا انك أعرابي جاف . فقال له والله لقد جمعت القرآن (٢) من قبل ان يجتمع أبواك . ولقد علمني منه علي بن ابي طالب سورتين علمهما اياه رسول الله ما علمتها انت ولا أبوك وهما سورتا الخلع والحفد .

٣ - وروى البيهقي ان عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال بسم الله الرحمن الرحيم ثم سرد سورتي الحفد والخلع . واستدل على أنها سورتان من تقديم البسملة عليهما .

٤ - وأورد السيوطي حديثاً عن عائشة برواية عروة بن الزبير جاء فيه ان سورة الاحزاب كانت تقرأ في زمن النبي مئتي آية . فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها الا ما هو الآن.

٥ - واورد كذلك حديثا عن أبي بن كعب انه سأل زراً بن حبيش كم تعد سورة الاحزاب قال اثنين وسبعين او ثلاثاً وسبعين . قال إن كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم قال . وما آية الرجم قال: « اذا

---

(١) كان النبي قال لعلي مرة أبا تراب من قبيل المداعبة على ما روي فصار خصومه ينعتونه بهذا اللقب على سبيل التنقص .

(٢) كانوا يعنون بجمع القرآن حفظه غيبا احيانا

زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم

٦ - وأورد عن امامة بن سهل قالت لقد أقرأنا رسول الله أية الرجم الشيخ والشيخة فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة .

٧ - واورد حديثاً رواه مسلم عن ابن عباس جاء فيه ان عمر بن الخطاب خطب الناس قائلا لقد خشيت ان يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة انزلها الله. ان الله بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها وعقلناها ورجم رسول الله فرجمنا معه ألا وان الرجم حق على من زنى وقد احصن اذا قامت البينة او كان الحمل او الاعتراف

٨ - وروي عن الليث بن سعد ان عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها زيد لانه كان وحده .

٩- وروي عن حميدة بنت ابي اويس قالت قرأ علي ابي وهو ابن ثمانين في مصحف عائشة (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وعلى الذين يصلون في الصفوف الاولى .) وذلك قبل ان يغير عثمان المصاحف .

١٠ - وروي عن ابيّ بن كعب . باخراج الحاكم ان رسول الله قال لي ان الله امرني ان اقرأ عليك القرآن فقرأ « لم يكن الذين كفروا الى آخر السورة. ومن جملة ما قرأ « لو ان ابن آدم سأل واديا من مال فأعطيه سأله ثانياً وان سأل ثانيا فأعطيه سأله ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب . وان ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية . ومن يعمل خيراً فلن يكفره »

١١ - وروي عن ابي واقد الليثي ان رسول الله كان اذا اوحي اليه بشيء أتيناه فعلمنا ما اوحي اليه قال فجئت ذات يوم فقال ان الله يقول « انا انزلنا المال لاقام الصلاة وإيتاء الزكاة . ولو ان لابن آدم واديا لاحب ان يكون اليه الثاني ولو كان اليه الثاني لاحب ان يكون الثالث . ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

١٢ - وروي عن عدي بن عدي عن عمر قال : كنا نقرأ « ولا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم » ثم قال لزيد بن ثابت أكذلك قال نعم .

١٣ - وروي عن ابي سفيان الكلاعي ان مسلمة بن مخلد الانصاري قال لهم ذات يوم اخبروني بآيتين في القرآن لم يكتبا في المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك فقال ابن مسلمة بهما « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم الا أبشروا أنتم المفلحون . والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

١٤ - وروى المسور بن مخرمة ان عبد الرحمن بن عوف قال الم نجد في ما أنزل علينا « جاهدوا كما جاهدتم اول مرة » فانا لا نجدها . قال اسقطت فيما أسقط من القرآن .

١٥ - وروي عن ابن عمر : لا يقولن احدكم اخذت القرآن كله وما يدريه ما كله قد ذهب منه قرآن كثير . ولكن ليقل قد اخذت منه ما ظهر .

١٦ - ويروى عن ابي موسى الاشعري: كنا نقرأ سورة نشبهها باحدى المسبحات ما نسيناها غير اني حفظت منها ، يا ايها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا تفعلون ، فتكتب لكم شهادة في أعناقكم فتسئلون عنها يوم القيامة .

١٧ - واورد محمد صبيح في كتاب القرآن (ص١٦٤) رواية لم يورد مصدرها عن سورة اسمها سورة النورين يزعم بعض المستشرقين ان عثمان اسقطها مـــن مصحفه وانها مثبتة في مصحف علي بن ابي طالب وهــــذا نصها :

« يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالنورين . انزلها يتـــلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضها من بعض وأنا السميع العليم ان الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات النعيم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم ومـا عاهدوا الرسول عليه يقذفون في الجحيم ظلموا انفسهم وعصوا ولي الرسول أولئك يسقون من حميم . ان الله الذي نور السماوات والارض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء . لا آله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فاخذتهم بمكري ان أخذي شديد أليم . يا ايها الرسول بلغ انذاري فسوف يعلمون . مثل الذين يوفون بعهـــدك اني جزيتهم جنات النعيم . وان علياً لمن المتقين . ولقد ارسلنا موسى وهرون بما استخلف فبغوا هرون فصبر جميل فاصبر فسوف يبلون . ولقد آتيناك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصيا لعلهم يرجعون . ان عليا قانتا بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون »

١٨ - وقد ورد في موطأ الامام مالك عن ابي يونس مولى عائشة قال امرتني عائشة ان اكتب لها مصحفا ثم قالت اذا بلغت هذه الآية فاذني حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، فلما بلغتها اذنتها فأملت علي « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر . ثم قالت سمعتها من رسول الله . وفي الموطأ حديث عن عمر بن رافع ان حفصة أمرته ان يكتب لها مصحفا ثم يتم الحديث بنفس الصيغة السابقة حرفيا .

١٩ - وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ آية الكهف هكذا « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وآية البقرة هكذا « لا جناح عليكم ان تبتغوا فضلا من ربكم في المواسم » وروى عن ابن الزبير أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما اصابهم » وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله من اجل ما جئتكم به » ويقرأ آية النساء هكذا « فما استمتعتم به منهن الى اجل مسمى فآتوهن اجورهن ويقرأ آية الاحزاب هكذا « النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وهو اب لهم » ويقرأ آية المجادلة هكذا « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم اذا أخذوا بالتناجي » .

٢٠ - إن هناك روايات عديدة تفيد أن بعض الصحابة كانوا يقرأون كلمات بدل كلمات مثل « ايمانهما » بدلا من « أيديهما » في آية السرقة في سورة المائدة و « لا تجزي نسمة عن نسمة » بدلا من « لا تجزى نفس عن

تفس » في آية سورة البقرة و « صفراء لذة للشاربين » بدلا من « بيضاء لذة للشاربين » في آية سورة الصافات و « إدراس وإدراسين » بدلا من الياس والياسين » في آية سورة الصافات و « جاءت سكرة الحق بالموت بدلا من « جاءت سكرة الموت بالحق » في آية سورة ق و « صراط من انعمت عليهم » بدلا من صراط الذين انعمت عليهم » في سورة الفاتحة و « الحي القيام » بدلا من « الحي القيوم » في آية سورة آل عمران و « للذين يقسمون » بدلا من « للذين يؤلون » في سورة البقرة و «مثقال نملة » بدلا من « مثقال ذرة » في سورة النساء و « اركعي واسجدي في الساجدين » بدلا من « واسجدي واركعي مع الراكعين » في سورة آل عمران و « تزودوا وخير الزاد التقوى » بدلا من و « تزودوا فان خير الزاد التقوى » في سورة البقرة و « أتموا الحج والعمرة الى البيت » بدلا من «وأتموا الحج والعمرة لله» في سورة البقرة و « شاورهم في بعض الامر » بدلا من « وشاورهم في الامر » في سورة آل عمران الخ .

٢١ - ويصح ان تورد احاديث نسخ المصاحف في عهد عثمان في هذا الباب . لان فيها ما يفيد ان المسلمين كانوا يختلفون في قراءة القرآن حتى افزع اختلافهم عثمان وغيره من كبار الصحابة وبالتالي يفيد ان القرآن لم يكن في كتابته ومصاحفه وصحفه المتداولة وفي قراءته محرراً بحيث يؤمن معه ذلك الخلاف :

١ - فقد اورد البخاري حديثـــا عن انس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي اهل الشام في فتح ارمينية وأذربيجان فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان أدرك الامة قبل ان يختلفوا

اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل الى حفصة ان ارسلي الينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك . فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة وبعث إلى كل افق بمصحف مما نسخوا وامر بما سواه من القرآن في كل صحيفة او مصحف أن يحرق . قال ابن هشام واخبرني خارجة بن زيد سمع زيداً بن ثابت قال ففقدت آية من الاحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصاري « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... » فالحقناها في سورتها في المصحف .

٢ - وقد روي حديث آخر عن انس بن مالك ايضا جاء فيه ان الناس اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون فبلغ ذلك عثمان فقال عندي تكذبون وتلحنون به فمن نأى عني كان اشد تكذيباً ولحناً . يا اصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماما فاجتمعوا فكتبوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارأوا في آية قالوا هذه اقرأها رسول الله فلانا فيرسل اليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له كيف أقرأ لرسول الله آية كذا فيقول كذا وقد تركوا لها مكانا .

٣ - وقد اخرج ابو داود حديثا وصف بأنه بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال . قال لي علي لا تقولو في عثمان الا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأ منا . قال ما تقولون في هذه القراءة فقد

بلغني ان بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً . قلنا ما ترى . قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف . قلنا فنعم ما رأيت .

٤ – واخرج أبو داود حديثا جاء فيه لما اراد عثمان ان يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلا من قريش والانصار فبعثوا الى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها .

- ٣ -

ثالثا : إلى جانب تلك الاحاديث والاقوال والروايات يوجد احاديث وروايات وأقوال يستفاد منها أن القرآن كان يدون وترتب آياته وسوره في حياة النبي عليه السلام وبأمره ، وأن ترتيب المصحف العثماني متصل بعهد النبي وتوقيفه :

١ – فقد اخرج الحاكم عن زيد بن ثابت حديثا وصف بأنه بسند صحيح على شرط الشيخين جاء فيه « كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع » . وقد علق البيهقي على ذلك كما جاء في الاتقان بقوله يشبه ان يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها باشارة النبي . ويصح ان يستفاد من الحديث انه كان يكتب ماينزل به الوحي في رقاع منفردة ثم تنقل هذه الرقاع الى صحف معدة كالسجل فتلحق فصولها ببعضها وفق ما كان يشير به النبي .

٢ – وقد اخرج الامام احمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم حديثا عن ابن عباس جاء فيه قلت لعثمان ما حملكم ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني والى براءة وهي من

المثين (١) فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال فقال عثمان كان رسول الله تنزل عليه السور ذات العدد (٢) فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا (٣) ، وكانت الانفال من اوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قضيتها شبيهة بقضيتها فظننت انها منها وقبض رسول الله ولم يبين لنا انها منها فمن اجل ذلك قرنت بينهما ولم اكتب بينهما سطر بسم الله ووضعتها في السبع الطوال . وهذا يفيد ان الانفال في زمن النبي كانت تدون قبل براءة مباشرة ولم يكن بينهما فاصل او بسملة فتركتا على ذلك وهو الترتيب المتداول .

٣ – واخرج الامام مسلم حديثا عن عمر قال ما سألت النبي عن شيء اكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن في صدري بأصبعه وقال تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء . وهذا يفيد أن سورة النســـاء كانت مرتبة على ما هو عليه في المصحف المتداول في حياة النبي . ولو لم يكن ترتيبها بتوقيف النبي وإشـــارته لوضعت الآية المذكورة في مكان اكثر مناسبة من السورة .

٤ – واخرج الامام البخاري حديثا عن عبد الله بن الزبير جاء فيه قلت لعثمان « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا » قد نسختهـــا

---

(١) المثاني هي السور المتوسطة التي تكون آياتها اقل من مئة والمئين هي السور التي كانت آياتها مئة آية او اكثر قليلا .

(٢) السور الطويلة او المتوسطة التي كانت تنزل فصولا متفرقة .

(٣) هذا تعبير كان يستعمل في عهد النبي للدلالة على شخصية السورة او اسمها . .

الآية الاخرى فلم تكتبها او تدعها . قال يا ابن اخي لا اغير شيئـــا من مكانه . الآية الناســخة في سورة البقرة وهي الآية (٢٣٤) متقدمة في الترتيب على الآية المنسوخة في نفس السورة وهي (٢٤٠) . وجواب عثمان يفيد أن الترتيب انما كان باشارة النبي فلم ير تغيير شيء من مكانه .

٥ - وأخرج الامام أحمد حديثا باسناد وصف أنه حسن عن عثمان ابن ابي العاص قال كنت جالســـا عند رسول الله إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال اتاني جبريل فأمرني ان اضع هذه الاية في هذا الموضع من هذه السورة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى إلى آخرها وهذا يفيد أن النبي كان يأمر بوحي الله بترتيب آيات السور وان الترتيب المتداول هو مستند الى ذلك .

٦ - وروى البخاري حديثا عن زيد بن ثابت ان رسول الله املى عليه « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجـــاهدون في سبيل الله » . فجاء ابن ام كلثوم وهو يمليها عليه فقال يا رسول الله والله لو استطيع الجهاد لجاهدت وكان اعمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذه فثقلت عليه حتى خاف ان ترض فخذه ثم سري عنه فأملى عليه « غير اولي الضرر » وهذا يفيد ان النبي كان يستدعي احد كتاب الوحي حين نزول القرآن عليه فيملي عليه ما ينزل عليه فوراً .

٧ - وروى البخاري أيضا حديثا قريبا من هذا عن البراء لما نزلت آية « لا يستوي القاعدون » قال النبي ادعوا زيداً فجـاء ومعه الدواة واللوح او الكتف فقـــال اكتب « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في ســـبيل الله » وخلف النبي ابن ام كلثوم الاعمى فقال يا رسول الله انا ضرير فنزلت « غير أولي الضرر » .

٨ – وحديث زيد بن ثابت الذي رواه عن جمع القرآن في عهد أبي بكر والذي نقلناه في المجموعة الاولى يفيد ان آيات السور كانت معروفة الترتيب في حياة النبي حيث ذكر افتقاد آخر آيتين في سورة براءة ووضعها في مكانها حين وجودهما . وترتيبهما هو وفاق ترتيب المصحف المتداول . وحديث البخاري عن نسخ المصاحف في عهد عثمان والذي نقلناه في المجموعة الثانية يفيد نفس الشيء حيث يذكر افتقاد آية الاحزاب ووضعها في مكانها المعروف في حياة النبي والذي هو وفاق المصحف المتداول ايضا .

٩ – وروى البخاري عن ابن عباس ان اخر آية نزلت اية الربا وروى النسائي عن ابن عباس ايضا ان اخر اية نزلت « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » واخرج ابن شهاب عن سعيد بن المسيب ان احدث القران عهدا بالعرش اية الدين . وقد لا يكون تناقض بين الروايات لان هذه الآيات في سلسلة واحدة . وجميعها موضوعة في سورة البقرة بأمر النبي وترتيبه وجاء في مجمع التبيان للطوسي ان ابي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن بن قتادة رووا ان الايتين الاخريين من سورة التوبة هما اخر ما نزل من القران . وهذا يفيد ان ايات السور كانت معروفة الترتيب في حياة النبي وبأمره كذلك .

١٠ – وروى علي بن ابراهيم عن ابي بكر الحضرمي عن ابى عبد الله جعفر بن محمد « الامام جعفر الصادق » ان رسول الله قال لعلي يا علي إن القران خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس فاجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة ، فانطلق علي فجمعه في ثوب اصفر ثم ختم عليه . وهذا يفيد ان القران كان يدون على وسائل الكتابة

المعروفة وكان مدونا كذلك في حياة النبي وكان النبي يعنى بحفظه في بيته.

١١ – وقد روى علماء الحديث حديثا ورد في اكثر من كتاب من كتب الحديث المشهورة جاء فيه «لا تكتبوا مني غير القرآن» حيث يفيد أن الصحابة كانوا يدونون في حياة النبي ما يسمعونه من النبي من القرآن.

١٢ – وقد أخرج أبو داود حديثاً جاء فيه ان عمر أعلن الناس من كان تلقي عن رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والالواح والعسب. وهذا يفيد ما أفاده الحديث السابق.

١٣ – وروى واثـلة عن النبي قال أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المئين ومكان الانجيل المثاني وفضلت بالمفصل (١) وهذا يفيد ان ترتيب سور القرآن حسب المصحف المتداول الطوال أولاً فالمئون ثانيا فالمثاني ثالثا فالمفصل رابعا من ترتيب النبي وعهده.

١٤ – وروى البخاري حديثا عن ابن مسعود ان النبي قال ان بني اسرائيل (٢) والكهف ومريم وطه والانبياء هن من العتاق الاول وهن من تلادي. وهذه السور متسلسلة الترتيب في المصحف المتداول وفـاق الترتيب الوارد في الحديث.

---

(١) المفصل هي السور القصيرة وسميت كذلك لكثرتها وكثرة الفصل بينها. وهناك احاديث فيها بعض الخلاف في تعيين سور كل مجموعة من مجموعات السور الاربع. فهناك حديث عن ابن عباس ان السبع الطوال هي البقرة وال عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف. قال الراوي وذكر السابعة فنسيتها. وعن مجاهد وسعيد انها يوسف وعن الحاكم انها الكهف. والمفصل يبدأ في رواية البخاري بالجاثية. وهنـاك قول انه يبدأ بالصافات وقول انه يبدأ بسورة ق وقول انه يبدأ بحجرات وقول انه يبدأ بتبارك وقول انه يبدأ بالفتح وقول انه يبدأ بالضحى... (٢) اسم اخر لسورة الاسراء.

١٥ – وأخرج الامام أحمد وأبو داود حديثاً عن أبي أوس وكان قدم على النبي في وفد جاء فيه : قال لنا رسول الله قراء عليّ حزب من القرآن فأردت ان لا أخرج حتى أقضيه . فسألنا أصحاب رسول الله كيف تحزبون القرآن ؟ فالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة . وحزب المفصل من سورة ق حتى نختتم . وعـــدد السور من البقرة إلى الحجرات تسع وأربعون ومجموع عدد السور المحزبة هو تسعة وأربعون . والحديث يفيد ان سور القرآن كانت مرتبة وفاق ترتيب سور المصحف المتداول منـذ حيـــاة النبي .

١٦ – وروى حذيفة عن النبي حديثا جاء فيه انه قرأ سور البقرة وآل عمران والنساء واحدة بعد أخرى . وهذا يفيد ان السور الثلاث كانت مرتبة في حياة النبي وفاق ترتيبها في المصحف المتداول .

١٧ وروى البخاري حديثـا عن فاطمة ان النبي أمرّ اليها بأن جبريل يعارضه بالقرآن كل سنة وانه عارضه في العام الذي توفي فيه مرتين وقـال لها ولا أراه إلا حضر أجلي . وروى البخاري حديثا آخر عن أبي هريرة جاء فيه : كان القرآن يعرض على النبي كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه . وقال البغوي في شرح السنة(١) ان زيداً ابن ثابت شهد العرضة الاخيرة التي بين فيها مـا نسخ وما بقي وكتبها لرسول الله وقرأها عليه وكان يقرىء الناس بها حتى مات . ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه وولاه عثمان كتب المصاحف . وهذا يفيد أنّ

---

(١) رسالة الكلمات الحسان الشيخ بخيت

النبي كان يستعرض القرآن جميعه في رمضان وانه استعرضه مرتين في رمضان الاخير وان المصحف الذي كتبه زيد في عهد أبي بكر إنما كان وفاقا لذلك نصا وترتيبا .

١٨ - وروى النسائي عن عبد الله بن عمر حديثا جاء فيه : جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبي فقال اقرأه في شهر . وقد روي عن بن عمر انه قال : قال لي رسول الله اقرأ القرآن في شهر قلت إني أجد قوة . قال اقرأه في عشر . قلت إني أجد قوة . قال اقرأه في سبع ولا تزد . وقد روي عن ابن مسعود حديث جاء فيه « لا تقرأوا القرآن في اقل من ثلاث » وروى عن سعيد بن المنذر حديث جاء فيه قلت يا رسول الله أأقرأ القرآن في ثلاث قال نعم إن استطعت . وروي عن قيس بن صعصعة حديث جاء فيه : قلت يا رسول الله في كم اقرأ القرآن قال في خمسة عشر قلت إني أجدني أقوى من ذلك قال اقرأه في جمعة . وهناك روايات تذكر اسماء صحابة عديدين كانوا يحفظون القرآن جميعة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن مسعود ومعاذ وسالم وأُبَيْ وأبي الدرداء وزيد بن ثابت وطلحة وسعد وحذيفه وأبي هريرة وعائشة وحفصة وام سلمة وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وسعيد بن المنذر وقيس بن صعصعة . ولا شك في ان هذه الاسماء ليست كل الاسماء وانما هي التي نقلتها الروايات . وقد جاء في البخاري في حديث شهداء بئر معونة . ان بعض العرب جاؤوا يطلبون مدداً من النبي فأرسل معهم سبعين من الانصار ممن كانوا يسمون القراء في زمنهم . وفي حديث جمع القرآن في عهد أبي بكر إشارة الى القتل الذي استحر بالقراء والخشية من موتهم في المواطن الاخرى . فهذه الاحاديث

والروايات تفيد أولا ان القرآن كان محفوظاً في الصدور ومدونا في المصحف في ترتيب ثابت آيات في سور وسور في تسلسل لان حفظ القرآن لا يمكن ان يتيسر إلا بـــذلك ، وتفيد ثانيا انه كان من الصحابة من يواظب على تلاوته تعبداً وتفقها ، وتفيد ثالثا ان طبقة القراء والحفاظ كانت كثيرة العدد في حياة النبي .

١٩ - واخرج الحاكم عن عبد الله بن قسطنطين انه قرأ ختمة عـلى عبد الله بن كثير وهذا إمام من أئمـه القراء وهو تابعي فلما بلغ الضحى قال كبّر حتى تختم واخبره انه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وان مجاهداً اخبره انه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك وان ابن عباس اخبره انه قرأ على أبيّ فأمره بذلك ، وان أبيا اخبر ابن عباس انه قرأ على النبي فامره بذلك . وقد روي عن الامام الشافعي انه قال اذا تركت التكبير فقد تركت سُنة من سنن نبيك . وهذا وذاك يفيد ان القرآن كان مرتب السور في حياة النبي وفاق ترتيب المصحف المتداول .

٢٠ - وروى ابو منصور الأرجاني في كتاب فضائل القرآن ان النبي كان يقول عنـد ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة . اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته أناء الليل والنهار واجعله حجة لي يا رب العالمين . وهذا يفيد مـا تفيده الاحاديث السابقة آنفاً .

٢١ - وفي مسند الامام أحمد حديث عن عبد الله بن مسعود جاء فيه انه سمع من فم رسول الله بضعاً وسبعين سورة . وهذا يفيد ان ما يقرب من ثلثي سور القرآن كان معروف الشخصية تام الترتيب في اياته منـذ حياة النبي عليه السلام .

٢٢ - وفي حديث بخاري ان ابن عباس قـــال انه جمع المحكم في عهد رسول الله فسأله الراوي عـــن المحكم فقال المفصل . وكان ابن عباس صبيا في حياة النبي كما هو معروف. وهذا يفيد ان السور كانت مرتبة وفاق ترتيبها المتداول الطوال فالمئون فالمثاني فالمفصل ، وان القران كان يحفظ على ما اعتيد حفظه الى اليوم الأقصر اولا . .

٢٣ - واخرج الحاكم حديثاً عن ابن عباس وصف بانه صحيح انه قال كان النبي اذا جاءه جبريل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم انها سورة وورد حديث اخر عن ابن عباس جاء فيه كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تـــنزل بسم الله الرحمن الرحيم . واخرج البيهقي عن ابن مسعود انه قال كنا لا نعلم فصلا بين سورتين حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم. وهذا يفيد ان شخصيات السور او بالاحرى ترتيب الآيات سوراً تامة كان معروفاً في حياة النبي .

٢٤ - وقد ذكر السيوطي اقوالا لبعض علماء القران تفيد انهم كانوا يعتقدون بصحة ما احتوته الاحاديث والروايات في هـــذه المجموعة من تقريرات بوجه الاجمال . فقد اثر عن الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن قوله ان كتابة القران ليست محدثة فان النبي كان يامر بكتابته . وقال ابو بكر الأنباري ان اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي فمن قدم سورة أو اخرها فقد افسد نظم القران. وقال الامام مالك برواية ابن وهب إنما ألف القران على ما كانوا يسمعونه من النبي . وقال البيهقي كان القران على عهد رسول الله مرتباً سوره واياته على هذا الترتيب وقال البغوي في شرح السنة ان الصحابة قد جمعوا بين الدفتين القران الذي انزله الله على رسوله من غير ان زادوا ونقصوا منه شيئاً خوف ذهاب

جمعه بذهاب حفاظه فكتبوه كما سمعوه من رسول الله من غير ان قدموا شيئا او اخروه او وضعوا ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله وكان رسول الله يلقن اصحابه ويعلمهم ما نزل عليه على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك . وقال ابن الحصّار ان ترتيب السور في وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي فكان رسول الله يقول ضعوا اية كذا في موضع كذا . وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله وبما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف

٢٥ - وقال ابو بكر الباقلاني (١) والذي نذهب اليه ان جميع القران الذي انزل الله وامر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان ، وان ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه ورتبه عليه رسوله من آي وسور لم يُقدّم من ذلك مؤخّر ولا أُخّر منه مقدّم وان الامة ضبطت عن النبي ترتيب اي كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة .

٢٦ - وقال العالم المذكور في كتابه الانتصار : لم يقصد عثمان قصد ابي بكر في جمع نفس القران بين لوحين وانما قصد جمعه على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي والغاء ما ليس كذلك واخذهم بمصحف واحد مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعده .

٢٧ - وقال ابن الجوزي وانما لم يجمع رسول الله لانه كان بعرض ان ينسخ منه او يزاد عليه فلو جمعه كان الذي عنده نقص ينكر على من

---

(١) الكلمات الحسان

عنده زيادة . فلما امن هذا الامر بموته جمعه ابو بكر . ولم يصنع عثمان في القران شيئا. وانما اخذ الصحف التي وضعت عند حفصة وامر زيداً بن ثابت وعبدالله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام وسعيد بن العاص وابي ابن كعب في اثني عشر رجلاً من قريش والانصار فكتب منها مصاحف وسيرها للامصار .

- ٤ -

تعليقات على الروايات والاقوال وترجيح تدوين وترتيب القرآن في عهد النبي وموجبات ذلك

ومن الحق ان نقول ان في المجموعات الثلاث التي أوردناها ما ليس موثقاً بالاسناد القوية ، وما يتحمل النظر والتوقف ، ومنها ما يتعارض بعض ما جاء في مجموعة منه مع بعض ما جاء في نفس المجموعة ، ومنها ما يصطبغ بصبغة الاهواء الحزبية الاولى أو فيه رائحتها ، ومنها مـــا يبدو عليه قرائن قصد التوفيق او التلفيق ؛ غير ان من الحق ان يقال ان المجموعة الثالثة اكثر توثقا في الاجمال من جهة واكثر اتساقا مع طبائع الامور والظروف من جهة اخرى .

فالقران اعظم مظاهر النبوة ومعجزتها الخالدة ، وكان مدار الاحتجاج والدعوة مع العرب والكتابيين الذين كانت لهم كتبهم المتداولة في ايديهم وقد تكرر في القران كثيراً الاشارة الى كتب الكتابيين من جهة وذكر الكتاب بمعنى القران كثيراً من جهة اخرى ؛ فلا يعقل في حال ن يهمل النبي عليه السلام تدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القراني ، والعناية بهذا التدوين عناية فائقة ، والحرص عـــلى حفظ المدونات حرصاً شديداً بل والمعقول ان يكون ذلك من اهمات مشاغل النبي المستمرة ايضاً

وهذا يجعلنا نعتقد ان ما روي من ان القرآن كان يدون على قطع عظيمة الحجم ثقيلة الوزن صعبة الحمل والحفظ والترتيب كأضلاع النخيل واكتاف العظام ورقاق الحجارة والخشب لا يمكن ان يكون هو الواقع على إطلاقه ، كما ان هذا القول يطرد في ما يمكن ان يستتبع ذلك من فقدان أو نقص وسائل الكتابة اللينة المعروفة في ذلك العصر في البلاد المجاورة كالقرطاس والورق والحرير والقماش والرقوق الناعمة المسواة. ولقد قيل فيما قيل ان نطاق القراءة والكتابة كان ضيقا جداً في مكة والمدينة مما يمكن ان يظن ان هذا متصل بالنقطة الاولى أو من أسبابها. وهذا ايضا لا يمكن التسليم بصحته على إطلاقه كذلك.

ونحن لا نرسل هذا النفي جزافا. فالثابت علميا وبصورة لا تقبل المراء ان الخط العربي الذي كان مستعملا في بيئة النبي وعصره يمتد وجوده الى عشرات السنين قبل بعثته كما انه متطور عن اشكال الخطوط اخرى كان يستعملها عرب الشام واليمن ، وكذلك فان من الثابت علمياً ان ذلك الخط كان منتشراً بمقياس غير ضيق في بلاد الشام واليمن والحجاز والعراق حتى كان يشمل بدو هذه البلاد ولو بمقياس ضيق. وما جاء في بعض الكتب العربية عن نشأة الخط العربي ووصوله الى الحجاز وضيق انتشاره فيه ضيقا شديداً هو تخليط لا يتحمل نقداً (١)

والبيئة الحجازية الى هذا وخاصة مكة والمدينة كانت بيئة تجارية متصلة بالبلاد المجاورة التي كانت تتمتع بحظ غير يسير من الحضارة والثقافة

---

(١) اقرأ مثلا العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٢. وننبه على ان المستشرق الطلياني كايتاني في كتابه تاريخ الاسلام فصلا قيما في نشأة الخط العربي وانتشاره مستنداً الى دراسات ومكتشفات وآثار حاسمة.

وكانت فيها جاليات كتابية نصرانية ويهودية نازحة من تلك البلاد وكانت تتداول الكتب الدينية وغير الدينية قراءة وكتابة . فلا يعقل ان يظل العرب اهل هذه البيئة غافلين عن اقتباس وسيلة من أشد الوسائل ضرورة الى الاشتغال التجارية ومن اعظم مظاهر الحضارة التي اقتبسوا منها من البلاد المجاورة الشيء الكثير (١) .

وهناك رواية مشهورة وهي ان اسرى قريش الفقراء في وقعة بدر الذين لم يستطيعوا ان يدفعوا فدية نقدية كلفوا بتعليم بعض اطفال المسلمين في المدينة القراءة والكتابة ، فاذا كان فقراء اهل مكة يقرأون ويكتبون فأولى ان يكون كذلك أغنياؤها وتجارها ونبهاؤها وأن تكون القراءة والكتابة مما هو مألوف ومنتشر بنطاق غير ضيق .

ويضاف الى هذا ما هو اقوى دلالة وهو محتويات القرآن . ففيه آيات كثيرة جداً احتوت تنويها بالعلم والقراءة والكتابة وحضت عليهما وحضت خاصة على تدوين المعاملات التجارية نقداً ودينا وصغيرة وكبيرة كما ان فيه آيات عديدة حكت اقوال المشركين المكيين تدل على اتساع نطاق القراءة والكتابة والمعرفة بوجه عام عندهم (٢)

وبيئة هذه صلاتها بالبيئات المجاورة المتمدنة التي تتيسر فيها وسائل الكتابه والقراءة المألوفة على تنوعها ، وفيها كثيرون من اهل هذه البيئات يقرأون ويكتبون ويتداولون الكتب ، وحركتها التجارية قوية واسعة ، وقداحتوى القرآن من أوصاف حياتها ومعايشهاوحضارتها ووسائلها ما فيه الدلالة الوافية على انها هي ايضا كانت على درجة غير

---

(١) و (٢) اقرأ فصل الحياة العقلية في كتابنا عصر النبي وبيئته قبل البعثة ففيه بحث مسهب موثق في هذا الامر

يسيرة من الحضارة ووسائلها ، والكتابة والقراءة فيها منتشرتان بقياس غير ضيق لا يعقل في حال ان لا يكون فيها وسائل مدنية الكتابة وان لا يوجد ما يدون عليه القرآن الا الواح العظام ورقائق الحجارة واضلاع النخيل وقطع الخشب . هذا بالاضافة الى أن القرآن قد احتوى كلمة القرطاس أكثر من مرة مما يصح ان يكون دليلا على أنه كان معروفاً ومألوفا كوسيلة للتدوين والكتابة بل ان هذه الكلمة مفردة وجمعاً قد جاءت في سورة الانعام في سياق الكلام عن كتب الله كما ترى:

١ - ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم.. الانعام ٧

٢ - قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . . الانعام ٩١

فهذا النص القرآني يلهم أن الكتابة على القرطاس وكون الكتب مؤلفة من قراطيس هو الشيء المألوف الذي لم يكن ليتصور غيره.

كذلك فان القرآن احتوى كلمة « الصحف » اكثر من مرة في معرض الاشارة الى القرآن والكتب السماوية كما ترى :

١ - في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة .. عبس ١٣ - ١٤

٢ - ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى . . الاعلى ١٨ - ١٩

٣ - بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة . القيامة ٥٢

ولم يذكر احد ان كلمة الصحيفة كانت تطلق على تلك الوسائل البدائية وانما كانت تطلق على ما كان معروفا من وسائل الكتابة التي تحمل بسهولة وتطوى بسهولة ويجمع بعضها الى بعض بسهولة ولعل في آية القيامة قرينة على ان الصحف كانت تنشر وتطوى ، وهو

ما لا يمكن ان يتصف به الوسائل الكتابة اللينة كالقماش وورق القماش وورق الحرير والرقوق الناعمة المسواة الخ. ولعل في آية سورة الانبياء هذه «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ١٠٤» قرينة او بالاحرى دليلا على ان طي الورق أو ما كان يقوم مقامه من وسائل الكتابة اللينة ليكون سجلا للكتابة والتدوين كان مألوفا شائعا. وهذا لن يكون الا حيث تكون الكتب والقراطيس والوسائل الكتابية اللينة الاخرى.

ومما يمكن ايراده لتقوية هذه الملهمات والقرائن هذه الآيات :-

١ - إن هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون. «الجاثية ٢٩

٢ - أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه.. الاسراء ٩٣

حيث تخاطب الاولى الناس - ومشركو مكة من اول من خوطبوا - بما لا يعقل إلا ان يكون من مألوفاتهم من الكتابة واستنساخ الكتب وحيث تحكي الثانية قول مشركي مكة بما يعبر عن مفهوم الكتاب المكتوب المقروء المألوف والمنتشر بينهم.

ولقد كثرت كافلنا الاشارات القرآنية الى كتب الكتابيين وكتابتها وتعليمها ودراستها، وجل الكتابيين الذين كانوا في الحجاز جاليات نازحة من البلاد المجاورة التي كانت وسائل الكتابة اللينة فيها معروفة ميسورة فلا يعقل ان تكون كتبهم هذه مكتوبة على تلك الوسائل البدائية الثقيلة الضخمة، ولا يعقل الا ان يكون النبي قد اهتم لتدوين القرآن معجزته الكبرى على نسق ما دونت عليه كتب الكتابيين. ولقد احتوت المجموعات الثلاث روايات عديدة تفيد ان الورق والقرطاس مما استعمل

في كتابة القرآن في عهد النبي وفي عهد أبي بكر بما هو متسق مع الظروف ولا يكاد يتحمل شكا في صحته بقطع النظر عن وثوق الروايات من الوجهة التعديلية والتجريحية · ونشير بنوع خاص الى ما كان في ايدي المسلمين من صحف ومصاحف ورقاع خاصة أمر عثمان باحراقها بعد ما فرغ من نسخ المصاحف الموحدة ليزول اهم سبب من اسباب الخلاف في القراءة بما ذكره حديث البخاري والاحراق خاصة لا يتوارد معه إلا الورق والقرطاس والرقوق بما يدل على ان التدوين على هذه الوسائل كان هو المألوف السائغ ·

على اننا لا نريد ان ننفي بالمرة ما ورد في الاحاديث العديدة عن كتابة القرآن على الالواح والاكتاف والرقائق والاديم فان من الممكن ان يكون لها اصل صحيح أيضا ، ولكن على غير الصورة أو المقصد الذي عبرت عنه الروايات او تركته غامضا .

فمن المحتمل أن يكون النبي اذ يستدعي أحد كتابه لاملاء ما يكون نزل عليه من وحي فوراً ان لا يكون متيسرا الا شيء من هذه الوسائل البدائية فيكتب الكاتب عليها ما يمليه النبي موقتاً ريثما ينقله الى مكانه من سجلات القران ، بما عبر عنه زيد بن ثابت في الحديث الذي نقلناه في المجموعة الثالثة في قوله كنا نؤلف القرآن من الرقاع في عهد رسول الله. ومن المحتمل كذلك ان اصحاب رسول الله من اهل المدن او البادية قد كانوا يكتبون بعض الفصول القرآنية التي يتلقونها عن النبي على قطعة من تلك القطع للتبرك والحفظ والنقل على اعتبار انها ابقى على الزمن واقل تعرضاً للفناء والتمزيق على نحو ما اعتاد المسلمون ان يفعلوه من قديم الاجيال في كتابة الالواح مع بعض التعديل . فلما وعي المسلمون

الى الاتيان بما عندهم من قرآن بقصد زيادة الاستيثاق والضبط والتحري والمعارضة أتوا فيما أتوا بـــه بهذه القطع فحفظت الروايات هـــذه الصورة ونقلتها .

هذا من جهة التدوين: وما نقلناه يصح إيراده بتمامه على ترتيب القرآن آيات في سور وسوراً في تسلسل أيضاً. فالنبي الذي لا شك في أن القرآن كان من أهم مشاغله لا يمكن أن يكون قد أهمل ترتيبه وترك مدوناته مشوشة فوضى لا يعرف لها أول من اخر سواء في التدوين او في القراءة والتعليم: ولا بد من ان يكون قد عني بترتيبه نفس العناية الفائقة التي كانت منه بتدوينه وحفظ مدوناته

ولقد قال بعض علماء القرآن كما جاء في كلام الخطابي الذي اوردناه في المجموعة الاولى ان استمرار الوحي في حياة النبي كان سبباً في عدم ترتيبه . والذي يتبادر لنا ان هذا لا يوجب عدم ترتيب القرآن آيات في سور وسوراً في تسلسل : فان من السائغ جداً أن يكون الترتيب النهائي قد تم في أخريات حياة النبي ، وبعد نزول سورة النصر التي أذنت بفتح الله ونصره ودخول الناس في دينه أفواجاً ، وبالتالي أذنت بانتهاء مهمة النبي . وقد احتوت أحاديث معارضة النبي للقرآن في رمضان الاخير مرتين وكتابته من قبل زيد ما يستأنس به على ذلك : كما أن من السائغ جدا ان يصح احتمال اضافة ما يمكن ان يكون نزل بعد هذا الترتيب من آيات الى مواضع مناسبة لها في السور .

وفي الاحاديث التي نقلناها في المجموعة الثالثة ما يستأنس به على وقوع شيء من هذا فعلا : فلما التحق النبي عليه السلام بالرفيق الاعلى صار ما

كان ثابتاً من القرآن هو القرآن التام ، وصار من واجب خليفة النبي الاول وكبار اصحابه الاهتمام اضبطه وجمعه كاملا ، وتحرير نسخة تكون إماما كاملا محفوظاً عند امام المسلمين وخليفة نبيهم وتكون مرجعا عند الخلاف وضمانا من الطوارئ والضياع : وانتقال النسخة التي كتبت في عهد أبي بكر الى عهدة عمر بن الخطاب الخليفة الثاني وحفظها عند حفصة حينما اغتيل والدها عمر من القرائن القوية على ذلك .

ولسنا نرى أن ما نقرره يمكن ان ينقض ايضا بما جاء في حديث زيد ابن ثابت من انه تتبع القرآن فجمعه من العسب والصحاف وصدور الرجال ولا ينقضه افتقاد آخر آيتي سورة التوبة وعدم وجودهما الا عند أبي حذيفة ولا بما جاء في حديث مصاحف عثمان من افتقاد زيد آية الاحزاب وعدم وجودها الا عند حذيفة أو بمـــا جاء في حديث آخر أن الناس دعوا الى الاتيان بما عندهم ولم يكن يقبل من احد شيء الا بشهادتين ، فهذا كله لا يقتضي أن لا يكون للقرآن مدونات مرتبة محفوظة في بيت النبي مما ألفي من الرقاع ومدونات مرتبة محفوظة كذلك عند كبار اصحاب رسول الله وقرائهم ، بل يصح - ونحن نجزم بذلك - ان يكون هذا كله من قبيل الاحتياط والحرص الشديد على الضبط والتحرير . ولقد كان من المحتمل ان يختلط الامر على بعض الصحابة في بعض الآيات ، وان يكون بعضهم ما يزال يحفظ آيات قد نسخت أو يحتفظ برقاعها مما هو طبيعي كما أن من المحتمل ان يكون مما استهدف معارضة مدونات القرآن المختلفة عند مختلف القراء مع بعضها لاتقـــان الضبط والتحرير ، فكان هذا التشدد والحرص العظيمان المتناسبـــان مع موضوع تفوق خطورته أي

موضوع آخر ، واللذان يصحان ان يكونا مثلا رائعا للتدقيق والفحص والتحري العلمي.

ومن النقاط المهمة الجديرة بالتنبيه في هذا المقام أنه لم يرد أي حديث منسوب الى النبي عليه السلام او اصحابه المعروفين يمكن ان يفيد أن القرآن لم يكن مرتب الآيات والسور ومعروف الترتيب في حياة النبي ، وكل ما جاء في هذا الباب تعليقات وتخمينات متأخرة . وحديثا البخاري في كتابة المصحف في عهد أبي بكر ونسخه في عهد عثمان وهما المعول الاقوى والاشهر قد خلوا من اي اشارة ذالك، بل فيهما على ما اوردناه في المجموعة الثالثة ما يؤيد كون آيات القرآن معروفة الترتيب منذ حياة النبي ، وننبه بنوع خاص على أن حديث نسخ المصحف في عهد عثمان صريح جداً بأن ما كان ليس جمعا او تدوينا جديدا كما توهمه الحاكم على ما أوردناه في المجموعة الاولى وانما هو نسخ طبق الاصل عن مصحف أبي بكر ، وبأن القصد منه ضبط كتابة ألفاظ القرآن من حيث الاملاء وتوحيدها حتى لا يكون محل للاختلاف في قراءتها ، حيث كانت المصاحف والصحف التي في ايدي الناس مكتوبة بخطوط متنوعة من المعقول جداً ان تكون متخالفة الاملاء والهجاء، وهو ما أدى الى الخلاف والفزع منه فعلا .

وما دام القرآن قد جمع وضبط وحرر في عهد أبي بكر على ملأ من الصحابة وخاصة كبارهم ، وفي وقت يكاد يكون فوريا بعد وفاة النبي ، وعلى هذا الوجه من الحرص والتحري الشديدين دون ان يكون اي إشارة إلى قصد ترتيب الآيات او السور فانه يصح ان يقال بجزم إن دفتي المصحف الذي حرر قد احتوتا كل ما ثبت عند كبار الصحابة وقرائهم

وحفاظهم بل وكل من شهد العمل منهم أنه القرآن الذي مات النبي عنه وهـــو ثابت لم ينسخ بترتيبه المعروف في حياته . وما دام النسخ الذي جرى في عهد عثمان انما كان عن هذا المصحف وكان هذا ايضا على ملأ من الصحابة والقراء والحفاظ وبمعرفة علماء القرآن منهم ، ولم يكن الباعث عليه إلا ايجاد امام يضبط فيه الاملاء والقراءة ويجمع به الناس على رسم واحد ، وما دامت المصاحف المتداولة في أيدي المسلمين هي طبق هذا المصحف الامام كما هو ثابت بالتواتر الفعلي الذي لم ينقطع والذي هو يقيني – باستثناء بعض التنظيمات الشكلية على ما سوف نذكره بعد – فهي بطبيعة الحـــال طبق مصحف ابي بكر من حيث الالفاظ والايات والسور وترتيبها ، وبالتالي طبق ما مات النبي عنه من قرآن ثابت بترتيبه وتسلسله .

واذا كان من المحتمل أن لا تكون احـــدى نسخ مصاحف عثمان الاصلية موجودة اليوم – مع ما يقال عن وجود بعضها قولا غير مؤيد بشاهد ووصف عياني موثوقين – فان هذا لا ينقض ما نقوله من التواتر الفعلي . ولقد ذكر علماء قديمون أنهم شاهدوابعض هذه النسخ ، وقرروا أن المصاحف المتداولة هي صورة تامة عنها رسما وترتيبا . ومن أقدم من ذكر ذلك أبو القاسم عبيد الله بن سلام من علماء القرن الهجري الثاني الموثوقين ومحدثيهم . وتقرير هذا العالم يهدم كل قول حول التشكيك في مصحف عثمان وكون المصحف المتداول هو صورة تامة صحيحة عنه ، وحول رواية أن المصحف المتداول انما هو مصحف الحجـــاج وجمعه وترتيبه إذا كان يراد بذلك جمعا وترتيبا جديدين ، وان الحجاج قد جمع المصاحف المتداولة ومصاحف عثمان وأبادها . ولعل الرواية محرفة عن

حادثة عناية الحجاج باعجام القرآن أو نقطه بما صار نساخ المصاحف بعدها يأخذون به . فقد انتشر المسلمون في عهد الحجاج اكثر من ذي قبل في انحاء الارض ، وانتشرت نسخ القرآن العثمانية كذلك ، فلم يكن في إمكان الحجاج جمع المصاحف المتداولة واباداتها البتة ، ولم يقل أحد انه رأى مصحفا للحجاج فيه تغاير ما مع المصحف العثماني في نصه وترتيبه ، ولو كان وقع شيء من هذا لاهتم له اعداء الامويين والحجاج الذين بذلوا كل جهد في تشويه سيرتهم وتسويء سمعتهم بالحق وبالباطل وتعقب كل عمل أو بادرة منهم ، ولرأيناه في رأس المطاعن التي يطعنونهم بها . وقد قال أحد أعلام علماء الشيعة ومشهوريهم وكبار مفسريهم الامام الشيخ محمد بن الحسن الطوسي صاحب تفسير التبيان ومن رجال القرنين الرابع والخامس الهجريين في مقدمة تفسيره بصدد الكلام في زيادة القرآن المتداول ونقصه «وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به ايضا لان الزيادة فيه مجمع على بطلانه والنقصان منه فالظاهر ايضا من مذهب المسلمين خلافه وهو الاليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى رحمة الله عليه ، والظاهر في الروايات .

والروايات التي رويت من جهة الخاصة والعامة بنقصان ايات منه او نقلها من موضع الى موضع فطريقها الاحاد التي لا توجب علما ولا عملا . والاولى الاعراض عنها وترك التشاغل بها .

ولو صحت لما كان ذلك طعنا على ما هو موجود بين الدفتين اذ كان ذلك معلوما صحته لا يعترضه أحد من الامة ولا يدفعه .

ومع كل هذا فمما روي ان الحجاج إنما صحح اثنتي عشرة كلمة في

مصحف عثمان هي هذه : « لم يتسن » حيث جعلها « لم يتسنه » (١) و « شريعة » حيث جعلها « شرعة » (٢) و « ينشركم » حيث جعلها « يسيركم » (٣) « وآتيكم » حيث جعلها « أنبئكم » (٤) و « معايشهم حيث جعلها « معيشتهم » (٥) و « غير ياسن » حيث جعلها « غير آسن (٦) و « اتقوا » حيث جعلها « وانفقوا » (٧) و « سيقولون لله » حيث جعلها « سيقولون الله » (٨) و « بظنين » حيث جعلها « بضنين » (٩) ونقل كلمتي « المرجومين » و « المخرجين » في ايتي الشعراء ١١٦ و ١٦٧ كلا منهما مكان الاخرى فصارت المرجومين في قصة نوح والمخرجين في قصة لوط وانه لم يصنع ما صنعه الا بعد اجتهاد وبحث مع القراء والفقهاء المعاصرين له وبعد اجماعهم على أن جميع ذلك من تحريف الكتاب والناسخين الذين لم يريدوا تغييرا أو تبديلا وانما حدث بعض ما حدث لجهلهم باصول الكتابة وقواعد الاملاء والبعض الاخر لخطأ الكاتب في سماع ما يملى عليه او التباسه في ما يتلى عليه (١٠) ·

هذا في حين ان هناك رواية (١١) تفيد ان بعض ما صححه الحجاج انما صححه عثمان نفسه مثل لم يتسن حيث جعلها لم يتسنه .

وبكلمة اخرى إن الحجاج لم يكتب مصحفا جديدا ولم يضع ترتيبا جديداً ، وان تسمية « مصحف الحجاج » ليست في محلها حتى لو صحت

---

(١) البقرة ٢٥٩ (٢) المائدة ٤٨ (٣) يونس ٢٢ (٤) يوسف ٤٥
(٥) الزخرف ٣٢ (٦) محمد ١٥ (٧) الحديد ٧ (٨) المؤمنون ٨٧ و ٨٩ (٩) التكوير ٢٤ (١٠) الفرقان لابن الخطيب ٥٠ — ٥٢
(١) الفرقان ايضا ٤٠

رواية تصحيحه لبعض كلمات وحروف رأى فيها مع القراء والعلماء تحريفا من النساخ : هذا بقطع النظر عن ضعف رواية مصحف الحجاج وعدم تناقلها وعدم تعليق الشيعيين عليها تعليقا جالبا للنظر على طريقتهم في التعليقات وخاصة اذا ما كان الامر متصلا بالاموين ورجالهم وفيه مجال لقول أو غمز أو تعليق

- ٦ -

وعلى هذا كله فكل ما يتعارض مع النتائج التي قررناها من الروايات هو موضع نظر وتوقف او محل تخريج . وفي الحق إننا إذا نظرنا في الروايات المناقضة لهذه النتائج نجدها كلها أو جلها غير وارد في كتب الحديث الصحيحة . وكثير منها لم يذكر له اسناد متسلسلة معدلة، وفيها من التناقض والتغاير ما يحمل على الشك في صحة روايتها أو متونها .

فحديث زيد عن تأليف القرآن من الرقاع أقوى سنداً واكثر اتساقا مع المنطق من حديثه الذي جاء فيه أن النبي قبض ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، حتى اذا صح فيجب حمله على جمع القرآن في مصحف واحد كما علق على ذلك الخطابي على ما ذكرناه سابقا . وهذا المعنى هو ما يجب تخريج ما جاء في حديث جمع القرآن في عهد ابي بكر بـــه من المراجعة بين ابي بكر وعمر ثم بين ابي بكر وزيد .

وابي بن كعب وعبد الله بن مسعود من كبار الصحابة وعلماء القرآن الاعلام ، فلا يعقل أن يكون جمع القرآن وتحريره وضبطه في عهد ابي بكر ثم نسخه في عهد عثمان قد تم دون اشتراكهم أو علمهم ، ولا يعقل

آن يرمى باقوالهم عرض الحائط في زيادة أو نقص في الايات والكلمات والسور لو كان لهم في ذلك رأي وقول حقا ، ولا يعقل أن يكونا قد انفردا دون سائر الصحابة في العلم بزيادة أو نقص في القـرآن او ان تكون شهادتهما قـد ردت أو أن يكونا قد عجزا عـن إثبات قولهم . وإذا سلمنا بهذا جدلا مع ذلك فالمعقول ان ما يكونان قـد ذكراه لم يثبت عند ملأ الصحابة فلم يؤخذ به . وما دام الامر قد تم على ما ثبت عند ملأ الصحابة واجمعوا عليه فلا يعقل ان يكونا قد اصرا عـلى مخالفة اجماع الصحابة وكبارهم وخلفاءرسول الله فاحتفظابمصحفيهما وزوائدهما ونواقصهما وتغايرهما للترتيب الثابت وأن لا يكونا قـد أطاعا خليفة رسول الله فأحرقا ما عندهما كما احرق الناس ما عندهم . وهذا ما يجعلنا نشك في بقاء مصحفين لهما مخالفين لمصحف عثمان رسما وترتيبا وعدد سور وكلمات حتى وصل علم ذلك أو عيانه الى وقت متأخر . ونرجح انالم نقل نعتقد أن كل هذا مخترع فيما بعد بقصد التشويش والتشكيك مـن أعداء الاسلام وان في بعضه أثراً للحزبية السياسية . وقد قال بعض علماء أعلام أقوالا وجيهة في هذا الباب : فقال النووى ان المسلمين أجمعوا على ان المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئاً كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح . وقال الرازي الاغلب ان نقل هذا عن ابن مسعود باطل لان النقل المتواتر حاصل في عصر الصحابة أنها من القرآن فانكار ذلك يوجب الكفر . وان قلنا ليس التواتر حاصلا في ذلك الزمن .فلزم ان القرآن ليس بمتواتر في الاصل وهذا خلاف الاجماع وقال ابن حزم هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ، وانما صح عـنه

قراءة عاصم عن ذر عنه وفيها المعوذتان والفاتحة .

والسورتان المسماتان بالحفد والخلع هما دعاءا قنوت ورواية عمر لهما صريحة بانه انما قنت بهما بعد قيامه من الركوع . فمن المحتمل حتى في حالة صحة القول بها من أبي - وهو ما نشك فيه - أن يكون أبي قد وهم ثم رجع عن ذلك حينما ثبت عند الملا انهما ليستا قرآنا فظل أثر القول قائما متداولا

وعمر القوي الشديد في إيمانه ومركزه بين الصحابة والذي دعا الى ضبط القرآن وتحريره وحفظه أجل من أن ترد له شهادة بشأن آية الرجم وأقوى من ان يسكت على عدم إثبات أية يعتقد أن النبي مات وهي قرآن لم تنسخ . ولذلك فان رواية رد آية الرجم منه لانه أتى بها وحده مما يتحمل كل الشك ولا سيما ان هناك رواية تقول إنه قبل من أبي خزيمة آيتا سورة التوبة الاخيرتين بشهادته وحده . ومثل هذا غرابة وموضع شك شديد رواية أنه ظل يعتقد أنها قرآن بعد أن صارت الخلافة اليه ، يضاف الى هذا ان تعدد روايات آية الرجم وتباين صيغتها مما يثير الشك فيها ، وانه ليس من المعقول أن ينفرد عمر أو صحابي أو صحابيان في علم قرآنية هذه الآية التي تحتوي تشريعا خطيراً دون مـلأ الناس أو أن يتواطأ هذا الملأ على عدم اثباتها . وكل ما يمكن فرضه أنها كانت آيـة فنسخت في حياة النبي .

ومثل هذا القول يصح في ما ورد عن عائشة سواء في صدد كلمة « صلاة العصر » او في صدد بآيات سورة الاحزاب . فانها أجل من ان ترفض شهادتها او تسكت عن عدم إثبات اية أو كلمة او بآيات تعتقد أنها قرآن باق بعد النبي . واذا كان ورود حديثها عن صلاة العصر في

الموطأ مما يقويه فينبغي أن يلاحظ ان في الموطأ حديثا مثله حرفيا عن حفصة . وان هذا التشابه مما يبعث على الحيرة والتوقف . وهذا بالاضافة الى احتمال ان تكون الجملة تفسيرية أو أن تكون نسخت ولم يثبت بقاؤها عند ملأ الصحابة . ومن غير المعقول ان تخالف عائشة الاجماع فتبقي او تكتب في مصحفها ما لم يثبت في المصحف الامام .

وهذا القول يصح بتمامه كذلك بالنسبة للروايات المروية عن الكلمات الزائدة في بعض الآيات او الكلمات المبدلة المعزوة الى بعض الصحابة بقطع النظر عن احتمال الغلط والدس وقصد التشويه والتشويش وعن عدم استناد الروايات الى اسناد موثقة .

ورواية مصحف علي ومخالفته لترتيب المصحف المتداول موضع شك كبير ايضا . فانه لم يرد أي رواية صحيحة تفيد أن احدا اطلع على هذا المصحف أو رآه متداولا . وقد روى عن ابن سيرين وهو تابعي انه تحرى هذا المصحف في كل طرف في المدينة فلم يقع عليه ، ولو كان صحيحا لعض عليه الشيعة بالنواجذ كما عضوا على أوهى ما ورد في صدد مخالفة أبي بكر وعمر وعثمان ، ولم يرو عنهم شيء من هذا . وفي المجموعتين الاولى والثانية روايات عن ثناء علي على أبي بكر وعثمان على ما قاما به من عمل عظيم في صدد جمع القرآن وتحريره ونسخ مصاحفه .

فليس والحالة هذه أي مسوغ للشك في كون المصحف المتداول قد احتوى جميع القرآن الذي مات النبي عنه وهو قرآن ثابت نصاً وترتيباً بسبب أي رواية من الروايات المماثلة مما قد لا نكون اطلعنا عليها ، ونعتقد أن أي رواية من مثل ذلك لن تكون إلا مخترعة أو مدسوسة بقصد سيء أو ناتجة عن لبس وخطأ على أقل تقدير . فإن مما لا يصح أن يشك

فيه أن أصحاب رسول الله قد حرصوا كل الحرص واهتموا أشد الاهتمام القيام على أمر تحريره وضبطه على أحسن وجه وأقومه ، وانهم تضامنوا في ذلك كل التضامن حتى كان مصحف أبي بكر الامام المتطابق لما مات النبي عنه نصاً وترتيباً ، وانهم كانوا مسوقين في حرصهم واهتمامهم بسائق ديني ملك عليهم مشاعرهم رهبة وهيبة وتقديساً وتعظيما يبدو واضحاً لكل من دقق في ما ورد عن أصحاب رسول الله وأولي الشأن فيهم من ثناء وتنويه في القرآن ومن ثناء وتنويه من النبي ومن وصف شدة فنائهم واستغراقهم في النبي، وعمق إيمانهم بنبوته وبصلة القرآن . بالوحي القرآني فالعمل لم يكن عملا شخصيا أو سياسيا بل عمل متصل بأقوى عمد الدين وأعظم مظاهر النبوة وأكبر تراث خلفه النبي فيهم ، فمن المعقول الحق أن يكون حرصهم على استقصائه وتحريره وضبطه أشد حرص وأقومه وأتمه.

ونتنبه على أننا استعملنا تعبير « جميع ما مات النبي عنه وهو قرآن » ولم نستعمل تعبير « جميع القرآن الذي نزل على النبي » قصداً لان في القرآن نصوصا صريحة مكية ومدنية مثل :

١ – ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها «البقرة ١٠٦»

٢ – وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل « النحل ١٠١ »

تفيد أنه وقع بعض التبديل والنسخ في بعض آيات القرآن في عهدي النبي المكي والمدني بوحي الله مما هو مؤيد بأحاديث عديدة مثل حديث مروي عن أبي موسى الاشعري جاء فيه «نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت» ومثل حديث اخرجه الطبراني عن ابن عمر جاء فيه ان النبي اقرأ رجلين سورة فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليله يصليان فلم يقدروا منها على حرف

فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا له ذلك فقال إنها مما نسخ فالهوا عنها ، ومثل حديث رواه البخاري عن انس انه نزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قراناه ثم رفع الخ

- ٧ -

ولقد ادرنا الكلام في الفقر السابقة في نطاق الروايات المروية المتعارضة والتعليقات الواردة عليها ، وما يتسق مع طبائع الامور والظروف ومالا يتسق. ونقول الآن إن في القرآن ملهمات تؤيد النتائج التي قررناها، وتوثق الروايات التي تستند اليها ، وتدل أو تقوم قرينة على ان القرآن كان يدون بانتظام ويحفظ بانتظام وإن آياته قد رتبت في السور وسوره قد رتبت في تسلسل في حياة النبي عليه السلام مما يعد جديداً في هذا الباب لم نطلع على مثله .

فأولا إن في بعض السور آيات احتوت قرائن قوية على ان ما كان ينزل من القرآن كان يدون حال نزوله وأن مدوناته كانت تحفظ وتتلى على ملأ الناس :

١ – ففي سورة القيامة الآيات التالية :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ١٦ – ١٩ فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصال موضوع وخطاب ونظم ، في حين انها غير متصلة بهذه الآيات موضوعا ولا خطابا ولا نظما كما يبدو حين قراءة

السياق بطوله (١) .

وقد روي بمناسبتها حديث يستفاد منه انها نزلت على النبي لانه كان حينا يتلقى وحي القرآن يحرك شفتيه بما ينزل على قلبه خشية نسيانه . ووجود هذه الآيات في موضعها يلهم بقوة انها اوحيت الى النبي في اثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها . ولا يصح فرض غير هذا فيما نعتقد لفهم حكمة وجودها في السياق ، ولا مناص من فرض ثان مع الفرض الاول وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحيها ، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق آيات السورة لانها أوحيت اليه مع آيات السورة ، مع انها كانت خطابا خاصاً له وبقصد تعليمه كيفية تلقي الوحي فدونت كما جاءت . وفي هذه الآيات في موضعها ملهمات اخرى عظيمة الخطورة ايضا في صدد القرآن ، فهي تقف امام اي شك حتى من اشد الناس تشككا بان ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن انما كان وحيا يشعر به في اعماق نفسه ويدركه ويستمع اليه باذن بصيرته ويعيه بقلبه ، وهي تبين مقدار عظيم حرصه على ان لا يفلت منه اي كلمة او حرف أو معنى مما كان يوحى اليه به قرآنا فكان يسارع الى ترديده واملائه حتى يبلغه تاماً كاملا لا تبديل فيه ولا زيادة ولا نقصاً ولا تقديما ولا تأخيراً .

---

(١) لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة . ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه . بلى قادرين على ان نسوي بنانه . بل يريد الانسان ليفجر امامه . يسأل ايان يوم القيامة . فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ اين المفر . كلا لاوزر . الى ربك يومئذ المستقر . ينبأ الانسان يومئذ بما قدم واخر . بل الانسان على نفسه بصيرة . ولو القى معاذيره . لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه . كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة الخ ...

وهي تقرر معنى من معاني العصمة النبوية في صدد ما يبلغه النبي من وحي القرآن الرباني في توكيدها بان الله سيثبت في قلبه مـا يلقى عليه ويجعله يحيط به ويلهمه فهمه وبيانه ، فالنبي بهذا قد عصم من الغلط والنسيان والخطأ والتقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن ، فكل ما بلغه من آيات القرآن هو وحي رباني ، وقد بلغ كل ما أوحي اليه به بتمامـه وحرفيته . ولعلها تقوم قرينة على ان لا محل ولا معنى للقول إن القرآن نزل على النبي بالمعنى لا باللفظ ايضا . واذا لاحظنا ان ضمير الآيات هو ضمير المتكلم وان القرآن كلام الله واوامره امكننا ان نقول إن في الآيات دلالة على ان القرآن كان وحيا ربانياً مباشراً ينقذف في قلب النبي فيعيه ويبلغه ، او على الاقل إن هذه الطريقة من الطرق التي كان يوحي الله الى النبي بما يشاء ان يوحي اليه به وهـذا القول يتسق مع طرائق اتصال الله بانبيائه على ما جاء في آيات سورة الشورى (٥١ ٥٢) التي شرحناها في بحث سابق . كذلك فان هـذه الآيات تفيد أن ما كان يوحى به الى النبي عليه السلام كان النبي يبادر الى الامر بتدوينه وتسجيله حتى ولو كان موضوعه خاصا به وبصدد تعليمه تلقي الوحي واستيعابه ، وان النبي قد جرى على هذا منذ أوائل نبوته لان هذه السورة من اوائل القرآن نزولاً . وهذا المعنى عظيم من وجهة عصمة النبي في تبليغ كل مـا كان ينزل على قلبه من وحي الله بما في ذلك من خطرات النفس وأسلوب تلقي القرآن والتصرف الشخصي او الحركة الشخصية اللاشعورية ، وهو مؤيد بآيات عديدة علقنا عليها في مناسباتهـا من التفسير الكامل الذي كتبناه .

٢ - في سورة طه آية فيها مشهد مماثل لهذا المشهد في معناه وظروفه

وهي هذه :

« فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضي اليك وحيه وقل رب زدني علما ... ١١٥

وكل ما قلناه بشأن الآيات السابقة يصح بشأن هذه الآية .

٣ – في سورة الشعراء سلسلة طويلة من قصص الانبياء ، وكل من هود وصالح ولوط وصفوا بصفة اخيهم إلا شعيباً فان هذه الصفة لم تلحق به في حين انها الحقت به في فصول سور اخرى (١) . فهذا يلهم بقوة ان الفصول القرآنية دونت كما انزلت على قلب النبي ولم يكن فيها وصف الاخ لحكمة يعلمها منزل الوحي . ومع ان بعض العلماء قالوا ان مدين التي وصف شعيب في سياق قصتها باخيهم في سور الاعراف وهود والعنكبوت هي غير اصحاب الايكة الذين ذكرت قصتهم سورة الشعراء فان بعضهم قال انهم واحد . ويلاحظ اولا بأن الكلام عن اصحاب الايكه مماثل الكلام عن اصحاب مدين وثانيا انه لم يجمع في آية واحدة بين الفريقين (١) . وهاتان الملاحظتان تسوغان الترجيح ان لم نقل الجزم بانها واحد وتجعلان ما استدللنا عليه في هذه النبذة في محله .

٤ – ومن هذا الباب الآية التي ذكر فيها اسماعيل واليسع وذو الكفل في سورة ص (٤٨) فكل الانبياء الذين ذكروا في الآيات المتقدمة اي داود وسليمان وايوب وابراهيم واسحق ويعقوب وصفوا بعبد الله وبعباد الله إلا الانبياء الثلاثة الذين ذكروا في الاية (٤٨) فهذا يلهم بقوة ايضا ان

---

(١) اقرأ ايات الاعراف ٨٥–٩٣ وهود ٨٤–٩٥ والعنكبوت ٣٦–٣٧ مثلا

(١) اقرأ مثلا ايات سورة ق ١٣–١٤ وص ١٢ – ١٣ والتوبة ٧٠ والحج ٤٣ – ٤٤

التصول دونت فوراً كما انزلت على قلب النبي ولم يكن فيها وصف عبادنا للانبياء الثلاثة لحكمة يعلمها منزل الوحي كذلك .

٥ – ويسلك في هذا الباب ايضا آيات متشابهة الالفاظ فيها تقديم أو تأخير كلمة فحسب مثل آية المؤمنون (٨٣) « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل » في حين ان آية مماثله في سورة النمل (٨٦) قد تقدمت فيها كلمة « هذا » كما ترى فيها لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل » حيث يصح ما قيل في الفقرتين السابقتين فيها ويستدل منها على الاملاء والتدوين الفوريين .

٦ – وفي سورة النحل موضوع طريف في صدد مـــا نحن بسبيل تقريره . فقد اقتضت الحكمة الربانية تبديـل آية مكان آية فاستغل المشركون الحادث استغلالا عظيما حتى كان من نتيجة ذلك ان ارتد بعض ضعفاء الايمان في مكة كما يستلهم من آيات السـورة هذه :

« فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . واذا بدلنا اية مكان اية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفـتر بل اكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين . ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنمـا يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن

من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين ..

٩٨ - ١٠٨

فهذا الحادث يلهم ان آيات القرآن كانت مدوّنة فأمر النبي بوضع آية مكان اية وفقاً لما اوحي اليه فكان ما كان من موقف الكفار ، ويسوغ القول ان القران لا بد من انه كان مدونا يتلى حتى يكون مجال لهذا الموقف .

فهذه عدة امثلة متصلة بعدة سور مكية متفاوتة في فترات نزولها حتى ليصح ان يقال ان منها ما نزل أوائل عهد مكة ومنها ما نزل بعدها بقليل ومنها ما نزل في أواسطه تحتوي دلائل على ان القران كان يدون حال نزوله ويتلى وينشر بين الناس ويسمعه المشركون كما يتداوله المسلمون ايضا .

٧ - ان القرآن المكي احتوى آيات كثيرة تصف القران بالكتاب - وهذه الكلمة تأتي بمعنى المكتوب ايضا - ومنها ما يجمع بين الكلمتين معا « الكتاب والقران » (١) اي الكتاب المقروء المكتوب (٢) ، وتنوه بخطورته وتشير اليه كأعظم مظهر وآية للنبي والنبوة وتذكر

---

(١) مثل الر تلك ايات الكتاب وقران مبين . . الحجر ١ «و» طس تلك ايات القران وكتاب مبين النمل «١»

(٢) يرجح بعض علماء اللغة ان كلمة القران مصدر من مصادر « قرأ » ونحن نعتقد انها متصلة بجذر « قرا » على كل حال وقد قال بعض المستشرقين انها دخيلة عبرانية . ولا نرى لهذا مبرراً لان جذر قرأ اصلي في اللغة العربية : على ان ما لا شك فيه ان الكلمة بصيغتها كانت مستعملة قبل نزول القران وليس من الضروري ان تكون دخيلة عبرانية معربة اذا لا حظنا خاصة ان العربية والعبرانية تتان الى اصل واحد وان كثيرا من الجذور فيها متحد

انه انزل ليتلى على الناس ، وان فيه متنوع الامثال ليتدبروا آياته ويعقلوها ، وانه انزل على النبي ليبين لهم ما انزل اليهم من ربهم ويوضح لهم ما اختلفوا فيه كما يستفاد منها ان القران نفسه كان موضوع جدل وتيسي بل ام موضوع جدل بين النبي والمشركين في مكة (٣). فكل هذا يلهم انه كان يدون وتتلى مدوناته على الناس مسلمين ومشركين كما يلهم ان المسلمين ايضا كانوا يدونونه ليتدبروا ويتذكروا ويتعلموا ويتفقهوا فيه .

٨ – في سورة الفرقان آية تلفت النظر وهي : « وقالوا أساطير الاولين اكتتبها (٤) فهي تملى عليه بكرة واصيلا .. » فهذه الاية تلهم ان القول ليس مما يرمى جزافا وانما هو مستند الى مشاهدة بان آيات القرآن وسوره كانت تدون وتتلى على الناس في صحف فكان المشركون يصفونها بهذه الصفة ، ويريدون بذلك ان النبي كان يستكتبها عن كتب الاولين واساطيرهم .

٩ – في سورة الواقعة الآيات التالية : « انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون .. ٧٧ – ٧٩ » وفي سورة عبس الآيات التالية : « في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة . ١٣ – ١٦ » فهذه الآيات وتلك وان كانت تشير الى صلة القرآن بالملائكة وطهارة أصله ومصدره وكرامته فان روح عباراتها تلهم ايضا وبقوة ان القرآن صار مكتوبا في صحف وصار لهذه الصحف واجب التكريم فلا يمسها إلا المطهرون . وهذا ما كان يجري فعلا كما جاء في الروايات الوثيقة وخاصة في رواية اسلام عمر وصحيفة القران

---

(٣) هذه الايات كثيرة جداً ومنبثه في مختلف السور المكية مما يجعلنا في غنى عن التمثيل لها (٤) تالى بمعنى استكتبها كما ذكر الزمخشري في الكشاف

التي كانت في يد أخته ورفضها تسليمها اليه إلا بعد ان يتطهر (١) واصل التقليد الاسلامي الفقهي بعدم جواز مس المصحف إلا على طهارة هو من هذا الباب .

١٠ – في سورة الحجر هذه الآية « إنا نحن نزلنا الذكر (٢) وإنا له لحافظون . ٩ » فهذه الآية إذ احتوت وعد الله بحفظ القرآن فانها احتوت تلقينا توجيهيا للنبي بتدوينه وحفظه ايضا .

١١ – لقد كثر في القرآن المكي ترديد ذكر أهل الكتاب وكتبهم ، وتقرير معنى التطابق بين القرآن وبين هذه الكتب ، والاستشهاد بأهل الكتاب على صحته ووصف مواقفهم حينما كانت تتلى عليهم آيات القرآن. وطبيعي أن النبي كان يعرف ان الكتب السماوية متداولة في ايدي اليهود والنصارى ومكتوبة في صحف وقراطيس ، ومجموعة في اسفار أوسجلات، فما لا ريب فيه ان الآيات التي احتوت ذلك قد احتوت تلقيناً توجيهياً للنبي والمسلمين بأن يدونوا الفصول القرآنية ويجمعوها في أسفار وسجلات أسوة بتلك الكتب التي نزل القرآن مصدقا لها ومتطابقا في أسسه وروحه ومصدره معها ، ولا يعقل الا أن يكون النبي والمسلمون قد اعتنوا كل العناية بهذه النقطة .

– ٨ –

وثانيا : إن في القرآن المكي ملهمات عديدة لترتيب الآيات في السور وتأليف السور في حياة النبي عليه السلام .

١ – فقد تكرر فيه كلمة «سورة» وخاصة في معرض تحدي المشركين

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص (٢) يعني القرآن

وجاءت مرة بتحديهم بالاتيان بسور ومرة بعشر سور كما ترى في آيتي يونس وهود هاتين :

١ - أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله . . ٣٨ يونس

٢ - أم يقولون افتراه قل فأتو بعشرسورمثله مفتريات. ١٣ هود.

وعبارة الآيات لا تدع مجالا للشك في أن مدلول السورة هو مجموعة مستقلة من الآيات أو الفصول القرآنية ، ولا تدع مجالا للشك كذلك في ان مجموعات القرآن حينما نزلت هذه الآيات - وترتيب السورتين يلهم انهما مما نزل في اواسط العهد المكي - كانت سوراً مستقلة تامة حتى يصح التحدي والتمثيل . وطبيعي ان هذا الأسلوب قد ظل العمل به مستمراً .

٣ - إن السور المكية المسجعة او الموزونة أو المقفاة (١) خمس وستون سورة بما فيها الرحمن والانسان والزلزلة التي نرجح مكيتها والتي ذكرت مكيتها روايات عديدة في حين أن بعض الروايات قال انهامدنية منها اربع وخمسون قصيرة هي الفاتحة والناس والفلق والاخلاص وابي لهب والكافرون والكوثر والماعون وقريش والفيل والهمزة والعصر والتكاثر والقارعة والزلزلة والعاديات والقدر والعلق والتين والانشراح والضحى والليل والشمس والبلد والفجر والغاشية والأعلى والطارق والبروج والانشقاق والمطففون والانفطاروالتكويروعبس والنازعات

---

(١) الفرق فيما نعتقد هو ان الاصل في المسجوع وحدة القافية دون التزام التوازن وان الاصل في الموزون هو التوازن دون التزام وحدة القافية . ومن الممكن ان يكون المسجوع موزونا ايضا . وفي القران نماذج لكل ذلك . وهناك سور احتوت فصولا متنوعة في الوزن والقافية ايضاً . وفي كتابنا عصر النبي وسننه قبل البعثة عرض وبحث في هذا الباب في فصل اللغة القرانية .

والنبأ والمرسلات والانسان والقيامة والمدثر والمزمل والجن ونوح والمعارج والحاقة والقلم والملك والواقعة والرحمن والقمر والنجم والطور والذاريات وق ، ووحدة الموضوع في هذه السور بارزة بروزاً تاماً . فالغرض الصحيح الذي نعتقد انه لا يصح غيره هو أنها نزل كل منها دفعة واحدة وكسبت شخصيتها كسور مستقلة . واذا كان من الممكن أن يكون استثناء فهو قليل بالنسبة الى هذا العدد الكبير من جهة، وهو في الوقت نفسه ليس استثناء ينقض هذا الغرض في جوهره من جهة اخرى. وقد احتطنا بهذا الاستدراك من اجل ما روي من ان ايات العلق الاولى هي اول ما نزل وأنها نزلت منفردة مما يبرره مضمون ايات السورة، ومن اجل ما روي من مثل ذلك بالنسبة الى ايات سور المزمل والمدثر والقلم الاولى مما يبرره كذلك مضمون ايات السور (١) ثم من اجل ما روي من ان الاية الاخيرة من سورة المزمل مدنية وليست مكية مما يبرره مضمونها ايضا .

٣ - ان التدقيق في فصول بقية السور المسجعة او الموزونة المتوسطة الى سور ص والصافات ويس وفاطر والشعراء والفرقان وطه ومريم والكهف والاسراء والحجر يظهر تلاحق فصولها وانسجامها بالاضافة الى تسجيعها وتوازنها . وهذا وذاك يلهمان او يحملان على الترجيح بأنها هي الاخرى نزلت دفعة واحدة أو فصولا متتابعة بدون اعتراض بفصول من سور اخرى الى ان تم كل منها واكتسب شخصيته كسور مستقلة.

٤ - ان السور المكية غير المسجعة وغير الموزونة ست وعشرون، وهي الاحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشوري وفصلت وغافر

(١) في مبحث اوليات الوحي في الجزء الاول من كتابنا سيرة الرسول بيان واف لذلك .

والزمر وسبأ والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والمؤمنون والحج (١) والانبياء والنحل وابراهيم والرعد (٢) ويوسف وهود ويونس والاعراف والانعام . ووصفنا اياها بغير المسجوعة وغير الموزونة هو من وجه عام ، وقداحتوى بعضها فصولامسجوعة اوموزونة ايضا . ومن هذه السور تسع ضاربة الى القصر اكثر منها الى التوسط وهي الاحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وسبأ والسجدة ولقمان وباقيها متوسط وقريب من الطويل وطويل . ومع أنها غير مسجعة وغير موزونة الايات كما قلنا فان خواتم آياتها مركزة . والذي يمعن فيهايجدتلاحقا في السياق وترابطافي الفصول ، ويجدا كثرها ذا وحدة موضوعية ايضا . وكل هذا يلهم أن الضاربات الى القصر منها قد نزلت دفعة واحدة وان ما يحتمل ان لا يكون نزل دفعة واحدة من باقي السور قد نزل فصولا متتابعة من دون اعتراض بفصول من سور أخرى . الى ان تم كل منها واكتسب شخصيته المستقلة .

وما جاء في الرقمين ٣و٤ يمكن توثيقه بميزات القرآن المكي والعهد المكي . فان هذا العهد كان عهد دعوة ، وأحداثه متشابهة من حيث كونها مواقف دعوة وحض وإنذار وتبشير وتنديد وتذكير ووعظ من جانب النبي ، ومواقف انكار وعناد ومكابرة وجدل وتحد وأذى من جانب الكفار . والقرآن المكي قد دار جميعه على هذه المواقف المتشابهة فطبيعة هذا العهد لا تقتضي كما يبدو مستقيما نزول فصل من سورة ثم تعقيبه

---

(١) ادخلنا الحج لترجيحنا ان جل آياتها مكي وبعض الروايات تذكرها في عداد السور المدنية . (٢) بعض الروايات تذكر سورة الرعد في عداد المدنيات وبعضها تذكرها في عداد المكيات واسلوبها ومضمونها يحملان على ترجيح مكيتها

بفصل من سورة أخرى وقبل ان تتم فصول السورة السابقة . وتلاحق فصول السور المكية المتوسطة والطويلة وانسجامها بل ووحدة الموضوع فيها بوجه الاجمال مما يقوم دليلا قويا على ذلك .

٥ - ان سبعا وعشرين سورة من السور المكية المتنوعة تبتدىء بحروف متقطعة وهي القلم وق والاحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر وص ويس والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والشعراء وطه ومريم والحجر وابراهيم والرعد ويوسف وهود ويونس والاعراف ، وسبع عشرة منها وجلها من القصار تبتدىء بالاقسام وهي العصر والعاديات والتين والضحى والليل والشمس والفجر والبلد والطارق والبروج والنازعات والمرسلات والقيامة والنجم والطور والذاريات والصافات وتسعا وهي متنوعة ايضا تبتدىء بالثناء والحمد والتسبيح وهي الفاتحة والاعلى والملك و [illegible] وسبأ والفرقان والكهف والاسراء والانعام ، وتسعا أخرى كلها من القصار تبتدىء بالاستفهام وهي الماعون والفيل والانشراح والقارعة والغاشية والنبأ والانسان والمعارج والحاقة وتسعا أخرى من القصار كذلك تبتدىء بخطاب النبي نداء أو أمرا وهي الناس والفلق والاخلاص والكافرون والكوثر والعلق والمدثر والمزمل والجن ، وأربعا منها تبتدىء بالدعاء والانذار وهي المسد والهمزة والتكاثر والمطففون وخمسا منها تبتدىء بحرف اذا التنبيهي او التذكيري وهي الزلزلة والانشقاق والانفطار والتكوير والواقعة ، اي إن ثمانين سورة مكية من مجموع احدى وتسعين ذوات مطلع خاص فيه دلالة ما على شخصية السورة واستقلالها . اما بقية السور المكية فمنها سبع قصار مسجوعة هي قريش

والقدر وعبس ونوح والرحمن والقمر والزمر يجري عليها ما قلناه من طابعها البارز الذي يدل على نزولها دفعة واحدة واكتسابها شخصيتها ، والاربع الاخرى وهي المؤمنون والحج والانبياء والنحل فان مطالعها تلهم بدء سورة خاصة مستقلة إذا ما انعم النظر فيها .

- ٩ -

وثالثا – اذا صح ما قلناه واستلهمناه من ايات القران المكي واساليب نظمه من ان القران المكي كان يدون فورا ويحفظ بانتظام وهو مانعتقد بصحته فان هذا ما ينبغي ان يكون صحيحا من باب اولى بالنسبة للقران المدني بطبيعة الحال . لان الحالة بعد الهجرة أصبحت أعظم خطورة من ناحية الدعوة وتطورها الى تشريع وتركيز ، واصبح المسلمون اكثر طمأنينة واستقراراً ، وهذا يتسع للتدوين والحفظ ويقتضيهما من باب اولى . ثم انه كان في المدينة جالية كبيرة من اليهود ، وكان لها أحبارها وربانيوها وقضاتها ومدارسها وكتبها ، وقد نشب بينها وبين النبي عليه السلام منذ حلوله في المدينة تشاد وخلاف وجدل حول الدعوة والقران والتوراة والانبياء ، وهذا كله سائق لتدوين القران وحفظه بانتظام كذلك . فليس من مبرر للشك قط في ان ما جرى عليه النبي والمسلمون في مكة من تدوين القرآن فوراً وفي الصحف والقراطيس لم يظل مستمراً في العهد المدني .

بالاضافة الى هذا فان في القران المدني امثلة مشابهة لما ذكرناه في صدد تدوين القران المكي . ففي سورة البقرة ايتان متشابهتان مع فرق قليل في النظم وهما هاتان :

١ – واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ٤٨

٢ – واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ١٢٣

وفي سورتي البقرة وال عمران الآيتان التاليتان :

١ – قولوا امنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون .. البقرة ١٣٦

٢ – قل امنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ال عمران ٨٤

وفي سورة التوبة آيتان متشابهتان مع فرق قليل في النظم كذلك وهما هاتان :

١ – فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون ٥٥

٢ – ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ٨٥

والسياق قد يلهم ان كلا من آيتي البقرة قد نزل في سياق طويل في مجلس واحد ، والفرق في النص يلهم ان كلا منها قد دون فوراً بعد نزولها كما أملاها النبي عليه السلام ، وكذلك الامر في ايتي التوبة ايضا والبقرة من أوائل ما نزل والتوبة من أواخر ما نزل من القران . وهذا

يعني ان التدوين بدأ منذ أول العهد المدني واستمر الى اخره .

والفرق في ايتي البقرة وال عمران المتشابهتين يبهم ما تلهمه الآيات الأخرى من فورية التدوين بطبيعة الحال .

أما من حيث ترتيب ايات القران المدني في السور ومن حيث شخصيات سوره فالناظر يجد :

١ – ان سورتين منها تبتدئان بحروف متقطعة وهما البقرة وأل عمران ، وثماني منها تبتدىء بنداء النبي وتوجيه الخطاب اليه وهي النصر والتحريم والطلاق والمنافقون والمجادلة والفتح والاحزاب والانفال ، وخمسا منها تبتدىء بالتسبيح وهي التغابن والجمعة والصف والحشر والحديد وثلاثا تبتدىء بخطاب المؤمنين وهي الممتحنة والحجرات والمائدة ، أي أن ثماني عشرة سورة من مجموع ثلاث وعشرين ذوات مطالع تلهم أنها مبادىء سور وتلهم ان سورها ذوات استقلال وشخصية . اما باقي السور المدنية وهي البينة ومحمد والنور والتوبة والنساء فمطالعها هي الاخرى تلهم استقلالها وشخصية سورها إذا ما امعن فيها ولو لم تكن ذات طابع مطلعي خاص .

٢ – إن من السور المدنية اثنتين قصيرتين جدا وهما النصر والبينة وثلاث عشرة قصاراً وهي التحريم والطلاق والتغابن والمنافقون والجمعة والصف والممتحنة والحشر والمجادلة والحديد والحجرات والفتح ومحمد وباستثناء اثنتين منها وهما الجمعة والجادلة فان جميعها أي ثلاث عشرة من خمس عشرة ذوات موضوع واحد . وهذا يلهم انها نزلت وكسبت شخصيتها دفعة واحدة . كذلك فان احدى السور

المتوسطة وهي الانفال ذات موضوع واحد وفصولها تلهم انها نزلت دفعة واحدة هي الاخرى .

٣ - ان السور التي احتوت مواضيع عديدة وفصولا متنوعة وغير مترابطة أحيانا تسع منها اثنتان قصيرتان هما الجمعة والمجادلة ، واثنتان متوسطتان هما الاحزاب والنور ، وخمس طوال هي التوبة والمائدة والنساء وآل عمران والبقرة وفي الحق إن مواضيع هذه السور وفصولها تلهم انها لم تنزل دفعة واحدة ولا فصولا متتابعة بدون اعتراض ، وتلهم أنها ألفت تأليفا على ما هي عليه في المصحف بعد تكامل فصولها من دون سائر السور القرآنية المكية والمدنية . ونرجح ان الكلام والتخمين في امر ترتيب آيات القرآن في سورها قد كان بسبب هذه السور وحولها في الدرجة الاولى ؛ لان وحدة موضوع سائر السور ونظمها وتلاحق سياقها وتناسب فصولها المتتابعة يلهم وحدة النزول او التتابع فيه . والذي نعتقده ان ترتيب آيات وفصول هذه السور على الوجه الذي هو عليه في المصحف المتداول قد كان في حياة النبي وبأمره وان ما ورد عن زيد بن ثابت - وهو انصاري - في حديث تأليف القرآن من الرقاع على عهد النبي (١) وما جاء من أحاديث تتضمن ان النبي كان يوحى اليه بفصل قرآني من السور ذوات العدد كما جاء في حديث عثمان (٢) او بكلمة ثانية ذوات الفصول المتعددة ويمليه على كتاب وحيه يأمرهم بوضعه في مكان من سورة يعينها لهم هو الصورة الصحيحة الصادقة لما كان يقع خاصة في صدد هذه السور المدنية السبع .

---

(١) المجموعة الثالثة (٢) المجموعة الثالثة

ولعل من ملهمات القران على صحة ذلك التناسب البارز بين كثير من الفصول في هذه السور وخاصة في السور الطويلة موضوعا او مدى أو مفهوما او مناسبة حينما ينعم النظر فيها بما نبهنا عليه في التفسير من مثل تسلسل الاسئلة واجوبتها التشريعية في سورة البقرة ، وتسلسل فصول احكام الاسرة في سورة النساء وتسلسل فصول اهـل الكتاب في سورة المائدة ، وتسلسل فصول الجهاد ومواقف المشركين والمنافقين في سورتي ال عمران والتوبـة ، وتسلسل الفصول التأديبية والتعليمية والارشادية ومـا يتصل بمشاكل الاسر في سورة النور ، وتناسب فصول سورة الاحزاب فى الحملة على المنافقين والكفار والتنديد بمواقفهم المختلفة من جهة وتناسب فصولها الاخرى في صدد التأديب والانكحة في حين ان من هـذه الفصول والآيات ما نزل متأخراً او ما نزل متقدماً او ما نزل بعد فصول سور اخرى الخ بما نبهنا عليه في التفسير ومايمكن ان نمثل عليه بفقرة من اية النساء (٢٥) التي تذكر ان على الاماء المحصنات نصف ما على الحرائر من الحد ، حيث وضعت هـذه الفقرة في الآية لمناسبة السياق في حين انها نزلت حتما بعد اية سورة النور (٢) التي تذكر الحد على الزناة .

ولعل من ملهمات القران كذلك على ترتيب ايات وفصول هذه السور المتنوعة الفصول في حياة النبي الآية الاخيرة من سورة النساء في وارث الكلالة ، حيث يلهم وضعها انها نزلت متأخرة وبعد ان تم تأليف السورة فألحقت بامر النبي بالسورة ولو باخرها لان الموضوع الذي تتصل بـه قد جاء في سورة النساء . ولو كانت فصول سورة النساء واياتها لم ترتب على عهد النبي وبأمره أو لو كانت هذه السورة غير مرتبة الآيات والفصول

حينما نزلت الآية لكانت وضعت على ما يبدو مستقيما في سياق فصل التوارث مثل عقوبة الاماء المحصنات التي وضعت في مناسبتها ، وهذه ظاهرة خطيرة او بالاحرى دليل قرآني حاسم على ان ترتيب السور إنما تم في حياة النبي وأمره .

ومن هذه الملهات اية الاحزاب (٤٩) بشأن عدة المطلقة بدون مس ودخول . وقداحتوت البقرةسلسلة ايات بهذا الشأن (٢٣٥ ٢٤١)وقد انصبت كلها على مهورهن .اما اية الاحزاب فذكرت عدم وجوب العدة عليهن . فلو كانت سورة البقرة لم يتم ترتيبها في عهد النبي عندما نزلت اية الاحزاب لكان المتبادر ان تلحق بسلسلة البقرة للتناسب الوثيق ولما وضعت في سورة الاحزاب كفصل خاص لا صلة له بسابق ولا لاحق . ومن باب اولى ان يكون ذلك لو كان الترتيب تم في عهدابي بكر

ولقد يرد ان هناك آيات مدنيـــة في سور مكية وآيات مكية في سور مدنية ، وان هذا قد يقوم قرينة على ان السور المكية لم تكن تامة الترتيب في العهد المكي ونقول من حيث الاساس ان الايات المدنية المروية في السور المكية ليست كثيرة العدد حتى مع التسليم بصحة رواية مدنيتها جميعها . ففي مصحف مصطفى نظيف قدوري أوعلي المطبوع من قبل عبد الحميد احمد حنفي والمصدق عليه من قبل اللجنة المعينة بأمر الملك فؤاد (١٤٧) اية قيل انها مدنية في (٣٤) سورة من مجموع الايات البالغ عددها اربعة الاف ونيفا ، فليس مما ينقض ما قررناه وجود هذه الآيات في هذه السور بحيث يمكن ان يفرض ان النبي امر باضافة هذه الآيات الى المكان المناسب لها في السور المكية لتناسب السياق او الموضوع

أو لتدعيمه ، ولا يترتب على هذا ان لا تكون السور المكية مرتبة قبل ذلك . هـــذا مع ان دمج هذه الآيات في سياق مناسب لها في سور مكية يدل دلالة قوية على العكس ، اي عـلى ان الآيات المكية كانت مرتبة في سورها من جهة وعلى ان ترتيب الايات في السور قـد كان في حياة النبي وأمره بل وعلى ان عملية التأليف والترتيب والتركيز كانت مستمرة بأمر النبي وتناسب الموضوع وتلازمه بين الآيات المدنية التي لا تحتمل مدنيتها شكاً في السور المكية وهي اخر اية في سورة المزمـــل واخر اية في سورة الشعراء والآيات ١٦٤ - ١٧١ في سورة الاعراف يعد دليلا قرآنياً على ان وضعها كان بأمر النبي ، ومؤيداً لما نحن في صدد تقريره ، فآية المزمل الاخيرة تخفف التكليف الذي كلف به النبي في اولها من قيام الليل وتعذر المسلمين بسبب كثرة مشاغلهم وواجباتهم التي منها القتال الذي لم يكن الا في العهد المدني ، واية الشعراء تستثني الشعراء المسلمين الذين كانوا يقابلون شعراء المشركين عـــلى هجومهم النبي والمسلمين من النعت الذميم الذي نعت بـــه الشعراء وايات الاعراف في صدد حادثة عدوان اليهود في يوم السبت وما كان من غضب الله عليهم بسببه وقد وضعت في سلسلة قصة بني اسرائيل وبدئت بأمر النبي بتذكير يهود المدينة بأمرهم . فالتناسب قائم بين الآيات المدنية والفصول المكية كما هو ظاهر .

أما الروايات عن الآيات المكية في السور المدنية فانها قليلة جـداً فهي في المصحف الذي ذكرناه سبع ايات في الانفـــال (٣٠ - ٣٦) واخر ايتي التوبة والآية (١٣) من سورة محمد وقد شككنا في الروايات

لان مضامين الآيات وسياقها يحمل على التوقف بالاضافة إلى روايات اخرى تخالفها . ومع ذلك فعلى فرض صحتها فانها ليس من شأنها أن تخل بما نقرره وان تمنع أن يكون النبي قد أمر باخراج بعض الآيات من سور مكية وإضافتها الى سياق مناسب لها اكثر في سور مدنية بل إن في هذا نفس الدلالات التي ذكرناها انفا .

وعلى كل حال فليس من المعقول ان يتصرف الصحابة بعد النبي فينقلوا ايات من سور مكية الى سور مدنية وايات من سور مدنية إلى سور مكية البتة ، وانه لا يكاد يتحمل شكاً في أن نقل ايات نزلت في عهد الى سور او بجموعة آيات نزلت في عهد اخر انما يكون وقع في حياة النبي وبأمره .

وقد يرد ما ذكرته الروايات عن آخر الآيات نزولاً مثل ايات الدين او الربا في سورة البقرة ، فعلى صحة هذه الروايات فانه ليس فيها ما ينقض ما قررناه من ترتيب ايات القران في السور في حياة النبي عليه السلام وبأمره ، إذ من الممكن والمعقول أن يفرض ان النبي هو الذي أمر بوضعها في مكانها التي هي فيه الآن كما كان شأن آخر ايات سورة النساء ، بل وان وجود هذه الآيات في مواضعها ليقوم دليلا على صحة هذا الفرض بل وعلى ان لا يكون إمكان لفرض غيره ففي سورتي البقرة وآل عمران مثلا آيات مقاربة لموضوع الآيات المذكورة ، في سورة البقرة ، فلو لم تكن الآيات موضوعة في مكانها بأمر النبي لكانت وضعت هذه الآيات المتقاربة في سلسلة واحدة . ويقاس على هذا غيره .

ورابعا اما ترتيب السور في تسلسلها على ما هو في المصحف المتداول فليس في القرآن ما يمكن أن يستلهم منه على أن ذلك قد تم في حياة النبي وبأمره ، الا قرائن قليلة قد لا تكون شافية . منها عدم فصل سورة التوبة عن سورة الانفال في البسملة وتقديم الانفال عليها مع انها ليست من الطوال ولا من المثين . والسورتان اذا اجتمعتا تكونان سورة طويلة وتنسجمان مع السور الطوال الست السابقة . والثابت المؤيد بمضامين السورتين ان الانفال من أوائل ما نزل في المدينة في حين ان التوبة من أواخر ما نزل فيها فورودهما واحدة وراء الاخرى وفي سلك الطوال ودون فاصل ببسملة يلهم أنه بأمر النبي اذ لو كان هذا الترتيب بعده لوضعت الانفال في سلسلة المثاني كما هو شأن سورتي النور والاحزاب المدنيتين التين جاءت كل منها منفردة بين سور مكية ومنها ما يلاحظ من الشذوذ في ترتيب السور الاطول وما يليها . فسورة المائدة اقصر واقل عدد ايات وحيزاً من سورتي الانعام والاعراف بل ومن سورة التوبة بمفردها ولكنها جاءت قبلها . وسورة الشعراء من حيث عدد آياتها تأتي بعد سورة البقرة فهي اكثر عدد آيات من سائر السور الطويلة وسور المثين وقد جاءت مع ذلك بعد ثلاث وعشرين سورة كلها اقل عدد آيات منها ومنها ما هو اقل حيزاً ايضا وآيات سورة الصافات التي جاء ترتيبها متأخراً جداً اكثر عدداً من آيات سور النساء والمائدة والانعام وهي اكثر ايات من جميع السور باستثناء البقرة والشعراء والاعراف والنساء وسور ابراهيم والرعد والحجر اقل حيزاً وعدد آيات من سور النحل والاسراء والكهف ومريم وطه ومع ذلك

فقد جاءت قبلها وسورة الاحزاب اكبر حيزاً واكثر عدد آيات من سور الروم ولقمان والسجدة التي سبقتها وسورة الاعراف اكثر عـــدد آيات واكبر حيزاً من سورتي الانعام والمائدة اللتين تقدمتاهـــا . وسورة القصص اكبر حيزاً واكثر عدد آيات من سور الفرقان والنور والحـج واكبر حيزاً من سورة النمل التي تقدمتها . وسورة غافر اكبر حـــيزاً واكثر عدد آيات من سور الزمر ويس وفاطر وسبأ واكبر حيزاً من سورة ص التي تقدمتها ومثل هذا يقال في سورة الزمر وما تقدمها مـن بعض السور وما ذكرناه هو الشذوذ البارز . وهناك غيره غير قليل مما يدخل في هذا النطاق من حيث الحيز وعدد الآيات او الامرين معا بين السور المتوسطة والقصيرة ففي هذا على ما يتبادر لنا ملهمات بأن الترتيب قد كان بأمر النبي الحكمة التي رآها اجتهاداً او بناء على وحي رباني ، فلم يكن من شأن اصحابه من بعده ان يبدلوا او يغيروا فيه ولو لم يكن الامر كذلك لاجتهدوا في اتمام النسق وفقا للترتيب الذي رأوه وجيهاً من تقديم الاطول ثم الذي يليه دون ما شذوذ بارز على الاقل . وليست السور مرتبة بحسب مكيتها ومدنيتها او بحسب نزولها حتى يعلل هـــذا الشذوذ بذلك وليس هذا بعسير التعيين والعمل كما يبدو المدقق في السور

- ١٠ -

ونتبه على أننا هنا بسبيل الاستلهام من القرآن . ونعتقد ان ماقررناه تعليقاً على الروايات والاحاديث والاقوال بأن ترتيب الآيات في السور وترتيب السور في تسلسلها المتداول في حياة النبي وبأمره هو قوي بذاته فضلا عن ما تلهمه القرائن القرآنية ، وقوته مستمدة بنوع خاص مـن اتساقه مع طبائع الامور والظروف ، ومن سكوت جميع الروايات

والاحاديث المتصلة بأصحاب رسول الله عن القول بأن تحرير المصحف في زمن أبي بكر ونسخ المصاحف في زمن عثمان قد استهدفا ترتيب آيات في سور او سور في تسلسل او تناولاه ولهذا دلالته الخطيرة ، ومن ان مصحف عثمان هو نسخة طبق الاصل لمصحف ابي بكر وهو اصل المصحف المتداول في ترتيب اياته وسوره .

هذا واخيرا نريد ان ننبه على امر مهم في صدد هذه المباحث ومداها فان ما تناولته انما هو بسبيل البحث العلمي والتاريخي ، وليس من شأنه ان يمس لب الموضوع ، وهو كون القرآن المتداول بين المسلمين والذي هو في متناول الجميع سوره وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه متصلا بالنبي وصادراً عنه مباشرة بوحي رباني نزل على قلبه ، وكون هذا لم يكن في وقت من الاوقات موضع اخذ ورد ومحل شك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم واهوائهم ومن لدن مشاهدي العيان في حياة النبي الى الآن ، كما ان صدوره مباشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين ايضا ، وكون ما جاء ذكره في الروايات جميعها وعلى ما فيها من علل كثيرة من الآيات والكلمات والحروف لا يزيد على اكبر تقدير عن واحد في المئة من آيات القرآن التي تزيد عن ستة الاف ومئتين ، وكلماته التي تزيد عن سبعة وسبعين الفاً وحروفه التي تزيد عن ثلاثمئة الف ، وكون هذه النسبة التافهة جداً مع العلل الكثيرة التي تجعلها غير صحيحة ليس من شأنها ان تخل بتلك الحقيقة المسلم بها ، وان القرآن كان وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة أصفى منبع للاحكام والعقائد والتشريع والالهام والفيض والتوجيه والتلقين ، فيه الحق والهدى والصدق والرشد ، وفيه المبادىء السامية والشفاء للصدور

والعلاج النفوس والحلول لمتنوع المشاكل الايمانية والروحية والسلوكية للناس كافة ، أنزله الله على قلب نبيه الكريم وخلفه النبي عليه السلام في المسلمين فلا يضلون ابداً إذا ما اتبعوه وتمسكوا به ، يهدي بـه الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم .

وانه ليصح ان يقرر جزما انه قد ظل سليما في حفظ الله محفوظاً كل الحفظ من كل تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص مجمعا عليه في رسم واحد ونص واحد ومصحف واحد وترتيب واحد في مشارق الارض ومغاربها ، وظل يحتفظ باشراقه وسنائه وروحانيته ، ونفس الفاظـه وحروفه واسلوب ترتيله وتلاوته التي تلاها رسول الله وبترتيبه الـذي وضعه ، وبكل ما فيه من معاتبات ومؤاخذات وبهت وتكذيب وهزء وزراية ونسبة افتراء وسحر وشعر وكهانة وتعلم واقتباس وجدل مـع مختلف طبقات الناس، ومن تقريرات لحقيقة شخصية الرسول البشرية ، وتطور في التشريع والمواقف المتنوعة مما لم يتيسر لاي كتاب سماوي ولا لاي نبي ، وظل بعد هذا مرجع كل خلاف ، والحكم في كل نزاع بين المسلمين على اختلاف فرقهم واهوائهم والقول الفصل في كل مذهب وعند كل نحلة من مذاهبهم ونحلهم على كثرتها ، فتحققت بذلك معجزة الاية الكريمة « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وانهـا لمعجزة كبرى تستحق التنويه في هذا المقام ، ويكفي لتبيين خطورتهـا ان نذكر ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب منذصدر الاسلام الاول وما كان من اجتراء الناس في ذلك العهد وبعده على رسول الله والكذب عليه في وضع الاحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ورأي عـلى رأي

ودعوة على دعوة ولاضعاف ذلك بالمقابلة ، وما كان من وضع الروايات والاحاديث لصرف آيات من القرآن الى غير وجهها بسبيل ذلك ، وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح واشتداد تيار الاحاديث المفتراة ، وان نذكر ان هذا كان في حين لم يكن القرآن مطبوعاً او مصوراً ، وفي حين لم يكن من المستحيل ان يجرأ الذين اجترؤا على رسول الله على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا شيئا جوهريا سائغا على المسلمين وينشروا به مصاحف جـــديدة وخاصة في الآيات التي حاولوا صرفها لتأييد الآراء والاهواء أو اضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التي أريد صرفها اليها سلباً وايجاباً رنفيا واثباتا ، وفي حين كانت الكتابة العربية سقيمة محرجة ولم يكن قد اخترع الشكل والاعجام ، وكان التشابه بين الحروف كثيراً واحتمال اللبس قويا ، وحفظت ببركته اللغة العربية القرشية التي نزل بها قوية مشرقة بكل ما وصلت اليه من سعة وبلاغة ودقة وقوة ونفوذ وعمق لتظل لغة الامة العربية الفصحى في كل صقع وواد ، وفي كل دور وزمان وهو ما لم يتيسر لامة من امم الارض ولتكون الى ذلك لغة عبادة الله لجميع الملل الاسلامية المنتشرة في انحاء الارض خلال ثلاثة عشر قرنا ثم خلال القرون الآتية الى آخر الدهر بل ولتترشح لتكون لغة العالم الاسلامي ، وحفظت ببركته الامـــة العربية قوية الحيوية دون ان يبيدها ما نزل بها من صروف الدهر الجسام التي اباد اخف منها من هو اقوى منها تكمن فيها مواهبهـــا العظيمة وخصائصها القومية التي جعلتها خير امة اخرجت للناس ان هي قامت بما حملها اياه القرآن من عبء الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

واتماما لموضوع تدوين القرآن نرى ان نورد بعض البحوث الموجزة في امور تتصل به

فاولا اسماء السور :

١ـ ان الضابط او الاصل العام في تسمية السور القرآنية على مـــا يبدو من اسمائها هو تسمية السورة بكلمة أو باشتقاق كلمة واردة فيها . واذا كانت الاسماء المشهورة لبعض السور لا تستمد من هذا الاصل مثل سور الفاتحة والانبياء والاخلاص فان هناك روايات بأسماء اخرى لهذه السور تستمد منه مثل الحمد للاولى وافتربت للثانية والصمد الثالثة

٢ـ على ان بعض المصاحف يختلف عن بعض في الاسماء مع المحافظة على ذلك الاصل فسورة التوبـــة مثلا تذكر في بعض المصاحف باسم « براءة » والاسراء باسم « اسرائيل » وغافر باسم « المؤمن » وفصلت باسم « السجدة » والملك باسم « تبارك » والنبأ باسم « عم » والبينة باسم « لم يكن » والمسد باسم « ابو لهب » و « تبت » والاخلاص باسم الصمد

٣ ـ وهذا الاختلاف ناشيء عن روايات مختلفة معزوة الى بعض الصحابة كما ان هناك روايات مثلها بتسمية سور اخرى باسماء اخرى وان لم نطلع عـلى مصاحف تذكر ذلك مثل سورة التوبة التي يروى ان من اسمائها : « العذاب والمشردة والمنكلة والمدمدمة والمتشقشقة » والفاتحة التي يروى من اسمائها « السبع المثاني والوافية والشافية والصلاة والدعاء وام القرآن والقرآن العظيم » والانفال والشعراء والنمل والسجدة والزمر وفصلت والجاثية وق والمجادلة والحشر والطلاق والصف والنصر التي لها اسماء اخرى هي بالتوالي بدر والجامعة وسليمان والمضاجع والغرف

والمصابيح والشريعة والباسقات والظهار والنضير والنساء الصغرى والحواريين والتوديع . وهناك كذلك روايات سميت فيها بعض السور بأكثر من كلمة واحدة مثل سورة المؤمنون التي ذكرت بتعبير « قد افلح المؤمنون » والانسان بتعبير « هل أتي على الانسان » والأعلى بتعبير « سبح اسم ربك الأعلى » والليل بتعبير « والليل اذا يغشى » .

٤ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن هناك أحاديث وروايات مختلفة في طريقة تسمية السور . فقد روي عن انس بن مالك حديث جاء فيه « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي فيها آل عمران . وقد ذكرت جل السور في تفسير ابن عباس رواية ابي صالح بالطريقة الثانية ، في حين ان البخاري روى عن ابن مسعود في معرض تجويز القول سورة كذا أنه قال هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة ، وان هناك أحاديث نبوية وصحابية نقلناها في المجموعة الثالثة في مبحث تدوين وترتيب القرآن احتوت اسماء بعض السور بالطريقة المختصرة المتداولة أي سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وسورة الكهف الخ ، بل هناك حديث طويل منسوب للنبي ورد فيه جميع اسماء السور وفضائلها ذكره الزمخشري والخازن والبيضاوي في تفسيرهم بالطريقة المتداولة المختصرة وأوردوا وراء تفسير كل سورة فضيلة السورة المذكورة في الحديث

٥ - ومن جهة ثالثة فان اسماء السور لم تكتب في جميع المصاحف المخطوطة التي هي الاصل في المصاحف المطبوعة والتي كانت هي المتداولة قبل الطباعة على رؤوس الصحف حيث منها ما كتب فيه الاسماء على

رؤوس الصحف وفي فواصل السور ومنها ما كتبت فيه الاسماء في فواصل السور فقط .

فكل ما تقدم يمكن ان يسوغ القول ان كتابة أسماء السور في فوأصلها وعلى رؤوس صحف المصاحف حسب المتداول ليست واردة في مصحف عثمان لانها لو كانت كذلك لما كان محل لهذا الخلاف في التسمية والكتابة ، وانما هو عمل تنظيمي متأخر عن نسخ هذا المصحف . وقد يكون – بل هذا هو الارجح – مستنداً الى روايات تنوقلت فكتبت في المصاحف و كتب القراآت والتفاسير على الوجه الشهير المتداول او المختلف احيانا ،ونرجح بناء على ذلك أيضا ان للاحاديث والروايات أصلا صحيحا ما ، وأنه كان للسور كلها او كثير منها منذ عهد النبي اسماء تذكر وتعرف بهـــا .

- ١٢ -

فصل السور بالبسملة

وثانيا – فصل السور بالتسمية

ان المصحف العثماني ومصحف ابي بكر الذي نسخ ذلك عنه قد فصل بين السور فيه بالبسملة كما يستفاد من احاديث ابن عباس وابن مسعود التي اوردناها في المجموعة الثالثة من بحث التدوين . وليس من خلاف في ذلك بين المصاحف المتداولة . ولذلك يصح ان يقال بشيء من الجزم ان هذا متصل باول ترتيب للمصحف من عهد ابي بكر وبالتالي بترتيب السور في حياة النبي . وهناك اختلاف في ما إذا كانت البسملة آية اصيلة في كل سورة ام لا . ومنشأ هذا الخلاف على الارجح أحاديث ابن عباس

وابن مسعود من ان الوحي كان ينزل بالبسملة في اول كل سورة ، وانهم كانوا يعرفون انها سورة جديدة بذلك . فمن اخذ بهذه الأحاديث اعتبر البسملة آية اصيلة ومن لم يأخذ بها لم يعتبرها كذلك ، هذا مع التنبيه على ان الجمهور على ان البسملة في الفاتحة آية اصيلة . ومها يكن من امر فان هذا الخلاف لا ينقض ما جزمنا به من اتصال فصل السور بالبسملة منذ ترتيب المصحف الاول .

السجدات

وثالثا ـ السجدات ومواضعها

ان هناك احاديث عديدة متصلة باصحاب رسول الله ومستندة الى مشاهدة النبي على اختلاف وتفاوت في اسنادها ومتونها تعين اربع عشرة سجدة في القرآن . وللفقهاء بحوث مستندة الى هذه الاحاديث في وجوب السجود عند تلاوتها او استحسانه او عدم وجوبه في بعضها دون بعض حيث اوجبه بعضهم في بعضها واستحبه في بعضها ولم يوجبه في بعضها على اختلاف في ذلك مرجعه اختلاف متون الاحاديث واسنادها ورتبها مما لا نرى ضرورة للتوسع فيه هنا . ونكتفي بالقول ان هذا الاختلاف يدل على ان مواضع السجدات لم تكن معينة كتابة او اشارة في مصحفي ابي بكر وعثمان ، وان رواياتها ظلت تتناقل فاخذ بعض نساخ المصاحف يشير الى مواضعها فيها متأخراً عن ذينك المصحفين كعمل تنظيمي وفي وقت ليس من السهل تعيينه ، وان كان اختلاف أئمة المذاهب يمكن ان يساعد على القول ، ان ذلك كان في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

ورابعا ـ مبادىء الاجزاء والاحزاب

ان هناك كذلك بعض الخلاف في مبادىء الاجزاء والاحزاب

وأواخرها ، وليس هناك فيما اطلعنا عليه أحاديث متصلة بالنبي او اصحابه عن هذه التقسيمات الموجودة في المصاحف المتداولة عدا الحديث المطلق الذي اوردناه في المجموعة الثالثة عن تحزيب القرآن والذي لا يفيد شيئا في ما نحن بصدده ، وان كان يستأنس به ان قراء القرآن منذ حياة النبي عليه السلام كانوا يقرأونه اقساما اقساما ، ويقفون عند مواقف خاصة حينما يتوقفون عن القراءة . وهذا يسوغ القول أن هذه التقسيمات في المصاحف عمل تنظيمي متأخر عن المصحف العثماني ، مع التنبيه على ان ذلك الحديث يمكن ان يكون الباعث عليه . ولعله مستند الى قراءة القراء التي كان القراء يتلقونها شفهيا خلفا عن سلف الى ان تتصل باصحاب رسول الله .

-١٣-

كتابة ترتيب نزول السور القرآنية وعدد آياتها

خامسا - كتابة ترتيب نزول السور وصفاتها وعد اياتها وارقامها وفواصلها

ان بعض المصاحف تذكر في فواصل السور (١) ترتيب نزول كل سورة اي ان السورة قد نزلت بعد السورة الفلانية (٢) وصفة كل سورة اي مكية او مدنية (٣) وعدد أيات كل سورة (٤) ورقم الآيات المدنية في السورة المكية ورقم الايات المكية في السورة المدنية اذا كانت السورة احتوت ايات مكية ومدنية معا ، (٥) ورقم كل اية بعد كتابتها في السورة ، في حين ان بعض المصاحف لا تذكر شيئا من هذا وتكتفي بذكر اسم السورة ، وان بعضها تذكر بعض هذه الامور دون بعض

وان بين المصاحف التي تذكر هذه الامور جميعها او بعضها اختلافا في ما تذكره حيث يذكر بعضها سورة ما مكية بينما يذكرها بعضها مدنية . وحيث يكون عدد آيات السورة في مصحف اقل او اكثر منه في مصحف آخر ، وحيث يكون عدد الايات المكية والايات المدنية في السور المدنية والمكية وارقامها في مصحف مغايرة لعددها وارقامها في مصحف آخر ، وحيث توضع فاصلة وراء آية ما في بعضها بينما لا تكون مفصولة في بعضها ، وحيث تكون الفواصل بين الايات في بعضها صماء بينما تكون في بعضها تحمل رقم الاية المتسلسل .

فالواضح من كل ذلك ان هذه الامور - عدا فصل الايات بفاصلة ما - هو عمل تنظيمي متأخر وليس له اصل في المصحف العثماني

وقد استثنينا فصل الايات بفاصلة ما لاننا نعتقد ان المصحف العثماني لم يسرد الايات سردا دون فصل بينها ، ولان الاية هي الوحدة القرآنية الصغرى المستقلة ، وقد اشير اليها في القرآن نصا كذلك كما جاء مثلا في آية النحل (١٠١) هذه « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل » . فلا يعقل الا ان توضع فواصل بين الايات . ولعل الفاصلة التي كانت تفصل بين الايات في المصحف العثماني هي نقطة صماء .

وهناك اختلاف في عدد آيات كثير من السور . وقد ذكر السيوطي في الاتقان ان المتفق على عدد آياته اربعون سورة فقط . ومع ان هناك حديثا اورده ابن العربي عن النبي عليه السلام ونقله السيوطي يفيد ان الفاتحة سبع ايات والملك ثلاثون آية فان هذا لم يمنع الخلاف على عدد آيات هاتين السورتين ايضا . وقد قال بعض العلماء ان سبب اختلاف السلف في عدد الايات ان النبي عليه السلام كان يقف على بعض كلمات

من الآيات فيحسب السامع انه يقف على آخر الآية . على ان مما يرد انه يكون ليس في تمييز بعض الفواصل في المصحف العثماني فكان هذا الخلاف في المصاحف التي نسخت عنه وتدوولت . ونتنبه على ان الخلاف في عدد الآيات ليس كبيرا ، وكل ما تناوله دار في نطاق ضيق من نقص آية او آيتين في بعض السور او زيادة آية او آيتين في بعض اخر مثل وصل بعضهم كلمات « طسم وطس » في سور الشعراء والنمل والقصص و« الم» في سورة العنكبوت وغيرها و « الر » في سورة يونس وغيرها و « حم» في سورة فصلت وغيرها وعدها موصولة مع ما بعدها او مفصولة عنه فتكون آية عند من عدها مفصولة ولا تكون كذلك عند من عدها موصولة ، ومثل عد البسملة آية في سورة الفاتحة وعدم عدها ، وعد «صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » في سورة الفاتحة آية عند بعضهم أو آيتين عند بعض اخر .

ونقول في صدد ترتيب نزول السور اننا اطلعنا على عدة ترتيبات . منها ترتيب المصحف الذي اعتمدناه ونعني مصحف قدور أوغلي ، ومنها ترتيب السيوطي استند فيه الى ما اعتمده من الروايات ، ومنها ترتيب في تفسير الخازن وآخر في تفسير الطبرسي ، وثلاثة اخرى أوردها السيوطي في الاتقان منسوبة الى الحسين وعكرمة وابن عباس وجابر . وبين هذه الترتيبات تخالف يسير او كبير ، مع التنبيه على ان مضامين بعض السور المكية والمدنية تسوغ التوقف في ترتيبها الوارد في هذه الترتيبات ، وتحمل على القول انها لا تمثل الحقيقة تمثيلا صادقا ، وانه ليس هناك ترتيب يثبت على النقد والتمحيص بكامله او يستند الى أسناد وثيقة متصلة بالعهد النبوي . فهناك روايات عديدة مختلفة في صفات بعض السور

وبينما يسلك بعضهم سوراً في سلك السور المكية او بالعكس مثل سور الرعد والحج والرحمن والانسان والزلزلة والفلق والناس والاخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاتحة التي تسلكها بعض الروايات في السلك المدني بينما تسلكها روايات أخرى في السلك المكي ، ومثل سور الحديد والصف والتغابن و البينة التي تسلكها بعض الروايات في السلك المكي بينما تسلكها روايات أخرى في السلك المدني . وفضلا عن ذلك فان في القول بترتيب نزول سور القرآن تجوزاً خاصة بالنسبة لبعض السور المدنية حيث تلهم مضامينها ان بعض فصول سور متقدمة في روايات الترتيب قد نزلت بعد بعض فصول سور متأخرة فيه ، وان فصول هذه السور قد الفت تأليفا متأخراً عن نزولها وقتا ما مما ذكرنا بعض نماذجه ونبهنا عليه في بحث سابق . وكل ما يمكن ان يقال في مثل هذه السور ان وضعها في ترتيب النزول كسور تامة بعد سور تامة حقيقة او رواية انما جاء من ان فصلها الاول او فصولها الاولى قد نزلت بعد الفصل الاول او الفصول الاولى من السورة التي قبلها .

ولقد اجمعت الروايات مثلا على ان سور العلق والقلم والمزمل والمدثر هي اوائل السور نزولا على اختلاف في الاولية بينها ، وعند التدقيق تراءى لنا ان هذه الروايات محل نظر ، فالآيات الاولى من سورة القلم احتوت آية « واذا تتلى عليه اياتنا قال اساطير الاولين » والايات الاولى من سورة المزمل احتوت اية « ورتل القرآن ترتيلا » والايات الاولى من سورة المدثر احتوت اية « ان هذا الا قول البشر » والايات التي اعقبت الايات الخمس الاولى من سورة العلق احتوت ايات فيها وصفاً لموقف بعض الطغاة من دعوة النبي وصلاته ، بالاضافة الى حكاية

السور الثلاث الاولى مواقف بعض الكافرين والمكذبين وجدلهم ومكابرتهم والى حملات عليهم فيها بسبب ذلك . فهذا كله يلهم بقوة أنه ينبغي ان يكون قد نزل قبل هذه السور وبعد ايات سورة العلق الخمس الاولى على الاقل قران يصح ان يرتل ، وان يقال عنه اساطير الاولين ، وقول البشر ، وفيه دعوة وانذار عامان وقد تلي على الناس ودعوا الى الله به فوقف الكفار منه موقف الجاحد المعاند فنزلت بقية سورة العلق والسور الثلاث الاخرى تحكي مواقفهم وترد عليهم . ومن اجل هذا خمنا ان تكون سور الفاتحة والاعلى والشمس والعصر والليل وأمثالها مما لا يحتوي الا الدعوة والانذار والاهداف بصورة عامة هي السابقة بالنزول بعد ايات العلق الخمس الاولى ان لم يكن هناك قران نزل ثم رفع يحتوي ذلك ، ويمكن ايراد امثلة متعددة أخرى كثيرة أيضا .

تميز الاسلوب المكي والاسلوب المدني

ونستطرد فنقول ان اسلوب القران يساعد بنطاق غير ضيق على التمييز بين السور المكية والسور المدنية بل الايات المكية والايات المدنية ايضا فالسور المكية اولا تنحو في الاغلب نحو التسجيع والتوازن ، وثانيا تتكثف فيها الدعوة الى الله واثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به وتعنيف الكفار وتقريعهم بسببه ، وثالثا أن اسلوبها المتصل بالدعوة الى المكارم ولاجتماعية والروحية والانسانية وبالتحذير من الاثام والفواحش اسلوب دعوة وحض وتشويق وتنديد وتنويه ، ورابعا أن القصص ومشاهد الآخرة والحديث عن الملائكة والجن وحكاية أقوال الكفار وجدلهم وافتراءاتهم ونسبهم المختلفة للنبي قد كثرت وتكررت ، وخامسا إن وحدة الموضوع في السور الطويلة والمتوسطة فضلا عن القصيرة ملموحة في كل سورة منها تقريبا ، وسادسا إن تلاحق الفصول والسياق جدلا وحكاية وانذاراً وتبشيراً ووعداً ووعيداً وتدعيا وتمثيلا وتذكيراً

وقصصاً وتطميناً وتوجيها وتلقينا وبرهنة ملموح كذلك في كل سورة منها تقريبا وفي السور المكية تبرز مبادىء الدعوة القرآنيه قـوية واضحة ، وتبرز خصوصيات القرآن ومميزاته الاسلوبية والموضوعية بالنسبة إلى الكتب السماوية الاخرى قوية واضحة كذلك ومن مميزات الاسلوب المكي اللهجة الخطابية القوية النافذة الى الاعماق والقارعة للاسماع والقلوب واللهجة التي يذكر بها اليهود خاصة حيث خلت من التقريع والتعنيف والجدل والاخذ والرد ، وتلك الصور الجحودية والازعاجية والتشكيكية والدسية الواردة عنهم فى القرآن المدني واللهجة المحببة الاستشهادية التي يذكر بها الكتابيون وأولو العلم كأنما هم حزب المسلمين والدعوة النبوية والاسلوب المكي يغلب فيه وصايا الصبر والتطمين والتسكين وعدم المبالاة بمواقف الكفار كما انه خلا من الحض على الجهاد ووقائع الجهاد وخلا كذلك من ذكر المنافقين ومواقفهم ودسائسهم والحملات القاصمة عليهم . وواضح ان هذا كله متصل بظروف العهد المكي من السيرة النبوية مما نبهنا عليه في سياق التفسير .

أما القرآن المدني فالسجع فيه قليل بل نادر ، وطول نفس الآيات غالب ، وتقل فيه فصول القصص ووصف مشاهد الاخرة والجن والملائكة والجدل ووصف مشاهد الكون أو تقصر ويكتفي من ذلك بالتذكير والاشارات الخاطفة ، وتصطبغ فيه المبادىء والتكاليف التعبدية والاخلاقية والاجتماعية والقضائية والسلوكية بصبغة التقنين والتقعيد ، وفيه تشريع الجهاد ووقائعه وظروفها ، وفيه إبطال عادات وتقاليد قديمة ، واقرار عادات وتقاليد قديمة اخرى مع الاصلاح والتهذيب ، وانشـاء عادات وتقاليد جديدة في سبيل الاصلاح الاخـلاقي والاجتماعي ، وفيه صور

النفاق والمنافقين ومواقفهم ، ولهجته عن اليهود لهجة شديدة في الدعوة والتعنيف والتنديد وفيه صور عن مواقفهم واحوالهم ، وفيه الاستفتاءات والاسئلة القضائية والاجتماعية والاخلاقية والامروبة وأجوبتها التشريعية وواضح ان هذا كله متسق ايضا مع ظروف العهد المـــدني من السيرة النبوية مما نبهنا عليه في سياق التفسير كذلك .

وعلى ضوء هذه المميزات ومع استلهام المضمون والسياق امكننا ترجيح مكية سور الرعد والحج والرحمن والانسان والزلزلة التي يذكر مصحف قدور اوغلي وغيره مدنيتها ، وأمكننا كذلك ترجيح مكية ومدنية السور القصيرة الاخرى التي اختلفت الروايات فيها ، وترجيح احتمال تقدم بعض السور المتأخرة وتأخر بعض السور المتقدمة ، وترجيح مكية آيات ذكرت الروايات أنها مدنية في سور مكية ومدنية آيات ذكرت الروايات انها مكية في سور مدنية مما نبهنا عليه في سياق التفسير الكامل .

- ١٤ -

الشكل والنقط :

سادسا : شكل المصاحف ونقطها

من الثابت المسلم به أن النقط والشكل على الوجه المستعمل في المصاحف المتداولة قد اخترعا بعد النبي وفي آخريات دور الخلفاء الراشدين أو أواسط دور الامويين على اختلاف في البدء والتطور . ولذلك فإنهما محدثان وليس لهما اصل في المصحف العثماني وماقبله جزما وقد مست الحاجة الى ادخالها على المصحف لضبط القرآن وتيسير قراءته صحيحة وعدم ترك المجال للالتباس . ولا سيما ان المسلمين قد انتشروا في بقاع الارض اكثر من ذي قبل ودخل الاسلام امم وطوائف غير عربية ، وصارت اللغة

العربية تعلم تعليا ولم تبق سليقية، وقد كان من شأن بقاء القرآن بدون إعجام (تنقيط) خاصة أن يلتبس على قارئه في المصحف قراءة الحروف المتشابهة الشكل التي لا يميزها عن بعضها الا النقط مثل ب ت ث ج ح خ دذ رز س ش ص ض ط ظ ع غ كما كان من شأن بقائه بدون شكل أن يلتبس على القاريء غير العربي سليقة تمييز الكلمات المتشابهة الشكل التي لا يميزها عن بعضها الان الا الشكل او كثرة الممارسة وحسب فهم المعنى وتمييز أواخر الكلمات ولا سيما حينما يتأخر الفاعل ويتقدم المفعول مثلاً . ومما لا ريب فيه ان ادخالها على الخط العربي عامة وعلى المصحف خاصة خطوة خطيرة جداً في سبيل الاتقان والاحسان والفهم والتمييز . والمرجح أنهما لم يخترعا كاملين ، وانهما سارا سيراً تطوريا حتى بلغا مبلغهما التام في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

علامات الوقف والوصل :

سابعاً : علامات الوقف والوصل والاداء .

ان ما قررناه في الفقرة السابقة يصح على علامات الوقف والوصل والمد والقصر والسكون فوق الكلمات والحروف القرآنية في المصحف العثماني ، من حيث كونهما محدثة وليست اصيلة في المصحف العثماني ومن حيث قصد ضبط قراءة القرآن واتقان أداء كلماته وحروفه مع التنبيه على انها دون خطوة الشكل والنقط خطورة أولا وأنها قد أحدثت بعدهما على الارجح ثانيا . وننبه كذلك على ان ما نقصده هو وضع العلامات ، وهذا لا يقتضي طبعا أن لا يكون النبي عليه السلام واصحابه قد عنوا بالوقوف على ما ينبغي الوقوف عليه ووصل ما ينبغي وصله والسكوت عندما يجب السكوت ومد ما يقتضي مده وقصر ما يحسن قصره الخ . فلا يصح ان يشك في أن كل هذا قد كان ، وانه متصل

بطبيعة النطق الخطابي والتقريري التي هي من طبيعـــة التلاوة القرانية ومقتضيات أداء معاني القران مما لا يمكن الا أن يكون ، سواء أفي تلاوته من النبي على الناس أم تلاوته من قبل الصحابة ، وسواء أ كان ذلك في الصلاة أم في مجال التلاوة والوعظ والبيان ، فضلا عن ان طبيعة الخطاب والتـلاوة بوجه عـام تقتضي ذلك . والراجح ان الامر القرآني « ورتل القرآن ترتيلا » المزمل ٤ . وهو من أوليات القران نزولا هو في صدد ذلك أو مما استهدفه . وتلاوة القرآن على الأداء المعروف متصلة فيما نعتقد بالسماع خلفاً عن سلف حتى تتصل بالعهد النبوي . وقد جرى الامر على هذا بالتواتر الفعلي السماعي الذي لم ينقطع من لدن النبي عليه السلام. ومما لا ريب فيه أن العلامات وحدها لو لم يكن هذا النقل السماعي المتواتر لا تجزي وحدها ولا تجعل قارىء القران يؤدي دلالاتها على وجهها دون تعليم وسماع . والمعقول ان وضع العلامات كان من قبل أعلام القراء والرواة حينما رأوا أن الحاجة أخذت تمس الى ذلك ، وان بقاء القرآن بدونها قد يؤدي الى اساءة التـلاوة والأداء والانحراف عن الاسلوب الصحيح القويم المتناسب مع طبيعة المفاهيم القرآنية والذي كان يرويه القراء والرواة راو عن راو وقارىء عن قارىء ، على ان المعقول أيضا أن وضعها هو من قبيل التذكير بدلالاتها التي كانت تتلقى سماعا . والراجح أن هذا قد كان كذلك في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

-١٥-

رسم المصحف العثماني :

ثامنا : رسم المصحف العثماني .

ان اكثر العلماء وأئمة القراء قرروا وجوب الاحتفاظ في كتابة القرآن

بالرسم العثماني ، ومنهم من كره كتابته برسم اخر ومنهم من حرمها . ولم نطلع علي أقوال وأحاديث موثوقة متصلة بأصحاب رسول الله في هذا الشأن . ولذلك يصح أن نقول إنها أقوال اجتهادية .

ويبدو ان هذا التشديد متصل بروايات القراءات السبع أو العشر ، وخاصة بما يتصل بالصرف والنحو واجسام الكلمات مثل « ملك ومالك » و « مسجد ومساجد » و « يفعلون وتفعلون » و « فتحت وفتحت » و « أرجلكم وارجلكم » و « تبينوا وتثبتوا الخ مما يقع في وحدة الرسم ، ومتصل كذلك بالقول إن هذه القراءات صحيحة كلها لأنها تقع في نطاق وحدة الرسم من ناحية ومتصلة بالسماع المتسلسل الواصل الى قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن عن النبي من ناحية أخرى بحيث يورد أن شأن كتابة القرآن بغير الرسم العثماني وبالخطوط الدارجة في الادوار التالية أن تحول دون قراءة الكلمات القرآنية بقراءات مختلفة يحتملها الرسم العثماني ومتصلة بقراء الصحابة ، فيكون في ذلك تحكم في تصويب قراءة دون قراءة وإبطال قراءة دون قراءة أو وسيلة مؤدية اليها ، وأن هذا هو ما تحرز منه العلماء والقراء في مختلف العصور تورعا وتدينا وزيادة في التحري في تلاوة القرآن تلاوة قوية صحيحة متصلة بالنبي والذين سمعوا منه وتلقوا عنه .

ومهما يبدو من وجاهة هذا القول ونتائجه ، وخاصة فوائده التي من اهمها ان احتفظت المصاحف خلال ثلاثة عشر قرنا برسم واحد قد كتب وفاقا لما كان يكتب في عهد النبي وباملائه ، وحفظ القرآن بذلك من التحريف والتشويه ، ومن الخلافات التي لا بد من ان تنشأ بسبب تطور الخطوط من وقت لآخر وتبدلها في أدوار لم يكن فيها مطابع ولا تصوير

شمسي ، ومنعت تكرر المأساة التي افزعت عثمان وحملته على توحيد هجاء القرآن وجعل المصاحف بهجاء واحد تنسخ عن الاصل الذي امر بنسخه وتنتشر في مشارق الارض ومغاربها موحدة ، فاننا نعتقد أنه ليس من شأنه أن يمنع جواز كتابة المصحف اليوم بالخط الدارج على شرط مراعاة قراءة من القراءات المشهورة المتصلة بأحد أئمة قراء الصحابة والنص على ذلك في مقدمة المصحف . لأنه لا يوجد نص ثابت متصل بالنبي واصحابه يمنع ذلك فيما اطلعنا عليه ، ولأننا نعتقد أن في هذا تيسيراً واجبا لتعليم القرآن وتعلمه وحسن ضبطه واتقانه . فبين الرسم العثماني والرسم الدارج فروق غير يسيرة فضلاً عن ما بين رسوم القرآن نفسها من تناقض بما سوف نشير إليه بعد قليل مؤه في نفس الوقت الى زيادة التعقيد والتعسير . ومن العسير أن يتعلم القارئ هذا الرسم بالاضافة إلى الرسم الدارج الذي الفه في كتابته وكتبه وقراءاته الأخرى . وبالاضافة الى هذا فان هناك مسلمين وغير مسلمين لا يتيسر لهم تلقي القرآن من قراء مجازين او قراء تلقوا أو قرأوا أو سمعوا من قراء مجازين مما يصعب إتقان تلاوة القرآن برسمه العثماني بدونه ، والمصاحف في متناول جميع الناس على اختلاف الملل والاجناس ، ففي كتابته بالرسم الدارج منع لمغبـــة الغلط في القراءة والتشويه وسوء الفهم والتفسير ، وتيسير واجب لنشر القرآن الذى هو من اهم واجبات المسلمين أيضا ، ولا سيما ان الرسم العثماني محفوظ لن يبيد بما يوجد منه من ملايين النسخ المطبوعة وغـــير المطبوعة والرسوم الشمسية ما فيه الضمانة على بقائه المرجع والامام أبد الدهر ، وقد رأينا للامام المفسر الكبير ابن كثير في كتابه فضائل القرآن وهو من علماء

للقرن السادس قولا يبيح به كتابة المصحف على غير الرسم العثماني وفي هذا توكيد وتوثيق لوجهة النظر التي نقررها.

هذا اولا . وثانيا ان الذي نعتقده ان رسم المصحف العثماني لم يكن ليكون محتملا للقراءات السبع او العشر ، وليس هو توقيفيا عن النبي عليه السلام كما يظن او يقول البعض ، فليس هناك حديث وثيق بل وغير وثيق متصل بالنبي او أصحابه المعروفين يؤيد ذلك ، وانما هو الطريقة الدارجة للكتابة في ذلك العصر ، ولم يكن النبي يقرأ ويكتب ، وإنما كان يملي ما يوحى اليه به على كتابه فيكتبونه وفق ما يعرفونه من طريقة الكتابة . وليس من سبيل الى غير ذلك . وما دامت طريقة الكتابة قد تطورت فان تسويغ كتابة المصحف وفق الطريقة الدارجة طبيعي ايضا وخاصة بعد ان صار الاحتفاظ بالرسم العثماني ليكون المرجع والامام مطبوعا ومحفوظا ومصوراً كما قلنا ممكنا إلى ما شاء الله.

اما التناقض او التباين في رسم المصحف العثماني نفسه فانه في الحقيقة يبعث على العجب والحيرة ، حيث وردت كلمات واحدة أو متقاربة في سور مختلفة بل وأحيانا في سورة واحدة مختلفة الرسم في حين ان كثيرا منها متماثل في مواقع الصرف والنحو واعراب الاواخر والمعنى كما ترى في الثبت التالي مثلا:

لا أذبحنه = لاعذبنه (١) بنبأ = بنبأى (٢) سموات = سموات (٣) بنت = بنات (٤) لشيء = لشاىء (٥) ابن أم = ابنؤم (٦) احسانا =

---

(١) النمل ٢١ (٢) القصص ٣ والانعام ٣٤ (٣) فصلت ١٢؛ والملك ٣ (٤) الصافات ١٥٣ والانعام ١٠٠ (٥) النحل ٤٠ والكهف ٢٣ (٦) الاعراف ١٥٠

احسنا (٧) اصلاح = إصلح (٨) جزاء =جزوأ (٩) نعمت = نعمة (١٠) رحمة = رحمت (١١) قرة =قرت (١٢) أمرأة = امرأت (١٣) سنة = سنت (١٤) جنة =جنت (١٥) لعنة =لعنت (١٦) بقية = بقيت (١٧) بسطة = بسطت (١٨) الايكة = لايكة (١٩)

فهذه المباينات (٢٠) تسوغ القول ان أول ما نسخ وكتب برسم واحد من المصاحف العثمانية مصحف واحد كتبه كاتب املاه عليه قارىء وتعاقب عليه اكثر من كاتب واكثر من قارىء فكتب بعضهم الكلمات في مواضع برسم وكتب بعضهم نفس الكلمات في مواضع برسم اخر ثم نسخت المصاحف الاخرى العثمانية التي ارسلت الى الاقطار عن هذا المصحف حرفيا وان العلم بالكتابة بين الصحابة لم يكن موحداً وان الكتابة والاملاء لم يكن متقنا ، وحتى لو فرضنا ان المصاحف العثمانية كتبت جميعها معا من ممل واحد فلا بد من أن نفرض انه تعاقب على كتابتها آخرون ، ولعله كان في المصحف والمصاحف المتداولة في ايدي المسلمين اذ ذاك اخطاء ومباينات اكثر وافدح في الكتابة والاملاء مما افزع عثمان وكبار الصحابة وحملهم على توحيد الرسم واجتهدوا اجتهادهم

وطه ٩٤ (٧) البقرة ٨٩ والنساء ٣٦ (٨) البقرة ٢٢ والنساء ١١٤ (٦) البقرة ٨٥ والمائدة ٢٩ (١٠) البقرة ١١ و١٣١ (١١) الزخرف ٣١ وال عمران ٧٤ (١٢) القصص ٩ والفرقان ٧٤ (١٣) ال عمران ٣٠ والنساء ١٢ (١٤) الاحزاب ٦٣ وفاطر ٤٣ (١٥) البقرة ٢٦٤ والواقعة ٨٩ (١٦) ال عمران ٨٧ و٦١ (١٧) هود ٨٦ والبقرة ٢٤٨ (١٨) البقرة ٢٤٧ والاعراف ٦٩ (١٩) الحجر ٧٨ والشعراء ١١٦

(٢٠) اكتفينا بمثال لكل مباينة مع ان هناك اكثر من اية في اكثر من سورة فيها بعض التباين ايضا

فلم يستطيعوا ان يتخلصوا من بعض الاخطاء والمباينات ان جاءت غير ذات بال من حيث الجوهر والمعنى ، واذا كان مثل هذه الاخطاء تقع اليوم والمدارس منتشرة والناشئة تتعلم فيها بطريقة موحدة بسبب تفاوت الاتقان والعناية والمران فوقوعها في ذلك العصر الذي لم تكن الكتابة فيه قد وصلت الى تمامها من النضج من باب أولى . وقد فرضنا ان يكون المنسوخ في اول الامر من المصاحف العثمانية مصحفا واحداً تعاقب عليه اكثر من كاتب ثم نسخت عنه المصاحف الاخرى لان هذا الفرض هو الذي يستقيم ويتسق مع وجود تلك المباينات اذ لو نسخت المصاحف جميعها مرة واحدة من قبل عدد من الكتاب لكان تعذر فرض اتحادهم في هذه المباينات التي لا ترجع الى سبب املائي فني كما ان ما فرضناه هو المعقول الذي تطمئن به النفس ويتفق مع طبيعة الامر على ما هو المتبادر

ولقد علق ابن خلدون على هـــذه الظاهرة فقال : كان الخط العربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة . وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم مـا اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله وخير الخلق بعده كما يقتفى لهـذا العهد خط ولي أو عالم تبركا ويُتبع رسمه خطأ أو صواباً . . .

ونحن نعرف ان لعلماء القراءات تخريجات لهذا التباين . ولكن المدقق يجد فيها تكلفاً وتجاوزاً كبيرين لا يبعثان اطمئناناً ولا يوجبان اقتناعاً ولا سيما ان في هذا التباين كما قلنا امثلة لا تختلف عن بعضها نحواً وصرفاً ونظما وموقع جملة ومعنى .

وهناك مسألة أخرى في صدد رسم المصحف العثماني يثيرهـا حديثان أحدهما مروي عن عائشة ووصف بأنه بإسناد صحيح على شرط الشيخين ، وقد روي عن عروة قال سألت عائشة عن لحن (١) القرآن في قوله تعالى « ان هذان لساحران (٢) » « والمقيمـــين الصلاة والمؤتون الزكاة (٣) » و« ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئون (٤) . » فقالت يا ابن اختي هذا من عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب (٥) . وثانيهما عن عكرمـة وغيره جاء فيه انه لمـــا كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال لا تغيروها فان العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها . وقد أنكر بعض العلماء الحديث المنسوب الى عثمان وقالوا ان اسناده ضعيف مضطرب منقطع ، وان عثمان جعل الناس إماما يقتدون به فلا يصح ان يكون قد رأى فيه لحنـاً وتركه لتقيمه العرب بألسنتها وكان أولى الناس بتصحيحه ، كما خرّج علماء اخرون مـــا ظن انه لحن تخريجا نحويا سليما ، ومما قاله الزمخشري في صدد « والمقيمين الصلاة » لا تلتفت الى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف وربما التفت اليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب ومـا لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان ، وغبي عليه ان السابقين الاولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الاسلام وذب المطاعن عنه من ان يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم وخرقا

---

(١) يقصد بالكلمة الغلط الصرفي أو النحوي

(٢) سورة طه ٦٣ (٣) سورة النساء ١٦٢

(٤) سورة المائدة ٦٩

(٥) اي في الكتابة والروايةمن كتاب الفرقان لابن الخطيب ص ١٠٤ والاتقان للسيوطي

يحرفوه من يلحق بهم (١) .

ومع ما في كلام الزمخشري من قــوة خطابية فإننا لا نرى من المستحيل ولا مما لا يتسق مــع طبائع الامور ولا مما ينتقص من قيمة وصحة بل وقدسية المصحف ان يخطيء ناسخ المصحف الاول من المصاحف العثمانية في كتابة بعض الكلمات حيث جاءت مخالفة القواعـد اللغوية القرآنية . وقد رأينا فيما اطلعنا عليه من المصاحف المخطوطة أخطاء عديدة وقع فيها النساخ ومنهم خطاطون بارعون لا يتهمون بقصور في الاملاء منها ما ترك على حاله، ومنها ما شطب عليه وكتب صحيحه فوقه أو بعده أو على الهامش ؛ ومن هذه الأخطاء ما هو اكثر من كلمة أو جزء من كلمة . وكثيراً ما وقع هذا معنا مع اننا كنـا نحرص ان نكتب عن المصحف دون حافظتنا . ولم نطلع عــلى إنكار لحديث عائشة سواء في سنده أو في متنه مثل ما كان بالنسبة لحديث عثمان ، بل رأينا في الاتقان تعليقاً يؤيد صحته ويحاول تعليل ما جاء فيه محاولة غير شافية . ونحن لا نرى في الحديث شيئاً شاذاً وغير متسق مع طبيعة الامور على مـا نبهنا عليه آنفا .

-١٦-

القراءات

تاسعاً : القراءات المشهورة .

ان القراءات المشهورة سبع تنسب الى سبعة أئمة من القراء هم نافع بن أبي رويم في المدينة وعبد الله بن كثير في مكة وابو عمر بن العــلاء في

---

(١) الكشاف الجزء ١ ص ٣٩٧

البصرة وعبد الله بن عامر في الشام وعاصم بن ابي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي الكسائي في الكوفة ، ويضم اليهم احيانا ابو جعفر بن يزيد في المدينة ويعقوب الحضرمي في البصره وخلف البزاز في الكوفة فيبلغون عشرة وتبلغ القراءات عشراً . واربعة منهم تابعون يروى انهم تلقوا قراءاتهم عن قراء من الصحابة والباقون تابعو تابعين تلقوا قراءاتهم على ما يروى عن تابعين تلقوا عن قراء من الصحابة . وكل منهم يروي قراءته عن قارىء صحابي معروف كما ان لكل منهم رواة ولكل من رواتهم رواة الى ان وصل الدور الى عهد التدوين فدونت القراءات وخلافياتها في تعاريف عامة من جهة وفي كل سورة لحدتها من جهة اخرى .

وتدور هذه الخلافيات على الاغلب في النطاق التالي : (١) مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم والميل الى المخارج المجاورة كنطق الصراط بإمالة الصاد الى الزاي (٢) والاداء كالمد والقصر والوقف والوصـــل والتسكين والامالة والاشمام (٣) والرسم كالتشديد والتخفيف مثل « يُغشي يُغشّي » و« فُتِحت وفُتّحت » والادغام والاظهار مثل تذكرون وتتذكرون والهمز ومد الالف مثل « ملك ومالك » و« مسجد ومساجد » لتحمل الرسم النطقين (٤) والتنقيط والحركات النحوية مثل « يفعلون وتفعلون » و« ارجَلكم وارجِلكم » مثلًا .

وقد وضع علماء القراء شروطا اربعة لصحة القراءة الخلافيـــة وهي (١) التواتر بحيث لا تصح قراءة غير القراءة المتواترة والمشهـــورة (٢) وموافقة العربية بوجه ما بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تتفق مع قواعد اللغة (٣) ورسم المصحف العثماني بحيث لا تصح قراءة خلافية مغايرة الرسم المذكور (٤) وصحة سند القراءة بحيث لا تصح قراءة خلافيـة لا تستند

المسند وثيق يتصل بأحد قراء الصحابة . واجتماع الشروط الاربعة شرط لازم بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تجتمع فيها .

على ان هناك ما يمكن ملاحظته في صدد خلافيات القراءات المذكورة فالمقول والمشروط ان ائمة القراء قد اخذوا قراءاتهم سماعا عن قراء من الصحابة ، وان قراء الصحابة قد اخذوا قراءاتهم سماعا عن النبي . ومعقول ان يكون قراء الصحابة مختلفين في القراءة الناشئة عن النطق بالحروف واداثها من ترقيق وتفخيم ومـــد وقصر وامالة واشمام ووقف ووصل وتسكين وتنوين حتى ولو قرأوا قراءاتهم على النبي عليه السلام واجازها لهم على اختلافها في ذلك ، وان يكون سمعها منهم غيرهم من الصحابة والتابعين . ولكن مما يدعو الى التوقف والنظر ان يكونوا مختلفين في القراءة الناشئة عن الرسم والتنقيط من تشديد وتخفيف واظهار وادغام وقراءة المضارع بالغائب أو المخاطب وقراءة بعض الكلمات منصوبة حينا ومجرورة حينا مثل « ارجلكم وارجلكم » ومفردة حينا وجمعا حينا مثل « مسجد ومساجد » واسم فاعـــل حينا واسم عادي حينا مثل « ملك ومالك » ونحو ذلك إلا مع فرض انهم كانوا يقرأون من المصاحف ولم يسمعوها من النبي ، وان هذا كان شأن أئمة القراء التابعين وتابعي التابعين فالنبي لم يكن يتلو من مصحف وكان مـا يبلغه وحيا ، واذا كان يجنح الى التيسير كما يدل عليه احاديث نزول القرآن على سبعة احرف مما سوف نبحث فيه في مناسبة اخرى (١) فان هذا منه انما كان على ما نعتقد بقصد التسهيل على الناس في مخارج الحروف والاداء لان هذا متصل بتكوين آلة النطق البشرية ومتصل كذلك بعادة إخراج الحروف واداثهـا تبعا

---

(١) النساء ٩٤

لاختلاف اللهجات او المنازل العالية والواطئة والحارة والباردة والتي لا معدى من التسهيل فيها وحكمتها واضحة قائمة ؛ وليس في هذا التسهيل تبديل وتغيير في كلمات القرآن وحروفه ونحوه وصرفه . اذ انه ليس مما يحتمل ان يكون النبي قرأ مرة « يفعلون » واخرى « تفعلون » ومرة « تغفر » واخرى « يغفر » ومرة « فتبينوا » واخرى « فتثبتوا (١) » ومرة « ييأس » واخرى « يتبين (٢) » فضلاً عن عـــدم احتمال تبديله الكلمات بغيرها ولو في معناها مما يروى في غير نطاق رسم المصحف العثماني ولا سيما ان الخلافيات في هذه هي اكثر الخلافيات حتى لقد رأينا الزمخشري في كشافه يروي امثلة كثيرة جداً منها . ولعله يستقيم ان يفرض ايضاً ان القراء التابعين كانوا يقرأون على قراء الصحابة من المصحف قراءات مختلفة ناشئة عن تلك الاسباب والعلل الطبيعية وان قراء الصحابة كانوا يحبذونها استئناسا بما كان من تساهل النبي وامره بالتيسير في قراءة القرآن

اما والحالة على ما ذكرنا فان مما يخطر البال سؤال عما اذا كان هناك ضرورة دينية لهذه القراءات المتعددة المختلفة بل والمتباينة حيناً في قطر واحـد . والذي نراه انه ليس هناك من ضرورة دينية لذلك ، وخاصة بالنسبة لجمهور المسلمين ، وانه يكفيهم ان يقرأوا القرآن بقراءة واحدة من القراءات المـــأثورة من مصحف كتب بالرسم الدارج بينهم ، فيه بعض العلامات الضرورية للوقف والوصل والمد والسكوت ونحو ذلك مما تقتضيه هذه القراءة المأثورة بحيث يكون من الميسور للمسلمين وغيرهم - والمصاحف في متناول الجميع - ان يقرأوا القرآن صحيحاً بسهولة

---

(١) الرعد ٣١

(٢) اوردنا هذه الاحاديث وعلقنا عليها في الفصل الرابع من الكتاب البحث السادس

وبسر ، فلا تكون قراءتهم متوقفة دائما على التلقي ، لان ذلك غير ميسور دائما ، ونعتقد انه اذا لم ييسر هذا على هـذا الوجه وقع الحرج من سوء التلاوة وسوء الاداء وتحريف الالفاظ والمعاني .

وليس من بأس الى هذا بل لعله مستحب ان يكون هناك فئة من الهواة بل فئة تنفق عليها الحكومات الاسلامية او المؤسسات الدينية لتظل تتدارس القراءات ويتداولها القراء جيلا بعد جيل فان فائدة ذلك بمثابة الفائدة المستحبة التي نوهنا بهـا في الاحتفاظ برسم المصحف العثماني مطبوعا ومخطوطا ومصوراً فيستمر ذاك كما يستمر هذا قائما ابداً بين جماعة المسلمين في كل قطر من اقطارهم ، مع ملاحظة نراها هامة وهي وجوب عدم الغلو في أداء هذه القراءات وخاصة الفن والمط والترديد مما يخرج القرآن عن قدسيته ويضعف نفوذه الروحي وما يكاد يبدو من القراء انه بسبيل التعالم والانتفاخ اكثر منه بسبيل الرواية قراءات غير القراءة الدارجة العامة في قطارهم .

ولقد قال الامام الطحاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن عبد البر وغيرهم من ائمة الكلام (١) أن القراءات جميعها كانت رخصة في أول الامر لتعسر القراءة بلغة قريش على كثير من الناس ثم نسخت بزوال العذر وتيسر الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة . وفي هذا من الوجاهة ما فيه . ولابن قتيبة كلام يت الى هذا المعنى وفيه من الوجاهة ما فيه حيث قال كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرىء كل قوم بلغتهم – يعني بأدائهم الطبيعي في النطق – فالهذيلي يقرأ الحاء عينا والاسدي يقرأ تعلمون بكسر أوله ، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز . وللطبري كلام وجيه آخر في تقريره

(١) الفرقان لابن الخطيب ص ١٦٧

معنى كتابة المصاحف العثمانية حيث قال ان امير المؤمنين عثمان بن عفان لما رأى اختلاف الناس في القراءة وخاف من تفرق كلمتهم جمعهم على حرف واحد وهو هذا المصحف الامام ، واستوثقت له الامة على ذلك بل أطاعت ورأت فيما فعله الرشد والهداية .

ومع ان المدى الذي انطوت عليه هذه المقتبسات يختلف عن المدى الذي قررناه في هذا المبحث فان فيها فيما نرى ما يمكن الاستئناس به على صواب ما قررناه .

الفصل الثالث

الخطة المثلى لفهم القرآن وتفسيره

تمهيد

لقد شغفت منذ شبابي بالقرآن ، وتذوقت اسلوبه الرائع الحكيم في شتى مواضيعه ودعوته وتوجيهاته وتقريراته ، واطلعت على جملة من كتب التفسير وغيرها من الكتب العربية قديمها وحديثها مما يتصل بموضوع القرآن ومبادئه واهدافه والجدل حوله ، واستظهرت كثيراً من روائعه الجهادية والاخلاقية والاجتماعية والروحية ، وكانت لي منهاجا في ظروف حياتي التعليمية والجهادية ثم تيسرت فرصة السجن في دمشق قبل الحرب العالمية الثانية من قبل السلطات الافرنسية بسبب الثورة الفلسطينية فرغت فيها لنفسي ، ورأيتها سانحة مباركة للاشتغال بالقرآن وخدمته اكثر من ذي قبل ، فحفظته غيبا من جهة وعدت الى قراءة ما تيسر لي من كتب التفسير والكتب القرآنية الاخرى من جهة أخرى ، وألفت كتبي الثلاثة فيها (١) ، فكان لي من ذلك مجال لادامة النظر وإمعان الفكر والتدبر وانتهى بي الامر الى اليقين بأن افضل الطرق لفهم القرآن وتفسيره أن يلاحظ الناظر فيه الأمور التالية مجتمعة :

---

(١) عصر النبي وبيئته قبل البعثة – صور مقتبسة من القران . صدر عام ١٣٦٦ – ١٩٤٧ ، وسيرة الرسول جزان – صور مقتبسة من القران . صدر عام ١٣٦٧ – ١٩٤٨ ونظم القران ودستوره في شؤون الحياة وهو جاهز للطبع

القرآن والسيرة النبوية

اولا ان القرآن سلسلة تامة للسيرة النبوية وتطورها منذ البدء الى النهاية متصل بعضها ببعض ، ومفسر بعضها لبعض : مع ملاحظة الاستدراك الذي اوردناه في اخر الفقرة (٥) من الفصل الاول .

ففي كل سورة من سوره ومجموعة من مجموعاته ، أو فصل من فصوله صورة لموقف من مواقف النبي من سكان بيئته من العرب وغير العرب ومن المشركين والكتابيين ، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته ، أو صورة من صور مواقف النبي من الذين استجابوا للدعوة أو من مواقفهم منه ، أو من مواقف الكفار منهم أو مواقفهم من الكفار أو صورة لتطورات جميع هذه المواقف ، دعوة وتبياناً وبرهنة وتدليلا وعظة وتنبيهاً وتبشيراً وإنذاراً ، ووصفا وتشبيهاً وقصصاً وأمثالا وترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيداً ، وجدالا وتحديا وعناداً ومكابرة واستكباراً واذى ، وتنديدا وتنويها وتسلية وتثبيتا وتطمينا وتصبيراً ، وسؤالا وجوابا وجهادا وتشريعا الخ ، وكل صورة معطوفة على صورة سابقة او مرتبطة بصور لاحقة ، في اتساق وانسجام تامين وضمن نطاق واحد مما يتضح لكل من يمعن النظر في القرآن ويقرأ سورة خاصة وفق تتابع النزول بقدر الامكان .

وملاحظة ذلك مهمة جدا في فهم مواضيع القران وتقريراته ومداه وروحه وفي جعل الناظر فيه لا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، ولا يتورط في التخمينات والتزيدات والجدليات وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحمله . وتوضيحا لذلك نقول ان في القران مثلا ما يفيد أنه جرى تبديل بعض الآيات ببعض وانه نسخت بعض ايات أو أمور مأمورة

بغيرها كما يدل على ذلك ايات النحل ٩٨ - ١٠٥ والبقرة ٩٨ - ١٠٥ ، وفيه ما يفيد ان احكاما وأوامر وتشريعات عدلت او نسخت او تطورت كما تدل على ذلك ايات الانفال ٦٥ - ٦٦ والمجادلة ١٢ - ١٣ والنساء ١٥ ١٦ والنور ٢ ، وفيه تنوع في الخطاب للناس عامة مسلمين وغير مسلمين ، سواء أكان ذلك في صدد الدعوة ام في صدد المواقف أم في صدد التبشير والانذار والتمثيل والتشريع والهداية والضلال والكفر والايمان والاحسان والاساءة حيث يكون الخطاب شديداً مؤنساً حينا ولينا مؤملا حينا ، وجانحا حينا الى تقرير كون الهداية والضلال والكفر والايمان والاحسان والاساءة من مكتسبات المرء بما اودعه الله فيه من المواهب والقوى الاكتسابية والتمييزية وتقرير عودة التبعة فيها عليه حسنة أو سيئة من اجل ذاك ، وجانحا حينا الى تقرير كون ذلك من تقديرات الله الحتمية التي لا ينفع فيها انذار ولا تبشير مما هو منبث في مختلف السور والفصول القرآنية ، وفيه تقريرات شديدة ومونسة بالنسبة للكفار والمنافقين كما جاء في ايات يس ٨ ١٠ والبقرة ٦ ٧ بالنسبة الاولين والبقرة ٨ ١٨ والنساء ١٣٧ - ١٤٣ والمنافقون ٢-٦ بالنسبة للاخرين فيها جزم بمصيرهم الرهيب المحتوم من عدم الايمان واستحقاق الخلود في النار مع ان كثيرا منهم بل اكثرهم قد امنوا وحسن إيمانهم وتبدل مصيرهم الى الثواب والنعيم واستحقوا التنويه والثناء ، ونزل في صدد ذلك ايات قرانية اخرى كما جـــاء في ايات الانفال ٢٥ والنحل ١١٠ والفرقان ٧٠ - ٧١ الخ وقد كانت هذه الامور وما تزال مثار جدل وحيرة حول ما اذا كان يصح على الله المحيط بما كان ويكون والازلي العلم والارادة البداء اي الرجوع عن ما انزله وقرره وأمر به وأراده ونسخه وتعديله

وتبديله وتنويع مفهوم الاحتمالات والنصوص فيه ، في حين ان ملاحظة صلة الوحي القرآني الوثيقة بالسيرة النبوية واحداثها على تنوع صفحاتها وظروفها تجعل الناظر في القرآن يندمج في الوقائع والمقتضيات . ويجد ان الفصول القرآنية ، انما كانت تنزل حسب حوادث السيرة وظروف الدعوة ، وانه لما كانت هذه الحوادث والظروف عرضة التطور والتبدل والتنوع فانها تجعله يرى الحكمة واضحة في التبديل والتعديل والنسخ والتنويع والشدة واللين في الخطاب ، وتجعله يرى ان الجدل في ذلك النطاق لا محل له ولا طائل من ورائه ، لان التطور والتنوع في الاحداث والظروف والأذهان متسقان مع طبائع الامور ونواميسها التي فطر الله الكون عليها فلا بدع ان تقتضي حكمته ان يكون ذلك في التنزيل القرآني اتساقا مع هذه الطبائع والنواميس . والمدقق في آيات القرآن التي تفيد ذلك يجد القرآن يورد التقريرات المقتضية حسب الاحداث والظروف وتنوعها وتطورها على اسلوب الحكيم ، فلا يدخل في نقاش جدلي الا بمقدار الضرورة المتناسبة مع الموقف الواقعي ، فيعلمنا بذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن وروحه ومداه وظروف تنزيله وتنوعه وأسلوبه ، وكون المهم فيه هو الاصلاح والتوجيه الى خير الوجهات لظروف قائمة وأذهان وفئات ومواقف متفاوتة ومتنوعة ومتطورة ، وينطوي ذلك في الوقت نفسه على التلقين والتوجيه المستمرين الى الآماد التالية بما يرشح القرآن للخلود والشريعة القرآنية الاسلامية للعمومية والابدية :

— ٢ —

القرآن والبيئة النبوية

وثانيا ان الصلة قائمة ووثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبي وعصره

من تقاليد وعادات وعقائد وافكار ومعارف وبين البعثة النبوية والسيرة النبوية ، وبالتالي بين الوحي القراني وبين ما كانت عليه هذه البيئة .

وهذه الصلة واضحة اولا من جهة ان الدعوة النبوية والوحي القراني بوجه عام انما اقتضتها حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس – وأهل بيئة النبي في مقدمتهم وهم المخاطبون الاولون – قبل البعثة من ضلال في فهم كمال صفات الله ونزاهته عن الشريك والولد واستغنائه عن الولي والمساعد ومطلق تصرفه في كونه ، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع . الاتجاه ووجوب نبذ ما سواه ، ومن انحراف عن طريق الخير والحق والعدل والفضيلة ومن اختلاف عظيم في المذاهب والعقائد والطقوس ، سواء في ذلك كله العرب وغيرهم ، والكتابيون والمشركون ، ثم بسبب ان ذلك ناشيء عن ما كان من تقاليد وعادات وافكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم .

وثانيا – من ما احتواه القران من فصول الجدل والتنديد والتقريع في صدد هذه التقاليد والعادات والافكار والمعارف والاهواء والتأويلات والمفاهيم التي احتوى القران اشارات كثيرة الى كثير من صورها المتنوعة ، وربط بينها وبين مواقف العرب والدعوة النبوية .

يضاف الى هذا المظهر القرآني العام نصوص قرآنية خاصة (١) في هذا

---

(١) اقرأ مثلا الايات التالية : البقرة ٨١ – ٨٥ و ١٠٧ – ١١٦ و ١٢٥ – ١٢٩ و ١٥٨ – ١٨٩ و ١٩٧ ـ ٢٠٣ و ٢١٩ ـ ٢٤٧ و ٢٧٥ ـ ٢٨٣ وآل عمران ٥٩ ـ ٦٠ و ٧٧ - ٧٨ و ٩٣ – ٩٧ والنساء ٢ – ١٢ و ١٩ – ٣٤ و ١٥٢ - ١٦١ والمائدة ١ – ٥ و ١٢ - ١٩ و ٧٢ – ٨٠ و ٩٠ – ٩٧ - و ١٠١ ـ ١٠٤ والانفال ٣١ والنحل ٦٤ ولقمان ٢١ والقصص ٥١ ـ ٥٣ والشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧ و ٢١٠ – ٢١٢ ، ٢٢١ – ٢٢٣ ويوسف ١١١ وفصلت ٣ .

المعنى وردت في مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تمعن القارىء فيها ظهرت له هذه الصلة ظهوراً جليا . ونزيد في ايضاح ذلك بالامثلة التالية :

١ - في القرآن توكيدات بعدم جدوى الشفاعة والشفعاء عند الله الا باذنه ورضائه ، وتنديدات باعتذارات المشركين عن عبادتهم لشركائهم واتجاههم إليهم في الدعاء والتضرع بأنهم إنما يتخذونهم شفعاء ووسائل قربى الى الله ، وقد كثرت في هذا الباب بما يدل على رسوخ هذا المفهوم في أذهان المشركين في بيئة النبي وعصره قبل البعثة .

٢ - إن آيات القرآن الواردة في طقوس الحج تفيد صراحة حينا وضمنا حينا آخر أنها كلها أو جلها قد كانت ممارسة قبل البعثة النبوية فأقرت في الاسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية ، مع ان فيها ما لا يمكن فهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار واستلام الحجر الاسود وتقبيله الخ فهذه الآيات متصلة بتقاليد الحج العربية قبل الاسلام ورسوخها وأهدافها، وفيها مظهر ما لوحدة العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم حيث كانوا جميعهم يشتركون في الحج ومواسمه وتقاليده وحرماته واشهره الحرم ، وحكمة إقرارها في الاسلام منطوية في ذلك الرسوخ من جهة وما كان له من فائدة وأثر في الوحدة المذكورة التي كان القرآن يدعو اليها من جهة ثانية ولعل قصد تأنيس العرب بالدعوة الاسلامية مما ينطوي في تلك الحكمة ايضا .

٣ - ليس في القرآن المكي حملات عنيفة على اليهود الذين كان يسكن منهم في الحجاز جاليات كبيرة ، واكتفي فيه بذكر قصص موسى وفرعون وبني اسرائيل الاولى مستهدفا بذلك ما استهدف بذكر قصص

الانبياء الاخرى ، وقد جاءت تلك القصص باسهاب أوفى مما جاءت هذه مما يمكن أن يكون الحكمة فيه وجود تلك الجاليات الكبيرة وصلتها الوثقى بالبيئة الحجازية العربية وسكانها . ولقد احتوى القرآن المكي آيات كثيرة فيها استشهاد بأهل الكتاب على صحة رسالة النبي باسلوب يفيد انهم شهدوا ويشهدون بذلك (١) ، وتحمل في ثناياها تنويها بهم ، وتقرير الاتساق بينهم وبين الدعوة القرانية والمستجيبين اليها ، هذا في حين أن القران المدني احتوى حملات شديدة لاذعة على اليهود ووصف سوء أخلاقهم ودسائسهم ومكائدهم ، ووصل حاضر هذه الاخلاق بأخلاق الآباء . فهذا متصل بدون ريب بحالة قائمة في البيئة النبوية وظروفها . فانه لم يكن لليهود في مكة كتلة ذات مركز قوي وراسخ في حين كان لهم ذلك في المدينة ، ولم يقع بينهم وبين النبي في مكة بسبب ذلك احتكاك وتشاد في حين أن ذلك قد وقع في المدينة بسبب ما كان لهم في المدينة من كتلة قوية وقدم راسخة ومصالح حيوية ومركز ممتاز مما احتوت الايات القرانية وصفا لذلك .

ومن الممكن إيراد أمثلة كثيرة من هذا النوع الذي يبين صلة ما كانت عليه بيئة النبي بالبعثة النبوية والسيرة النبوية والتنزيل القراني . وقد اكتفينا بهذه الامثلة ونبهنا على أمثالها الكثيرة في سياق التفسير .

فملاحظة هذه الصلة مهمة جداً كسابقتها في فهم مواضيع القران وتقريراته وروحه ومداه ، وفي جعل الناظر فيه يندمج في الوقائع

---

(١) لاحقاف ١٠ والانعام ١١٤ والرعد ٣٦ والشعراء ١٩٧ والقصص ٥١ - ٥٣ والعنكبوت ٤٧ .

ومقتضياتها ، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، أو يتورط في الجدل والتزيد وتحميل العبارات القرانية ما لا تتحمله وما لا طائل من ورائه .

- ٣ -

اللغة القرآنية :

ثالثا : إن لغة القرآن في مفرداتها وتراكيبها وإصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي لغة البيئـــة النبوية ومنها مألوفة ومفهومة الفة وفيها تأمين من اهلها .

وليس الذي نعنيه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهيه في بعض الاذهان ولكن الذي نعنيه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر في القرآن لانه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القران وأساليبها وامثالها وتعبيراتها واستعاراتها ومجازاتها من جهة ، وكون القران من جهة ثانية قد وجه أول ما وجه إلى الناس ألفوا لغته كل الالفة وفهموها كل الفهم ، ووصلوا في عقولهم ومعارفهم وبيانهم ودقة تعابيرهم وبلاغة أســـاليبهم وفصاحة ألسنتهم ، والاستمتاع بتنوع أشكال الحياة المادية والمعاشية ، والنفوذ الى المفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والدينيه والعلمية والادبية إلى درجة غير يسيرة من الرقي متناسبة مع ما عبرت عنه واشارت اليه وتضمنته لغة القران ، مما هو نتيجة لازمة لكون القران انما نزل بلسانهم ، وكون لغة القوم هي اصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والاجتماعية والدينية (١) . ثم نعني بالاضافة الى هذا ان ينتفي من ذهن الناظر في القران المعنى الذي حلا لبعضهم ان ينوه به وهو انطواء بعض حروف القران وكلماته بل وبعض

(١) في عصر النبي وبيئته قبل البعث بحوث مستفيضه في كل ذلك مقتبسة من الآيات القرانية .

جد وتعابيره وصور سبكه ونظمه على اسرار وألغاز ومعميات وكذلك المعنى الذي قرره بعضهم من علو طبقة اللغة القرانية عن افهام سامعيها اطلاقا دون استثناء ، والمعنى الذي قرره بعضهم من ان لغة القران قد احتوت او قصد ان تحتوي جميع لهجات ولغات العرب القديمة والحديثة مع لغات الامم الاخرى .

ففي الاتقان للسيوطي فصول عديدة تشير الى هذه المعاني ونذكر خاصة منها الفصل السابع والثلاثين كما ان كثيراً من الكتب الموضوعة عن القران وتفسيره قد احتوى تقرير هذه المعاني ايضا وفي الاقوال الواردة في تلك الفصول وهذه الكتب المروية او الصادرة عن علماء قديمين كثير من التكلف والتزيد والتجوز والتخمين والتورط ان لم نقل التخريف

ولقد جاء فيما جاء في فصول الاتقان نقلا عن كتاب الارشاد للواسطي في صدد تعدد اللغات التي احتواها القرآن أن في القرآن خمسين لغة وهي لغات قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج واشعر وغير وقيس وعيلان وجرهم واليمن وازدشنوءه وكنده وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبني حنيفة وتغلب وطي وعامر بن صعصعة والاوس ومزينة وثقيف وجذام وبلي وعذره وهوازن والنمر واليمامة ومن غير العربية الفارسية والرومية والنبطية والحبشية والبربرية والسريانية والعبرانية والقبطية . . ولو عرف القائل قبائل عربية وأمما غير عربية أخرى غير الذي ذكره لاوردها أيضا . . وزاد غيره تفريعا فقال إن فيه من لغة بلي لغات الطائف وثقيف وهمدان ونصر بن معاوية وعك وليس هذا كل ما قيل وانما هو اوسع مما قيل فان في فصول الاتقان أقوالا

كثيرة في هذا الباب . وكلام القائلين ليس هو من قبيل تقرير ما قد يكون معقولا وصحيحا من أن لغة القران التي هي لغة قريش متطورة مع الزمن عن لغات العرب قبل نزوله ، ومن أن في القران الفاظا معربة عن اللغات الاجنبية أعلاما وغير أعلام دخلت على اللغة العربية القرشية وجرت مجراها وصارت جزءاً منها قبل نزوله كذلك ، بل بقصد تقرير ان ذلك التعدد واقعي وانه إنما كان أولا بسبب أن القران حوى علوم الاولين والآخرين ونبأ كل شيء فلا بد من أن تقع فيـــه الاشارة الى أنواع اللغات والالسن لتتم إحاطته بكل شيء فاختير له من كل لغـــة اعذبها واخفها واكثرها إستعمالا وثانيا بسبب انه امتاز عن غيره من سائر الكتب المنزلة فنزلت هذه بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ولم تدخل فيه لغة من لغات غيرهم في حين ان القران احتوى جميع لغات العرب والعجم وثالثا بسبب ان النبي محمداً عليه السلام مرسل الى كل امة وقوم وقد قال الله « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فلزم ان يكون في الكتاب المنزل عليه شيء من لسان كل قوم وإن كان اصله بلغة قومه هو .

وجميع هذه المعاني لا تصح في حال . فمن ناحية علو طبقة القران عن اسماع الناس وافهامهم او انطواء حروفه وكلماته على اسرار والغاز ومعميات فان في القران نصوصا حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على انه انزل بلسان مبين اي واضح مفهوم وان اياته قد فصلت تفصيلا ، وانه انزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويحلون به ما يختلفون فيه كما انه كان موجها الى كل طبقة من اهل بيئة النبي عليه السلام يحكي كلامهم وأسئلتهم ويرد عليها مجيبا او منددا او مكذبا او ملزمـــا او واعظا او مشرعا او فيهذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني . وهذ افضلا

عن انها غير متسقة مع مهمة النبي المكلف بمخاطبة مختلف الطبقات والأمور بتبليغ ما انزل اليه من ربه لهم والذي كان يتلوه على الناس كافة من مختلف الفئات في جميع ظروف سيرته الشريفة في عهديها المكي والمدني وانها غير متسقة مع كون القران هدى الناس كافة يؤمرون باتباع ما انزل فيه وتدبر اياته والتروي في احكامه ومحتوياته ، ويقال لهم فيه انه مرجعهم في مختلف شؤونهم ، ومنه يستمدون تشريعهم واخلاقهم ونذرهم وبشائرهم وحلول مشكلاتهم الخ . ومن ناحية احتواء القران مختلف لهجات ولغات الامم عربها وعجمها وقديمها وحديثها على المقصد الذي شرحه القائلون فانه لا يتسق في حال مع نصوص القران المطلقة والمتعددة بانه انزل بلسان عربي وجعل لسانا عربيا وانه انزل بلسان النبي العربي القرشي ولا مع نص الحديث البخاري في صدد نسخ المصاحف في عهد عثمان الـــذي احتوى تقريراً صريحاً بأنه إنما انزل بلغة قريش .

ومن هذا الباب ما قيل حتى أصبح مستفيضا وحجة خطابية حاضرة من ان الله كما ارسل موسى في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع بمعجزة تشبه السحر وليست سحراً فغلب الساحرين ، وأرسل عيسى في ظرف ارتقى فيه الطب وشاع بمعجزة تشبه الطب فأتى بما يعجز الطب والاطباء فانه أرسل محمداً بالقران فائقا على بلاغة البلغاء في ظرف كانت سوق الفصاحة فيه رائجة ، وبلاغة الكلام فيه قد وصلت إلى أعـــلى الذرى نظما ونثراً فقصر عنه البلغاء والفصحاء وكان فيه معجزته . فهذا القول مع ما في ارتقاء السحر وشيوعه والطب الى اعلى الذرى في عهدي موسى وعيسى من محل نظر وتوقف – يعني ان القران قد قصد به ان يكون معجزا في فصاحته وبلاغته اللغوية والنظمية والفنية كأنما هو معلقة من

معلقات الشعر الخالدة ، أو قد قصد به أن يكون أعلى من مستوى افهام الناس وبلاغة بلغائهم . وهذا لا يصح في اعتقادنا علـــى ما ذكرناه آنفا والقرآن يقرر الله «إن هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين »(١) وهذا بلاغ للناس ولينذروا به »(٢) «وإن هذا القرآن يهدى التي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ». وان الذين لايؤمنون بالاخرة اعتدنا لهم عذابا اليما(٣) وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (٤) وانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا (٥) وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٦) وأنزلنـا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون (٧) وانا انزلنا الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها(٨) الخ

يضاف إلى هذا ان القرآن في لغته وسبكه وأساليبه واصطلاحاته ومفهوماته واشاراته ليس مغلقا أو غامضا أو معقداً أو صعبا على متوسط الافهام والاذهان ، وأنه كان يفهمه مختلف أوساط العرب حضرهم وبدوهم بل والمستعربون المقيمون في الحجاز أو الوافدون على النبي عليه السلام من البلاد المجاورة من عرب ومستعربين ايضا . ففي القرآن آيات كثيرة تشير إلى أن النبي كان يتلو ايات القران على مختلف طبقات الناس كما جاء في ايات الكهف ٢٧ والنمل ٩٢ والعنكبوت ٤٥ والاحقاف ٢٨-٣٠ والجن ١ مما هو متسق مع مهمته ، وان منهم من كان يقول « إن هـذا

---

(١) يس ٦٩ – ٧٠

(٢) ابراهيم ٥٢ (٣) الاسراء ٩ – ١٠ (٤) الاسراء ٨٢ (٥) مريم ٩٧

(٦) النحل ٦٤ (٧) النحل ٤٤ (٨) الزمر ٤٢

الا قول البشر وان هذا الا أساطير الاولين «وقد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا» ولقد تكرر في القرآن المكي والمدني الاشارة الى اهل الكتاب وأهل العلم وفي بعض الآيات ما يفهم أن من هؤلاء من جاء خصيصا ليجتمع بالنبي ويستمع للقران وقد كان منهم من تفيض عيونهم من الدمع ويخرون خشعا سجداً من تأثير ما يسمعون منه ويعلنون ايمانهم وتصديقهم به (١) مما يلهم أنهم كانوا يسمعون كلاما يفهمونه مع انهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الشام أو الحبشة حسب ما اوضحته الروايات ، كما ان اليهود الاسرائيليين والنصارى غير الحجازيين والذين يمتون او يمت اكثرهم الى اصول غير عربية والذين كانوا متوطنين في مكة والمدينة كانوا ممن وجهت اليهم الدعوة وكان القرآن يتلى عليهم ويفهمونه وقد اندمجوا في ظروف السيرة النبوية ايجابيا وسلبيا .. واذا كان يبدو اليوم فيه شيء من ذلك أو اذا كان بدا فيه شيء من ذلك منذ قرون عديدة سابقة او اذا كان يبدو فيه اليوم وقبل اليوم كذلك مفردات غريبة على الاسماع والمألوف فان هذا كله انما نجم عن بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه وجو لغته وجو البيئة التي نزل فيها من جهة ، وعن ما طرأ على اللسان العربي من الفساد من جهة ، وعن ما كان من اندماج كثير من غير العرب في العروبة ولغتها وتعلمها تعلما لا يمكن ان يقوم مقام السليقة الاصلية في بنيها الاصليين من جهة

ولقد احتوى نصوصاً كثيرة تقرر المرة بعد المرة ما هو عليه من وضوح وإبانة وإحكام وتفصيل ويسر فهم وسهولة إدراك في معرض

---

(١) اقرا ايات المائدة ٨١-٨٤ والاسراء ١٠٧ -١٠٩ والقصص ٥٢ — ٥٥ مثلا

التنديد بالمكابرين والجاحدين والجادلين (١) وهذا إنما هو ملزم مفحم لان اللغة التي يسمعونها واضحة بينة مما ألفوه كل الالفة وليس فيها غموض ولا تعقيد وإشكال ، ولا علو عن الافهام لا من ناحية النظم والسبك واللغة ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة .

ونريد أن نستدرك شيئاً . فاننا لسنا نعني بما نقرره أننــا نشك في إعجاز القرآن وعلو طبقته اللغوية والنظمية كما ان كلامنا لا يقتضي ذلك فاعجاز القرآن لا يحتمل شكاً ، فهو مقرر في القرآن وثابت فعلا بعجز أي كان عن الاتيان بمثله أوبشيء من مثله رغم تكرر التحدي ، والايمان بذلك واجب ، وعلو طبقته بارز بروزاً في غنى عــن التدليل ، ولم يبق العلماء الثقاة في تقرير ذلك محل زيادة لمستزيد غير ان الــــذي نعنيه أن اعجاز القرآن وعلو طبقته وروعة أسلوبه لا تقتضي أن يكون أعلى من مستوى أفهام العرب الذين خوطبوا به ووجه اليهم ، ولا أن يكون أبعد من متناول إدراكهم ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم ، ولا أن يكون قــد قصد به أن يكون معجزاً في بلاغته اللغوية والنظمية والفنية ، والفرق كبير بين المعنيين كما هو واضح فيما يتبادر لنا . ولعله مما يصح أن يذكر في هذا المقام عــلى سبيل التمثيل والتقريب - ولله ولكتابه ونبيه المثل الاعلى - كاتب ذو اسلوب راق شائق قوي النفوذ يجعله في الطبقة الاولى أو ذروتها في حــين يكون سهل التناول غير غامض ولا معقد ، يستطيع ان يسيغه مختلف القراء واواسطهم ، بل وان هذا الاسلوب ليكون دائمـــا أحسن الاساليب

(١) النساء ٨٢ والانعام ١٥٥ -١٠٧ وهود ١- ٢ ويونس ١ -٢ والحجر ٩ والنور ١ والشعراء ١-٢ والفرقان ١ والنمل ١-٢ والعنكبوت ١ ،١-٢ مثلا

وافصحها وهو الذي يسميه البيانيون بالسهل الممتنع . هذا عـدا عن أن إعجاز القران فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه واسلوبه الغريبين فحسب بل هو أيضا من ناحية روحانيته النافذة الباهرة التي تنفذ الى اعماق عقل الانسان وقلبه وروحه ، ونعتقد ان لهذا الاعتبار الاول في اعجازه ، وان التحدي وتقرير عدم إمكان الاتيان بمثله أو بشيء من مثله إنما هو « القران » - وهذا هو التعبير الذي استعمل في القران - الذي كما هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة قوية نافذة باهرة في مداها ومضمونها وشمولها وسعة أفقها وروحانيتها التي وصف أثرها القران نفسه بهذا الوصف :

١- لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ... الحشر ٢١

٢ - الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ... الزمر ٢٣

٣ - وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. الاسراء ٨٢

ثم التي وصف اثرها القرآن في اهل العلم والنية الحسنة من الكتابيين بهذا الوصف القوي النافذ :

١ - واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنـا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع ان يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين المائدة ٨٣ - ٨٤

٢ - والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ... الرعد ٣٦

٣ - قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبـله اذا

يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون الأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا . .

الاسراء ١٠٧ - ١٠٨

٤ - واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا . . القصص ٥٣

ولعل من الدلائل على ان لغة القرآن ولغة بيئة النبي شيء واحد - ونعني المفردات والمصطلحات والتراكيب - حكاية القرآن لكلام الكفار وغير الكفار وردّه عليهم ، والاحاديث الكثيرة جداً الواردة عن النبي واصحابه التي لا فرق بين لغتها ولغة القرآن ؛ بل ولقد رويت احاديث تذكر ان بعض الصحابة والكفار قالوا كلاما بعينه فنزل القرآن بنفس النظم الذي صدر عنهم منها :

١ - حديث روي عن عمر بن الخطاب انه قال لنساء النبي حينما تآمرن على النبي بسائق الغيرة : عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيراً منكن

٢ - حديث بخاري مروي عن زيد بن أرقم انه سمع عبد الله بن ابيّ يقول « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله » ويقول « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الاذل » . . .

وآيات سورة المنافقون ٧-٨ وسورة التحريم ٥ قد احتوت هذه النصوص كما هو معلوم .

ونحن نرى هذا بديهيا ومن تحصيل الحاصل ، ولكنا اثبتناه لان فكرة أن هناك فرقا عظيما بين لغة القرآن ولغة اهل بيئة النبي وان تلك اللغة أعلى من مستوى افهام هؤلاء قوية الرسوخ .

ومما يقوم شاهداً قرآنيا على هذا الذي نقرره في هذه النقطة خاصة ما جاء في بعض الآيات من حكاية لأقوال الكفار في القرآن مثل « ان هذا

إلا قول البشر (١) » و « قالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا (٢) .. » و« قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا إلا أساطير الاولين (٣) .. » فهذه النصوص تتضمن قرائن حاسمة على ان سامعي القرآن وخاصة الطبقة المتزعمة والنبيهة التي كانت تتولى كبر المعارضة وقيادتها كانوا يسمعون كلاما يفهمونه كل الفهم بجميع دقائقه ، لا يعلو عن افهامهم ولا يبعد عن مألوفاتهم ويرونه شبيها بأقوال الناس بل ويضعونه بأنه كذلك . .

ونريد كذلك ان ننبه على نقطتين اخريين :

فاولا ان ما قلناه من فهم المخاطبين العرب على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم القرآن لا يقتضي ان يكون متناقضا مع ما هو مقرر بصورة حاسمة من ان لغة القرآن هي لغة قريش، فالقرآن وجه أول ما وجه اليهم والى القبائل والمدن الحجازية كما جاء في آيتين متماثلتين في سورتي الانعام والشورى وهما :

١ – وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها . . الانعام ٩٢

٢ - وكذلك أوحينا اليك قرانا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها الشورى ٧

على ان لغة قريش من جهة اخرى كانت إجمالا في عهد البعثة النبوية لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم أو على الاقل مفهومة من العرب جميعهم بسبب ما كان من اشتداد التحاك بين قريش وسائر العرب في مواسم الحج التي كان يشترك فيها العرب جميعهم والتي كانت تقام قبل البعثة النبوية بمدة طويلة وبسبب وحدة الاصل من حيث المبدأ . ولعل في آية الشورى الآنفة الذكر خاصة دلالة او قرينة على ذلك حيث وصفت

(١) المدثر ٢٥ (٢) الفرقان ٥ (٣) الانفال ٣١

القرآن بالعروبة مع إشارتها الى مهمة الرسول في إنذاره مكة ومن حولها وقد وصف القرآن بهذا الوصف في ايات مكية عديدة اخرى كما ترى فيما يلي

١ - إنا أنزلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون . . يوسف ٢

٢ - وكذلك أنزلناه حكما عربيا الرعد ٣٧

٣ - نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . . الشعراء ١٩٢ - ١٩٥

٤ - ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون . . الزمر ٢٧ - ٢٨

٥ - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون فصلت ٣

٦ - إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . . الزخرف ٣

مما يدعم النقطة التي قررناها . وكذلك مما يدعمها ان القرآن وصف غير العربية بالاعجمية كما ترى فيما يلي :

١ - ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه رجل لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين . النحل ١٠٣

٢ - ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي فصلت ٤٤

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية كانت حينما تطلق تشمل لغة العرب جميعهم ، وانه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن وان لغة قريش التي هي لسان النبي الذي ذكر القرآن ان الله قد يسر القرآن به أي لغته كانت هي لغة العرب جميعهم .

وثانيا - ان ما قلناه من ان كل كلمة في القرآن كانت مفهومة من العرب على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضي أن يكون مناقضا لما هو

طبيعي فرضا وواقعا وبديهة من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها إلا الفئات الخبيرة النيرة منهم بل ومن وجود كلمات قد لا يكون سمعها أو قد يجهلها بعض افراد من هذه الفئات نفسها ، ومن وجود أفراد قليلين أو كثيرين او قبائل برمتها تجهل المعنى الحرفي لقليل او كثير من مفردات القرآن بل ومن بعض تعابيره كذلك . وهذه الظاهرة مشاهدة ملموسة في كل ظرف وقطر ومن كل فئة بما فيها الفئات المتعلمة ومع ذلك فمن المشاهد الملموس ان الناس على اختلاف فئاتهم وثقافاتهم وخاصه أواسطهم لا يعييهم ان يفهموا ما يقرأونه من رسائل وكتب وصحف ويسمعونه من خطب وإذاعات . وطبيعي أن العرب في عصر النبي وعهد بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن نطاق هذه الظاهرة : واذا روي عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات القرآنية فلا يكون في ذلك غرابة ما بقطع النظر عن صحة الرواية متنا وسنداً

ومن هذه البيانات تتجلى فائدة الملاحظة التي هي موضوع البحث الاصلي مهما بدت البعض بديهية ، حيث تجعل الناظر في القرآن يندمج في جو لغته وأساليبه واصطلاحاته التي هي لغة عهد نزوله وأساليبه واصطلاحاته ولغة ظروف هذا العهد فينجلي له كثير من الامور والمعاني على وجهها وحقيقتها ، ولا ينجر الى معان ومدى ومفهومات وتزيدات وتكلفات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأساليبه ودلالاته وظروف نزوله ومهمة من أنزل عليه .

– ٤ –

القرآن أسس ووسائل

رابعا – ان محتويات القران نوعان متميزان وهما الاسس

والوسائل ، وان الجوهري فيه هو الاسس لانها هي الـــتي انطوت فيها اهداف التنزيل القرآني والرسالة النبوية من مبادىء وقواعد وشرائع واحكام وتلقينات مثل وحدة الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد واتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق التصرف في الكون واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ونبذ كل ما سواه والقيام بالواجبات التعبدية له ، ومثل المبادىء والامر والنواهي والتشريعات والاحكام والتلقينات الكفيلة بصلاح الانسانية وطمأنينتها والتعاون الاخوي التام بينها أفراداً وجماعات وسلبية وايجابية واخلاقية واجتماعية وسياسية وحقوقية وسلوكية واقتصادية والنهي عن كل ما يناقض ذلك

اما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والامثال والوعد والوعيد والترهيب والترغيب والتنديد والجدل والحجاج والاخذ والرد والتذكير والبرهنة والالزام ولفت النظر الى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته ومخلوقاته الخفية والعلنية فهو وسائل تدعيمية وتأييدية الى تلك الاسس والاهداف وبسبيلها .

ومع ان جل هذه الوسائل مما له صلة ببيئة النبي وعصره من جهة والسيرة النبوية من جهة وبفهمها ، وان منها ما يتصل بالاسس والمبادىء من بعض النواحي كنتائج لها مثل الحياة الاخروية ومشاهدها وأهوالها ونعيمها وعذابها والملائكة والجن ومعجزات الانبياء مـــا يدخل في الغيبيات الايمانية من جهة ، ومع انها قد شغلت حيزاً كبيراً أو بالاحرى الحيز الاكبر مـــن القرآن فان من فائدة هذه الملاحظة ان تجعل الناظر في القرآن يقف عند الاهداف والمبادىء ويعتني العناية الكبرى بتجليتها وابرازها ، ولا يجعل الوسائل والتدعيمات ما لا ضرورة لتحميلها إياه ولا

يترك لها المجال لتغطي على تلك ، وتكون له شغلا شاغلا مستقلا بحيث يستغرق فيها مثل استغراقه في الاسس فضلا عن استغراقه فيها اكثر من استغراقه في هذه بما هو واقع ومشاهد كالانشغال مثلا في ماهية القصص القرآنية والنواميس الكونية ، او ماهية الملائكة والجن او ماهية مشاهد الحياة الاخروية ، وبحيث يغفل عن هدفها الرامي الى تدعيم الاسس والاهداف بما يؤدي به الى اهمال التدبر بالجوهري والتورط فيما لا طائل من ورائه والوقوع في الحيرة والبلبلة دونما ضرورة .

وننبه على ان هذا التقسيم بالمعنى الذي نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن وأسلوبه وآياته ، بما يستطيع أن يلمسه كل من انعم النظر فيها ، حيث يجد انه لم ترد قصة أو مثل او موعظة او حملة تنديد وانذار او اشارة تنويه بملكوت الله وعظمته والدعوة الى التفكير في آلائه او ذكره للملائكة والجن ، او تذكير بما كان من دعوة سابقة ومعجزات نبوية خارقة ، او تنبيه الى الحياة الاخروية ومشاهدها ونتائجها المبهجة او المزعجة الا بعد تقرير تلك الاسس والاهداف او شيء منها والدعوة اليها ، او بيان الحق والخير والصلاح والسعادة فيها ، أو حكاية مواقف الكفار منها ، أو تثبيت النبي والمسلمين فيها وتصبيرهم عليها ، وهذا من مميزات الاسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب المنزلة ، وحيث يجد ان هذه الاسس والاهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبيعي من اختلاف مواقف النبي وتنوعها بالنسبة لفئات الناس والعقول والظروف في حين ان ما هو من باب الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف اسلوبا ومدى وتعبيرا مع اختلاف تلك المواقف وتنوعها وهذا خاصة من شأنه ان يكون مقياسا وضابطا للتفريق بين القسمين القرآنيين ،

جل ومن شأنه ان يحل ما يتوهمه الناظر في القرآن من إشكالات قرآنية في الاسلوب والمدى والتعبير ايضا .

وهو مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن –مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية يأتي في مقدمتها وقد يكون اقواها مدى واوضحها دلالة آية آل عمران السابعة هذه : «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا .. »

وهذه الآية نزلت في سياق الرد على وفد نصراني تناظر مع النبي عليه السلام في أمر المسيح فسأله الوفد ألا يقول القرآن ان المسيح كلمة الله وروح منه قال بلى قال فهذا حسبنا . فنزلت الآية تندد بالوفد الذي ترك الاصل القرآني المحكم وهو ان الله واحد لا يصح أن يكون له ولد ولا شريك وجنح الى التأويل الفاسد لبعض النصوص التي أنزلت بقصد التقريب والتمثيل .

وعلى خصوصية الآية من حيث المناسبة فانها جاءت بأسلوب تقريري عام لتكون شاملة الحكم والمدى ، بحيث يصح ان يستلهم منها بقوة ان القرآن قسمان متميزان احدهما محكم اساسي ثابت لا يحتمل تأويلا ولا تنوعا ولا وجوها افتراضية وتقريبية وثانيهما متشابه بسبيل التقريب والتمثيل والالزام والبرهنة ويحتمل التأويل والتنوع والوجوه الافتراضية ولسنا منفردين في هذا التخريج فقد سبق اليه كثير من اعلام العلماء

والمفسرين على تنوع اقوالهم واختلاف مدى السعة والضيق فيها (١) وقد روي عن ابن عباس (٢) في صدر الآية ان المحكم هو ناسخ القرآن وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به وأن المتشابه هو منسوخ القرآن ومؤخره وامثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به . وقد نوه للأول بآيات الانعام ١٥١ – ١٥٣ والاسراء ٢٣ – ٣٨ التي هي مجموعات رائعة من المبادىء والاهداف التوحيدية والاخلاقية والاجتماعية والسلوكية .

وفي سورة محمد آية يصح ان تكون دليلا قرآنيا وهي هذه :

« ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم . ٢٠

حيث يلهم نصها ان معنى « محكمة » هو الفرض الاساسي الحاسم من فروض القرآن وتكاليفه .

وفي القرآن آيات كثيرة جداً يبرز فيها تأييد هذا المعنى كآيات البقرة ١٢ – ٢٦ والاعراف ٥٧ – ٥٨ والكهف ٥٤ – ٥٩ وطه ١١٣ والعنكبوت ٤٠ – ٤٩ والروم ٢٠ – ٢٨ والزمر ٩ – ٢٩ والحاقة ٤ – ٥٢ والمعارج ١١ – ٤٤ والمدثر ٣٠ – ٤٧ الخ .

وهو متسق مع حكمة بعثة الرسل وهي هداية البشر واخراجهم من الظلمات إلى النور والدعوة التي دعوا اليها وهي الدعوة إلى الله وحده وإلى مكارم الاخلاق والمبادىء التي يقوم عليها صلاح الانسانية وسعادة الناس في الدارين . اما ما ظهر على ايدي الرسل من معجزات وما صدر عنهم

---

(١) تفسير الخازج٣ (٢) الاتقان السيوطي

الوحي الرباني من نذر وبشائر ووعد ووعيد وتذكير وتمثيل فانه بسبيل تلك الحكمة وإعلائها وتجليتها والاقناع بها والتوجيه اليها كما يبدو واضحاً وبديهيا عند ذوي الالباب والروية.

ومما يزيد ما نقرره قوة ووضوحا ما يلاحظ من تطور التنزيل القرآني وتطور اطلاق تعبير « القرآن » على اجزاء القرآن وسوره وفصوله. فالقرآن يطلق كما هو معروف على مجموعة السور التي بين دفتي المصحف، غير أن هذا التعبير قد بدئ باستعماله منذ مبادئ نزول القران ، وبدئ باطلاقه على ما كان ينزل من مجموعاته قبل تمامه ، بل قبل ان ينزل منه الا القليل ثم ظل يطلق على ما كان ينزل منه وما يجتمع من مجموعاته الى ان تم تمامه بوفاة النبي عليه السلام كما يفهم من آيات المزمل ٤ و ق ١ والبروج ٢١ و ص ٢ والجن ١ والفرقان ٣٢ وطه ١١٤ والواقعة ٧٧ والنمل ١ والاسراء ٩ و ٨٢ يونس والحجر ١ إلى كثير غيرها من السور المكية (١) ثم ظل يطلق في السور المدنية على ما نزل وكان ينزل كما يفهم من آيات البقرة ٢ وآل عمران ٣ – ٤ والنساء ٨٢ والحشر ٢١ ومحمد ٢٤ وغيرها ..

والمعقول والواقع ان الآيات والسور القرآنية التي نزلت قبل غيرها قد احتوت في الاكثر اسس الدعوة ومبادئها وأهدافها واقتصرت أو كادت تقتصر على التبشير بها وانذار الذين لا يستجيبون إليها ولم تتوسع في الوسائل كما ترى في سور الفاتحة والأعلى والشمس والليل والعصر والاخلاص والتكاثر والتين والقارعة ، مما يؤيد أن الأهداف والأسس هي المقصودة الجوهرية في القران أولا . وقد خلت هذه السور وأمثالها أو كادت تخلو من العنف مما هو طبيعي لأن الدعوة وأهدافها ومبادئها

---

(١) هذه السور من السور المكية المبكرة بالنزول قليلا او كثيرا.

هي التي يجب ان تعرض أولا وتنشر دون ما عنف ولا جدال، ثم اخذت الفصول التالية لما تحتوي إلى جانب تقرير المبادىء والاهداف والتوسع فيها حملات عنيفة على الجاحدين والكافرين والصادين وحكاية مواقفهم وإنكارهم لصحة الوحي القرآني كما اخذت تتوسع في الوسائل التدعيمية من قصص وأمثال ووصف نواميس ومشاهد وذكر غيبيات إيمانية الخ مما هو طبيعي كذلك، لأن الجحود والجدل والانكار والشك والاستغراب والاذى والصد والتحدي والتحريض إنما وقع بعد عرض الدعوة وتقرير الاهداف، ولان مواقف الجاحدين والمفكرين والشاكين والمستغربين والمترددين والصادين والمكابرين والمتحدين استتبعت التوسع في الوسائل التدعيمية والتأييدية. ولقد احتوت الفصول التالية المذكورة جدلا وحجاجا بين النبي والكفار حول «القرآن» وصحة الوحي الرباني مثل آيات القلم ٩ – ١٥ والتكوير ١٩ – ٢٩ والفرقان ١ – ٦ و٣٢ والشعراء ١٩٢ – ٢٢٦ والاسراء ٤٥ – ٤٧ و ١٠٥ – ١١١ ويونس ١٥ – ١٧ و ٣٧ – ٤٠ وهود ١٣ – ١٤ والسجدة ١ – ٣ وسبأ ٣١ وفصلت ٤٠-٤٥ الخ»، والمعقول أن يكون الكفار قد جادلوا في اول الامر في مااحتوته الاجزاء الاولى من القرآن وكادت تقتصر علية من الاسس والمبادىء وكفروا بنبوة النبي وصحة الوحي الرباني فأخذت هذه الآيات وأمثالها تحكي أقوالهم وترد عليها ردوداً مفحمة، وتضرب لهم الامثال وتذكرهم بمن سبقهم من الامم والانبياء وتوعدهم وتنذرهم بالآخرة وهولها وعذابها وتتحداهم وتندد بما هم عليه من ضلال وسخف، وتبشر المستجيبين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة وتثبتهم وتصبرهم وتسلي النبي وتطمئنه الخ ثم استمر الامر على ذلك كله، فالانذار والتبشير والتنديد والتنوية والوعد والوعيد

والقصص والامثال والالزام والافحام والجدال انما هو كما هو واضح جاء تبعا للأسس والمبادىء والاهداف ودارحولها ، بسبيل التدعيم والتأييد الذين اقتضتهما ظروف السيرة والدعوة ومواقف الناس مسلميهم وكفارهم من تلك الاسس والمبادىء والاهداف التي هي الاصل والجوهر في التنزيل القرآني .

- ٥ -

القصص القرآنية :

خامسا : إن ما ورد من قصص وأخبار متصلة بالامم السابقة وأحداثها أولا لم يكن غريبا عن السامعين إجمالا ، سماعا أو مشاهدة آثار او اقتباساً أو تناقلا ، وسواء منه ما هو موجود في الكتب المنزلة المتداولة مماثلا أو زائدا أو ناقصا أو مباينا لما جاء في القرآن . وما لم يكن موجوداً فيها مما يتصل بالامم والانبياء الذين وردت اسماؤهم فيها مثل قصص ابراهيم المتعددة مع قومه وتسخير الجن والريح لسليمان وقارون والعبد الصالح مع موسى ومائدة المسيح ، أو مما يتصل بغيرهم من الامم والبلاد العربية وأنبيائهم مما لم يرد اسماؤهم فيها مثل قصص عاد وثمود وسبأ وتبع وشعيب ولقمان وذي القرنين ، وثانيا لم يورد القصة بذاتها وانما ورد للعظة والتمثيل والتذكير والالزام والافحام والتنديد والوعيد .

وفي القرآن شواهد وقرائن ونصوص عديدة مؤيدة للنقطة الاولى مثل ما جاء في آيات سورة الروم ٩ وسورة غافر ٢١ وسورة الحج ٤٥ - ٤٦ وسورة الصافات ١٣٣ - ١٣٨ وسورة القصص ٥٨ وسورة الفرقان ٤٠ وسورة العنكبوت ٣٨ وسورة الفجر ٦ - ١١ وسورة هود ١٠٠ وسورة ابراهيم ٤٥ .

وفي اسلوب القصص القرآنية الذي لم يكن سردا تاريخيا كما هو الحال في قصص التوراة والذي تخلله الوعظ والارشاد والتبشير والانذار بل والذي جاء سبكه وعظا وارشاداً وتبشيراً وانذارا ، ثم في سياق إيراد القصص عقب التذكير والتنديد والتسلية والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدي ذلك ، وتكرارها لتنوع المواقف النبوية دعوة وحجاجا وتنديداً وبياناً وعظة سنين طويلة وتجاه فئات مختلفة تأييد للنقطة الثانية ، يضاف إلى هذا ما في القرآن من شواهد ونصوص خاصة وكثيرة ايضا مما يؤيدها كما يبدو واضحا لمن يتمعن في آيات الاعراف ١٠١ و ١٦٣ - ١٦٦ و ١٧٥ - ١٧٧ والمائدة ٢٨-٣٣ والانفال ٥٣ - ٥٤ والتوبة ٦٩ - ٧٠ ويونس ١٢ - ١٣ و ٧١ - ٩٨ وهود ١٠٠ - ١٠٣ ويوسف ١١١ والرعد ٣٨ - ٤٢ وابراهيم ٩ - ١٤ ومريم ٥٤ - ٦٣ وطه ٩٩ - ١٠١ والفرقان ٣٥ - ٤٠ والنمل ٤٥-٥٨ والقصص ١ - ٦ و ٥٨ - ٥٩ والعنكبوت ٣٧ - ٤١ ويس ١٣ - ٣١ وص ١٢ - ١٧ واللازمة التي اتبعت بكل قصة في سورة الشعراء وهي « إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين » . وهناك آيتان في سورتي الانبياء والقصص جديرتان بالتنويه بصورة خاصة لما فيها من دلالة قوية على أن العرب كانوا يعرفون أخبار الانبياء ومعجزاتهم وهما هاتان :

١ - وقالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون . . الانبياء ٥

٢ - فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا (١) أوتي مثل ما أوتي موسى . . القصص ٤٧

---

(١) بمعنى هلا .

وحكمة النقطة الاولى ظاهرة جلية فيما يتبادر لنا . فالمخاطبون إنما يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التي تورد عليهم من موعظة أو مثل أو تذكير وزجر وتنبيه ودعوة الى الاعتبار والارعواء والتأسي والتدبر في العاقبة إذا كانت مما يعرفونه أو مما يعرفه بعضهم جزئيا أو كليا ومفصلا أو مقتضبا . أما إذا لم يكونوا يعرفونه فانه لا يأتي مستحكم الالزام والافحام والتأثير والعبرة ، ولا سيما على مخاطبين كافرين بأصل الدعوة التي يراد التذكير بمواقف الغير والسابقين من مثلها وبمصائرهم بسبب هذه المواقف أو جاهلين الحادثة التي يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها .

وهذه الملاحظة مهمة وجوهرية جداً ، لأن من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر في القرآن في ماهيات ووقائع ما احتوته القصص التي لم تقصد لذاتها ، وان تغنيه عن التكلف والتجوز في التخريج والتأويل والتوفيق أو الحيرة والتساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع ، وان تجعله يبقي القرآن في نطاق قدسيته من التذكير بالمعروف والارشاد والموعظة والعبرة ولا يخرج به الى ساحة البحث العلمي وما يكون من طبيعته من الاخذ والرد والنقاش والجدل والتخطئة والتشكيك على غير طائل ولا ضرورة .

ونريد أن نبحث في ما يمكن أن يرد على موضوع الملاحظة وخاصة نقطتها الاولى .

فلقد ورد في سورة هود بعد قصة نوح خاصة وورد في سورة يوسف بعد اتمام القصة وورد في سورة آل عمران في سياق نشأة مريم آيات جاء فيها تنبيه على أن ذلك من أنباء الغيب كما ترى فيها :

١ - تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . هود ٤٩

٢ - ذلك من انباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . يوسف ١٠٢

٣ - ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . آل عمران ٤٤

وظاهر الآيات ينقض تلك النقطة كما هو المتبادر . غير أننا نلاحظ أن قصتي نوح ويوسف خاصة قد وردتا في التوراة قريبتين جداً مما وردتا في القرآن ، وان التوراة كانت متداولة بين ايدي الكتابيين الذين كان كثير منهم يعيشون في بيئة النبي قبل بعثته وبعدها ، كما ان اهل هذه البيئة كانوا على صلة وثيقة بهم وبالبلاد المجاورة الكتابية الدين اي الشام ومصر والحبشة والعراق العربي ، وان القرآن قد اكثر من ذكر التوراة مصدقا حينا ومنوها بما احتوته من نور وهدى وحق حينا ومتحديا بها اليهود حينا ، وأن فيه آيات تفيد صراحة او ضمنا ان أهل بيئة النبي كانوا يسمعون من الكتابيين أشياء كثيرة عن كتبهم كما ترى في الامثلة التالية :

١ - أتأمرون (١) الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون . . البقرة ٤٤

٢ - ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا (٢) فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . . البقرة ٨٩

---

(١) يعني اليهود (٢) يعني العرب

٣ - واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى بعضهم قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم . البقرة ٧٧

٤ - أم تريدون (١) أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل. البقرة ١٠٨

٥ - وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه (٢) من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . . ال عمران ٧٨

٦ - كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيلُ على نفسه من قبل ان تُنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين . . ال عمران

٧ - وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يقولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . . المائدة ٤٣ - ٤٤

وان اهل هذه البيئة كانوا يثقون بما عند الكتابيين من علوم ومعارف، مما ينطوي في ذلك حكمة ما تكرّر في القرآن من الاستشهاد بهم على صحة الرسالة النبوية مما اوردنا آياته في مناسبة سابقة .

والروايات متضافرة على ان اليهود كانوا يتبجحون بالتوراة في سياق الدعوة النبوية واحداثها . وانهم نشروها مرة أو أكثر في مجالس النبي ، وعلى انه كان من اهل بيئة النبي العرب مَن كان يدين بالنصرانية واليهودية

---

(١) يعني المسلمين (٢) يعني المسلمين

ومطلعا على التوراة والانجيـــل فضلا عن من يدين بالنصرانية خاصة من العرب الذين يقطنون في انحـــاء اخرى من الجزيرة العربية وأطرافها ؛ والتوراة كتاب النصارى كما هي كتاب اليهود فضلا عن إختصاص الاولين بالانجيل كما هو معروف . وفي حديث البخاري عن بدء الوحي وقـــد اوردناه في الفصل الاول صراحة بمعرفة ورقة بن نوفل العبرانية واطلاعه على التوراة والانجيل .

فليس بما يصح فرضه أن لا يكون من العرب السامعين القرآن من يعرف هاتين القصتين . ومثل هذا يقـال بالنسبة لقصة مريم التي ورد في بعض الاناجيل شيء قريب مما ورد عنها في القرآن وفي بدء قصة يوسف آية هذا نصها :

« لقد كان في يوسف واخوته آيات السائلين » والسؤال عن أمرهم لا بد من ان يكون آتيا من معرفة شيء ما أو سماع شيء ما عنهم من دون ريب. لذلك فان في الآيات الثلاث المذكورة إشكالا يدعو الى الحيرة، ولا يستطاع النفوذ الى الحكمة الربانية فيه نفوذاً تاما. وليس من مناص إزاء الواقع ومداه من ان قصص نوح ويوسف ومريم من القصص المشهورة إلا بتأويل هذه الآيات وتخريجها بما يزيل الاشكال ويتسق مع الواقع . وقد رأينا المفسر الخازن يعلق على آية هود فيقول ان قصة نوح مشهورة وانه ليس مما يحتمل ان لا تكون معروفة ، وانه يجب صرف الآية على محل قصد عدم معرفة النبي وقومه بجميع تفصيلاتها . وفي هـــذا التعليق وجاهة ظاهرة كما انه لا معدى عنه أو عن ما يقاربه كصرف الغيب الى معنى البعيد غير المشاهد او الذي صار في طيات الدهر في صدد القصص التي وردت عقبها خاصة هذه الآيات. وننبه على ان بقية الفصول القصصية

في سورتي هود وآل عمران، وكذلك الفصول القصصية المتنوعة الواردة في مختلف السور بما في ذلك قصص نوح ومريم ويوسف لم يرد فيها مثل هذا التعليق والتقييد، وان قصة نوح ذكرت بتفصيل او إقتضاب مرات كثيرة في السور التي نزلت قبل سورة هود مثل ص والاعراف والقمر والشعراء، وان قصة مريم وولادة عيسى ذكرت بتفصيل ايضا في سورة مريم التي نزلت هي الاخرى قبل سورة آل عمران واشير اليها باقتضاب في سور متعددة اخرى ولم يرد كذلك في سياقها مثل هذا التعليق والتقييد مما يجعل التأويل والتخريج سائغاً وصواباً .

ولعل مما يحسن إيراده في صدد قصة نوح مسألة اصنام قوم نوح المذكورة في سورة نوح وهي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فقد كانت الاصنام من الاصنام المعبودة عند بعض قبائل العرب في عصر النبي وقد تسمى كثير من الاشخاص المعاصرين النبي بعبودية بعضها مثل عبد ود وعبد يغوث، وفي بعض الروايات ان العرب اقتبسوا هذه الاصنام وعبادتها من قوم نوح، ولعل هذا ما كان متداولا بينهم قبل البعثة. وعلى كل فان هذا قرينة على ان العرب لم يكونوا جاهلين قصة نوح ومواقفه من قومه بالكلية .

ومما يصح إضافته الى الآيات القرآنية الكثيرة التي احتوت دلائل وقرائن تفيد ان السامعين كانوا يعرفون اخبار الامم والانبياء التي تتلى عليهم من القرآن على سبيل العظة والتذكير ان المفسرين قد اوردوا بيانات كثيرة في سياق كل قصة من القصص القرآنية مسهبة حيناً ومقتضبة حيناً آخر، ومعزوة الى علماء السير والاخبار إطلاقاً حيناً والى علماء بأسمائهم مثل ابن عباس ومقاتل ومجاهد والضحاك والكلبي وابن اسحق ووهب

ابن منبه وكعب الاحبار وغيرهم حينا ، واحتوت تفاصيل وجزئيات حول هذه القصص او قصصا بسبيلها مهما كان فيها من إغراب ومفارقات فاننا نستبعد ان تكون كلها موضوعة بعد النبي عليه السلام ، ونميل الى القول بل نرجح انها احتوت اشياء كثيرة مما كان يدور في بيئة النبي قبل البعثة وبعدها حولها ، وانها مما يمكن الاستئناس به في تأييد النقطة الاولى من الملاحظه بما هو متسق مع المنطق وهدف التذكير والوعظ القرآني .

ومما يصح إضافته ايضا صيغة اعلام القصص بمثل طالوت وجالوت ويونس وايوب وفرعون وهامان وقارون وهرون وابراهيم وآزر وسليمان وداود وادريس ونوح والمسيح عيسى وموسى وهاروت وماروت الخ ؛ فان هذه الاعلام قدجاءت في القرآن معربة وعلى أوزان عربية ، ومن المستبعد ان تكون قد عربت لاول مرة في القرآن ، ومن المرجح ان تكون قد عربت وتداولت بأوزانها العربية قبل نزوله ؛ وبهذا وحده يصح ان يشملها تعبير إنزال القرآن بلسان عربي مبين لانها جزء منه ؛ وتداولها معربة قبل نزول القرآن يعني كما هو بديهي معرفة العرب شيئا من أخبار أصحابها على الاقل .

وفي ما تكررت حكايته في القرآن عن الكفار من قولهم إنه أساطير الاولين وان النبي كان يستكتبها وتملى عليه ، وانه كان أناس اخرون يعينونه عليها ، وانهم لو شاؤوا لقالوا مثلها كما جاء في آيات الانعام ٢٥ والانفال ٣٠ والفرقان ٥ والقلم ٨ ١٥ مثلا قرينة قوية كذلك ان لم نقل قرينة حاسمة على ان العرب كانوا يسمعون من قصص القرآن ونذره وبشائره وتذكيراته ما اتصل بهم علمه وكان من المتداول بينهم . ولقد يرد ان الكفار حينما كانوا يرددون على النبي تعبير أساطير الاولين خاصة كانوا في

موقف المكابر المستخف، ومع التسليم بهذا فان كلمة أساطير لا تقتضي دائما ان تعتبر مرادفة لكلمة قصص خرافية كما هو من مفهوماتها، فانها قد تفيد ايضا معنى المدونات لانها مشتقة من « سطر بمعنى « كتب » كما هو وارد في القرآن « ن والقلم وما يسطرون » ، وآية الفرقان الخامسة « وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا » تلهم ان هذا من المعاني المقصودة للكلمة. ومهما يكن من أمرها فانها تعني على كل حال انهم يسمعون اخباراً وقصصا وصلت الى علمهم عن الامم السابقة حقيقية كانت او خرافيـــة .

ومما يرد على ما نخمّن سؤال عن مدى ما بين القصص القرآنية واسفار التوراة والانجيل المتداولة من مباينات. فقد قلنا قبل قليل ان في القرآن قصصا مقاربة لما في هذه الاسفار كما ان فيه قصصا مباينة في الاسماء والاحداث او بزيادة ونقص ، وان فيه قصصا متصلة بأسماء رجال هـذه الاسفار من انبياء وغيرهم دون ورودها فيها. والذي نعتقده ان ما قلناه ينطبق على هذا ايضا ، وان ما ورد في القرآن هو الاكثر اتساقا مع ما كان معروفا ومتداولا عند السامعين إجمالا وهذا هو المتمشي مع الحكمة التي نبهنا عليها في القصص القرآنية ؛ ونراه طبيعيا ومتسقا مع الواقع والمألوف وهو تداول الناس اخباراً وأسماءً على غير الوجه المدون في الكتب والصحف بل وكون المتداول احيانا كثيرة هو الاكثر صحة من المدون ايضا . فليس والحالة هذه ما يمنع ان يكون لدى النصارى واليهود في عصر النبي وقبله متداولات مدونة وغير مدونة تساق وتورد على هامش ما ورد في اسفار التوراة والانجيل وبقصد التوضيح والتفسير والتعليق ؛ هذا بقطع النظر عن احتمالات الاختلاف والمباينة بين الاسفار المتداولة اليوم والاسفار المتداولة قديما. وفي كتب تفسير القرآن روايات

كثيرة معزوة الى الصحابة والتابعين احتوت بيانات عن احداث تاريخية واجتماعية عربية وغير عربية ، وعن أحداث متصلة ببيئة النبي وسيرته ولم ترد في القرآن ، وانما وردت إشارة اليها قريبة أو بعيدة ، فأوردت على هامش تفسير الآيات القرانية وبقصد تفسير بعض الوقائع والاحـــداث والاشارات والمفهومات التي احتوتها والتعليق عليها ؛ ولا يمتنع ان تكون صحيحة كليا او جزئيا .

ولقد تكون قصص ابراهيم خاصة لافتة النظر اكثر من غيرها في هذا الباب ؛ لان جلّ ما ورد منها في القرآن لم يرد في التوراة . والمدقق في القصص التي لم ترد في التوراة يجد انها متصلة بالحيـاة والظروف والتقاليد التي كانت عليها البيئة النبوية ، وبمواقف الكفـار العرب وعقائدهم ايضا اتصالا وثيقا ؛ سواء في امر إسكان ذرية من ابراهيم في مكة أو في إنشاء الكعبة ، أو في اصول الحج وتقاليده ، أو موقفه من أبيه وبراءته منه ، أو حملته على عبادة الاصنام وموقفه من قومه من اجلها وتكسيره اياها والقائه في النار بسبب ذلك ، أو محاجّته مع الملك أو نظرته في النجوم وانصرافه عنها ، ويجـد انها داعية الى التأسي لانه أبو العرب . والذي نعتقده أن هذه القصص كانت متداولة بين العرب ومتناقلة فيهم جيلا عن جيل دون ما حاجة الى ان تكون مستقاة من اليهود مع احتمال ان يكون اسما ابراهيم واسماعيل قد اقتبسا من اليهود لان التوراة هي اول ما جاء يحمل هذين الاسمين مدونين ، وان من تلك الناحية خاصة تجيء قصص ابراهيم ملزمة العرب ، وتورد في القرآن بقوتها التلقينية والتذكيرية المستحكمة النافذة التي وردت بها كما يمكن ان يبدو لمن يتمعن في آيات البقرة ١٢٤ - ١٤١ و ٢٥٨ و ٢٦٠ وآل عمران ٦٥ - ٦٨ و ٩٤ - ٩٧

والانعام ٧٤-٩٠ والتوبة ١١٣-١١٤ وابراهيم ٣٥-٤١ ومريم ٤٢-٥٠ والإنبياء ٥١-٧٠ والحج ٢٦-٢٧ و ٧٨ والزخرف ٢٦ ٢٨ والممتحنة ٤-٦ ، وهذا هو هدف القصة القرآنية بالذات .

ونظن انه ليس من شيء يرد من مثل هـذا على موضوع القصص الاخرى التي لم يرد أسماء رجالها ومواضيعها في أسفار التوراة والانجيل ولا سيما ان جل هذه القصص عربي الامم والانبياء والبلاد ، وان كونها مما كان متداولا عند العرب لا يصح ان يكون موضع شك وجدل ، وفي الآيات القرآنية دلالات قوية على هذا خاصة مثل آيات العنكبوت ٣٦-٣٨ والاحقاف ٣٧ والصافات ١٣٧-١٣٨ والقصص ٥٨ والحج ٤٥ ٤٦

هذا ، ومعلوم انه يوجد في القرآن قصص أنزلت جوابا على سؤال صريح مثل قصص ذي القرنين ويوسف وأصحاب الكهف والرقيم ، كما ان هناك قصصا اوردت مباشرة مثل قصة نشأة موسى وسيرته في مطلع سورة القصص. ولقد يرد ان في هذا نقضا لما قلناه من ان القصص القرآنية لم تورد لذاتها كما انه قد يكون بالنسبة لبعض هذه القصص نقضا لما قلناه من ان القصص الموحاة مما كان متداولا وليس غريبا على الاسماع بالمرة .

ولقد قلنا قبل في صدد قصة يوسف ان السؤال عنها لا يمكن ان يكون ورد الا من اناس سمعوها وعرفوها او سمعوا وعرفوا شيئا عنها . وهذا ينطبق على قصة ذي القرنين كما هو بديهي ، ومضامين آيات أصحاب الكهف والرقيم تلهم انه كان جدل حول قصتهم وعددهم وسني لبثهم ، وهذا يعني ان السؤال وجه على سبيل الاستفسار - وهذا ما روته الروايات - وبالتالي ان السائلين قد سمعوا او عرفوا شيئا عن القصة . ومعرفة السائلين

بعض الشيء لا تقتضي بالبداهة ان لا يكون هناك اناس آخرون يعرفون أشياء كثيرة عنها كما لا تقتضي ان يكون اناس يعرفون ثم ارادوا التحقيق او الاستفسار او التحدي الخ

وفي كتب التفسير بيانات وتفصيلات جزئية كثيرة عن هاتين القصتين ايضا مما يمكن ان يكون فيه - بسبب كونه مستنداً الى روايات متصلة بعهد النبي - دلالة على تداوله في هذا العهد ايضا . أما قصة موسى فلا نظن انه يرد أنها كانت غريبة عن الاسماع وفي القرآن دلالات حاسمة على عكس ذلك اوردنا بعض الآيات عنها .

هذا بالنسبة للنقطة الاولى . اما بالنسبة للنقطة الثانية فان قصة موسى في سورة القصص قد أعقبها آيات تنديدية وتذكيرية ووعظية معطوفة عليها وكنتيجة لها كما يبدو من الآيات ٣٧ - ٥٠ .

وهذا ما يدخلها في نطاق القصص الاخرى الواردة في معرض التذكير والتمثيل والانذار والدعوة والاعتبار . وكذلك قصة يوسف فقد اعقبها آيات مثل تلك وهي الآيات ١٠٣- ١١١ وانتهت بآية فيها قصد العبرة صراحة حيث جاء هذا التعبير « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» في اخرها . وقصة اصحاب الكهف والرقيم قد جاءت بعد آيات فيها حملة على الكفار لنسبتهم الولد الى الله وهي الآيات ٤-٨ ، كما أعقبها آيات فيها استمرار في الحملة وهي الآيات ٢٣ - ٣١ ، واسلوبها متسق مع أسلوب سائر القصص اي انه تضمن المواعظ والتلقينات الأخلاقية والاجتماعية والدينية واستهدف التدعيم والتأييد للدعوة النبوية واهدافها حتى ليبدو ان هذا هو المقصود بها عند انعام النظر في سلسلة آياتها ١-٣١ وخاصة في امر النبي بعدم المماراة كثيرا في شأنهم وايكال علم ذلك الى

الله. ومع ان قصة ذي القرنين جاءت جوابا على سؤال صريح فإنّ اسلوبها مثل ذلك الاسلوب وقد اعقبتها آيات تضمنت حملة على الكافرين الجاحدين ومتصلة بآيات القصة اتصالا وثيقا نظما وانسجاماً . وهذا وذاك يبدوان بارزين عند انعام النظر في سلسلة الآيات

وعلى هذا فان من الصواب ان يقال ان هذه القصص لا تشذ عن الطابع العام للقصص القرآنية الذي نوهنا به في مطلع البحث .

ومما هو جدير بالتنويه ومتصل بالمعنى الذي نقرره وخاصة بالنسبة للنقطة الاولى من الملاحظة أنّ محتويات القصص القرآنية على تنوعها لم تكن موضع جدل ومماراة لا من مشركي العرب ولا من الكتابيين بدليل انه لم يرد في القرآن اي إشارة تفيد ذلك صراحة او ضمنا مع انهم كانوا يحصون على النبي كل شيء ويترصدون لكل ما يتوهمون فيه تناقضا او شذوذا عما يعرفونه ويعتقدونه ويتداولونه ويتوارثونه ويسارعون الى اعلان استنكارهم وتكذيبهم ، ويستغلونه فرصة للصد والدعاية والتأليب مما حكى القران شيئا كثيرا منه .

وقد يؤيد هذا ان العرب جادلوا في الحياة الاخروية أشد جدال وكذبوا وانكروا أعنف تكذيب وانكار فحكت ذلك آيات قرآنية كثيرة حتى لقد شغل هذا الجدل والتكذيب والانكار وما اقتضاه من ردود وتوكيدات متنوعة الاسلوب حيزاً كبيراً من القرآن المكي ولقد كان من أسباب هذا الانكار والتكذيب والجدل ان العرب كانوا يسمعون ما لا علم لهم به سابقا وما لم يسمعوا عنه شيئا مهماً من الكتابيين الذين كانوا مصدراً رئيسيا من مصادر معارفهم لان أسفار هؤلاء لم تكد تحتوي عن الحياة الاخروية شيئا ..

وليس ما نقل عن العرب من قولهم عن القرآن انه اساطير الاولين مما يفيد تكذيبهم للقصص التي يسمعونها ومماراتهم فيها لان هذا التعبير كما قلنا عنى كما تدل عليه مضامين الآيات القرآنية مدونات الأولين وقصصهم اطلاقا ، ولانهم كانوا يردّدون هذا القول بقصد تكذيب صلة الله ووحيه بالنبي وصحة التنزيل القرآني والدعـــوة النبوية والحياة الاخروية لا بقصد المماراة في هذه القصص وتكذيبها وانكارها كما يظهر من التمعن في هذه الآيات التي ورد فيها التعبير :

١ - ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ، ان هذا الا اساطير الاولين الانعام ٢٥

٢ - واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين . واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم . الانفال ٣١ - ٣٢

واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الاولين . النحل ٢٤

٤ - وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفوراً رحيما .

الفرقان ٥ - ٥

٥ - فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين فـــلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد اثيم . عتل بعد ذلك زنيم . اذا تتلي عليه آياتنا قال اساطير الاولين

القلم ٥ - ١٥

ولقد انكر اليهود أموراً واردة في التوراة فتحداهم القرآن بالاتيان بالتوراة وتلاوتها ان كانوا صادقين في انكارهم كما جاء في آية آل عمران ٩٣ صراحة وآيات المائدة ٤٣ – ٤٥ ضمنا . ولقد حاججوا في ما قرره القرآن عن إبراهيم وملته ، وقدم الكعبة وصلته بها كما يفهم من آيات البقرة ١٣٢ – ١٤١ وآل عمران ٦٦ – ٩٩ صراحة وضمنا

فلو رأى العرب فيما يسمعونه من القصص تناقضا أو تباينا او شذوذا عما يعرفونه منها اجمالا او تفصيلا ، او لو سمعوا أشياء لا عهد لهم بها بالمرة ولو رأى الكتابيون وخاصة اليهود في ما يسمعونه مباينة لما كان متداولا في ايديهم من الكتب وتفسيرها وشروحها او لما هو متداول ومتناقل بينهم على هامشها مما يتصل بأسماء انبيائهم لجادلوا وطعنوا وغمزوا ، ولذكر ذلك عنهم القرآن في معرض التكذيب والرد كما ذكر عنهم جدالهم وحجاجهم وإنكارهم وطعنهم في هذا المعرض في الامور الاخرى التي توهموا فيها تناقضا او تغايرا او جديدا لا عهد لهم به ، ولاغتنموه فرصة للغمز والطعن والدعاية والتهويش .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان النبي يعرف ايضا القصص القرآنية قبل بعثته او عن غير طريق الوحي، وعما إذا لم يكن فيما نقرره تعارض معا مع نزول الوحي بها . والذي نعتقده ان النبي خلافا لما قاله بعضهم كان يعرف كثيرا مما يدور في بيئته من قصص الامم والانبياء السابقين واخبارهم ومساكنهم وآثارهم سواء منها المذكور في أسفار التوراة والانجيل او غيره كما انه كان يعرف كثيرا من احوال الامم والبلاد المجاورة للجزيرة العربية بالاضافة إلى ما كان يعرفه من احوال سكان الجزيرة ايضا وتقاليدهم وافكارهم وعاداتهم واخبار اسلافهم ، وان هذا

هو المتسق مع طبيعة الاشياء ، وان النبي قد اتصل قبل بعثته بالكتابيين الموجودين في مكة وتحدث معهم حول كثير من الشؤون الدينية وحول ما ورد في الكتب المنزلة واستمع الى كثير مما احتوته ، ونرجح ان هذه الصلة قد استمرت الى ما بعد بعثته ، وانها انتهت بإيمان الذين اتصل بهم بنبوته لما رأوا من اعلامها الباهرة فيه . ولعل فيما ورد في بعض آيات القرآن قرينة على ذلك ، فقد جاء في سورة الفرقان هذه الآية « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افـــتراه واعانه عليه قوم اخرون فقد جاؤوا ظلما وزوراً » وفي سورة النحل هذه الآية « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » فهذه الاقوال الصادرة عن الكفار التي حكاها القرآن لا بد من ان تكون مستندة إلى مشاهدة اتصال النبي ببعض اشخاص كانوا يعرفون أنهم ذوو علم أو مظنة علم وتعليم ومعاونة ، ومنهم غرباء ، والمرجح أن الغرباء خاصة منهم كتابيون ، فوهموا انه يستعين بهم او يعينونه على نظم القرآن وتأليفه فقالوا ما قالوه . والآيات تنفي التعليم والاعانة ولكنها لا تنفي الاتصال . وقد وردت في كتب التفسير روايات تذكر وقوع شيء من هذا الاتصال ، وقد جاء في كشاف الزمخشري مثلا انه كان لحويطب بن عبد العزى غلام اسمه عايش او يعيش وكان صاحب كتب وقيل هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي وقيل عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف في مكة ويقرآن من التوراة والانجيل ، فكان رسول الله اذا مر وقف عليهما يسمع ما يقرآن . وحديث بدء الوحي البخاري صريح بأن النبي اجتمع بورقة بن نوفل الذي تنصر وقرأ العبرانية وكان يقرأ الانجيل ويكتبه ، وفي روايات السيرة ان ورقة هذا تولى تزويج النبي

وكان عمره خمساوعشرين سنة بخديجة ابنة عمه ، ففي كل هذا ما يستأنس به على صحة ما ذكرناه .

ومن الواضح ان هذا ليس بمخلٍّ بقدر النبي عليه السلام وعظمته التي انما كانت تقوم في الحقيقة على ما امتاز به من عظمة الخلق وقوة العقل وصفاء النفس وكبر القلب وعمق الايمان والاستغراق بالله، ولقد قرر القرآن طبيعة النبي البشرية ، وهذا متصل بهذه الطبيعة التي من البديهي جداً ان لا تتناقض مع وقوف النبي على ما كان متداولا في بيئته او في اي بيئة وحلة تيسر له الاتصال بأهلها من اقوال وافكار واخبار وعقائد وتقاليد وظروف واحداث حاضرة وغابرة ، بل ان من البديهي جداً ان يكون واقفا على كل ذلك غير غافل عنه ، وان هذا هو المعقول الذي لا يمكن ان يصح في العقل غيره . واننا لنشعر بالدهشة مما ابداه ويبديه بعض العلماء من حرص على توكيد كون النبي لم يكن له معارف مكتسبة مما لا يتسق مع المنطق والمعقول والبديهي توهما بأن في هذا مأخذا ماعلى كون ما بلّغه النبي من القرآن انما اتى من هذه المعارف ، ونرى في هذا التوهم خطأً اصلياً في تلقي معنى الرسالة النبوية التي هي هداية وارشاد ودعوة والتي لا يمهد بمهمتها العظمى الا لمن يكون اهلاً لها في عقله وخلقه وقلبه وروحه كما ذكرت آية الانعام « الله اعلم حيث يجعل رسالته » كما انه آتٍ فيما يتبادر لنا من عدم ملاحظة كون القرآن قسمين متميزين اسساً ووسائل.

« ومما يورده هؤلاء حجة آيات العنكبوت هذه :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون . بل هو ايات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون . . ٤٨ – ٤٩

حيث يظنون على ما يبدو ان اكتساب المعارف والاطلاع على ما عند الناس من اخبار وافكار انما هو حصر على القاريء الكاتب ، وليس هذا صحيحا دائما كما انه ناشيء عن قياس الغائب بالحاضر وهو قياس مع الفارق . والآيات بسبيل تقرير كون الدعوة التي يدعو اليها النبي وما يبلغه في صددها انما هو وحي رباني ولم يقتبسه من كتاب ، ولا ينبغي ان يكون عندهم محل الشك في ذلك لانهم يعرفون انه لم يكن يقرأ ولا يكتب ، ولا يجحد بآيات الله التي تصدر عن الذين يختصهم الله بمهمته وبيناته الا المكابرون الظالمون على ما يتبادر . وليس في هذا نقض لما قررناه .

والذي نعتقده أنه ليس في ما قررناه أو في كون القصص القرآنية متسقة إجمالا مع ما كان معروفا متداولا تعارض من ناحية ما مع نزول الوحي الرباني بها على قلب النبي عليه السلام - وهو سبب القول ان النبي لم يكتسب معارفه اكتسابا - لانها لم تنزل لذاتها بقصد القصص والاخبار وانما انزلت في معرض التنديد والموعظة والتذكير والجدل ، وكوسيلة من وسائل تدعيم أهداف القرآن واسس الدعوة النبوية ازاء مواقف المكابرين والجادلين والجاحدين مما هو موضوع هذا البحث وفوائد الملاحظة التي عقد عليها .

ولقد ورد في القرآن فصول كثيرة جداً مما له صلة ببيئة النبي وحاضر تقاليد اهلها وحياتهم وامثالهم ومعايشهم وما في اذهانهم من صور متنوعة مما هو معروف مشهود بأسلوب الموعظة والتذكير والتنديد وكوسيلة من وسائل التدعيم والتأييد ، وليس من فرق من حيث الجوهر بين هذا وذاك وليس مما يصح في حال او يمكن ان يرد على بال ولا مما ادعاه احد ان النبي لم يكن يعرفه عن غير طريق الوحي .

وقد بقيت مسألتان قد تبدوان مشكلتين ، اولاهما ما اذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحا في جزئيات وقائعه وحقائق حدوثه ، وثانيتهما ما بين بعض القصص القرآنية المتصلة بنبي او امة من بعض الخلاف مثل وصف عصا موسى بالحيـــة في سورة والثعبان في سورة اخرى ، ومثل ذكر وقت ما كان يقع على بني اسرائيل من فرعون من قتـــل الابناء واستحياء النساء حيث ذكر هذا الوقت في سورة انه قبل بعثة موسى وفي سورة انه بعد بعثته . فنحن كمسلمين نقول ان كل ما احتواه القرآن حق وواجب الايمان وإنا آمنا به كل من عند ربنا ، كما اننا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه انما استهدف العظـة والتذكير فحسب ، وهما لا يتحققان الا فيما هو معروف ومسلم به اجمالا من السامع وان هذا ايضا من الحق الذي انطوى فيه حكمة التنزيل ، وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحد الذي استهدفه القرآن وعدم الاستغراق في ماهياتها على غير طائل ولا ضرورة ، لانها ليست مما يتصل بالاهداف والاسس على ما ذكرناه في مطلع البحث وهـــذا هو الجوهري فيه . وهذا القول يصح على المسألة الثانية مع التنبيه على ان الخلاف ظاهري ويمكن التوفيق فيه وتأويله ، وعلى انه متصل بالماهيات والحقائق التي لم تقصد لذاتها كما كررنا قوله .

ونريد ان ننبه على ظاهرة قرآنية مهمة فيها توكيد لما نقرره واتساق معه ، وبالتالي فيها دليل انسجام في الاساليب القرآنية ومراميها مكية كانت او مدنية . وذلك ان اسلوب القرآن القصصي وهدفه قد اتسقا مع ماورد فيه من ذكر للوقائع الجهادية والمواقف القضائية والحجاجية وغيرها من احداث السيرة النبوية ، بحيث ان الناظر في القرآن يجد ان

ما ورد فيه من ذلك انما ورد بقصد العظة والتذكير والتنبيه والحث والتحذير والارشاد والتعليم والتأديب والتشريع ، ولم يرد باسلوب السرد التاريخي وقصده . وهذا ظاهر من كون تلك الوقائع والمواقف لم تحتو كل الصور والمشاهد والتفصيلات والاحداث ، وانما احتوت ما يحقق ذلك القصد منها . ولعل هذا هو الذي يفسر حكمة عدم ورود ذكر او تفصيل لامور كثيرة من احداث السيرة وفيها ما هو مهم من وقائع جهادية كفتح مكة والطائف وغزوات مشارف الشام ومؤتة واليمن الخ . فالظاهر انه لم يكن فيها امور تستوجب ذلك وتتصل بالقصد المذكور فاقتضت الحكمة عدم انزال شيء في بعضها والاكتفاء بالاشارات العابرة بالنسبة لبعضها الآخر

- ٦ -

الملائكة والجن في القران

سادسا - ان ما ورد من اخبار الملائكة والجن لم يكن هو الآخر غريبا عن السامعين جزئيا او كليا ، وانه من وسائل التدعيم للدعوة واهدافها وليس مقصودا بذاته .

ففي القران آيات عديدة تدل على عقيدة العرب في الملائكة ووجودهم وأنهم موضع امل ورجاء ومصدر بر ورحمة . وقد ذكر القران ان العرب يعتقدون أنهم بنات الله وذوو حظوة لديه وانهم اتخذوهم آلهة وشفعاء ليقربوهم اليه زلفى وقد قرر كذلك أنهم كرام بررة متصلون بالله ومختصون بخدماته لا يعصونه في ما يأمر ويقدسونه ويسبحون بحمده على الدوام . وهكذا يبدو ان ما قرره القرآن عن عقائد العرب فيهم متصل بما قرره عن صفاتهم واعمالهم وصلتهم بالله مع سوء فهم العرب

وباطل تأويلهم لهذه الصلة بما كان سبب الحملة عليهم والتنديد بهم في القران ولقد حكى القران تحدي العرب النبي باستنزال الملائكة ليؤيدوه في دعوته ما دام يقول انها بوحي الله وهذا التحدي متصل بعقيدتهم فيهم وبتقرير القران عنهم كما هو واضح

كذلك في القران ايات عديدة تدل على عقيدة العرب في الجن ووجودهم وانهم مبعث خوف ومصدر اذى وشر ، وانهم كانوا يعوذون بهم ويشركونهم مع الله في العبادة خوفا منهم وتزلفا اليهم وانهم يختلطون في عقول الناس ، وقد قرر القران في صددهم أنهم ذوو أعمال خارقة ومصدر غواية وخبث ، وأن ابليس وجنوده والشياطين الذين ذكروا مرادفين لابليس وجنوده احيانا كثيرة هم منهم ، وانهم يوسوسون في صدور الناس ، ويسترقون السمع من السماء ويلقون بأكاذيبهم الى الافاكين الكاذبين . وهكذا يبدو ان ما قرره القران عن عقائد العرب فيهم متصل بما قرره عن صفاتهم واحوالهم كذلك(١) .

وفي كتب التفسير بيانات كثيرة في صدد الملائكة والجن وابليس وماهياتهم وأعمالهم جاءت في سياق ما ورد عنهم في القران سواء فيما له صلة بعقائد العرب ام بأعمالهم واخبارهم واقوالهم مسهبة حيناً ومقتضبة حيناً اخر ومعزوة الى علماء ورواة معينين حيناً وبدون تعيين حيناً اخر . ومهما يكن من امر هذه البيانات فان من المستبعد ان تكون موضوعة كلها بعد الاسلام ، ونرجح انها احتوت اشياء مما كان يدور في بيئة النبي

---

(١) في كتاب عصر النبي وبيئته قبل البعثة بحثان مستفيضان عن عقائد العرب وتقريرات القرآن عن الملائكة والجن .

عليه السلام حولهم ، وانمـــا مما يمكن ان يستأنس به بان العرب كانوا يتداولون عنهم امورا كثيرة بقطع النظر عن صوابها وخطأها وزيادتها ونقصها، ومن الممكن ان يكون منها ما أتاهم عن الكتابيين لان اسفار التوراة والانجيل تحتوي اشياء كثيرة عنهم ، كما ان من الممكن ان تكون او يكون منها ما هو قديم لان عقيـــدة وجود مخلوقات خفية طيبة وخبيثة من العقائد البشرية القديمة العامة التي تكاد توجد في جميع الامم على اختلاف درجتها في الحضارة .

ومن المتبادر ان ما ورد عن الجن والشياطـــين وابليس من صور قرانية بفيضة ومن حملات على الكفار في سياقها متصل بما في أذهان العرب عنهم ، وبسبيل تقرير كون الانحراف عن الحق والمكابرة فيـه والاستغراق في الاثم والخبائث والانصراف عن دعوة الله هو من تلقيناتهم ووساوسهم ومظهراً من مظاهر الانحراف نحوهم وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة . ومن هنا يأتي الكلام قوياً ملزماً ولاذعاً على ما هو ملموس في مختلف الآيات القرانيـــة ، ويقوم البرهان على أن ذلك هو من الوسائل التدعيمية لاهداف القران وأسس الدعوة النبوية .

ولعل الحكمة الربانية في ما اوحى الله به من استماع نفر من الجن مرتين للنبي مرة في سورة الجن تلهم ان المستمعين يقولون بولد وصاحبة لله سبحانه - وهذا متصل من ناحية بعقائد العرب المشركين ومن ناحية بعقائد النصارى - ومرة في سورة الاحقاف تلهم ان المستمعين يؤمنون بكتاب موسى ومهتدون بكتاب هداه تنطوي من جهـــة ما على قصد التدعيم للرسالة النبوية بالاخبار بايمان بعض طوائف الجن ممن يدين بديانات

مختلفة منزلة وغير منزلة بالرسالة المحمدية ولهم ما لهم في اذهان العرب من صور هائلة .

ومن المتبادر كذلك ان ما ورد عن الملائكة من خضوعهم لله وعدم استكبارهم واستنكارهم واستنكافهم عن عبادته ، واستغراقهم في تنفيذ اوامره ومعرفتهم حدودهم منه ، وعدم عصيان امر له ، وعدم امكان شفاعتهم الا باذنه ورضائه ، ومايكون من امرهم في تلقي الكفار بالعنف والشدة وتلقي المؤمنين بالتطمين والبشرى في الآخرة ، وما كان من امرهم من المسارعة إلى السجود لآدم تنفيذاً لاوامر الله بينما تمرد ابليس عن ذلك متصل هو الآخر بذلك القصد في بيان واقع الملائكة الذين لهم في اذهان العرب تلك الصور العظيمة الفخمة ، وان الكلام من هذه الناحية يأتي هو الاخر ملزما ومرهبا للكفار ، ومطمئنا ومثبتا للمسلمين ، ويقوم البرهان على ان ذلك هو من الوسائل التدعيمية لاهداف القرآن واسس الدعوة النبوية.

ولعل المتمعن في الآيات التي جاء فيها ذكر الملائكة والجن وابليس والشياطين واعمالهم وتنوعها من جهة وما هنالك من آيات وجمل قرآنية عديدة فيها تقريرات حاسمة عن احاطة الله بكل شيء في كل آن ، وشمول قدرته لكل شيء ، واستغنائه عن كل عون في تصريف ملكوت السماوات والارض يلهم الناظر في القرآن ايضا ان تلك الآيات مع اتصالها بما في اذهان السامعين من صور قد جاءت بسبيل التقريب والتمثيل للناس الذين اعتادوا ان يروا الوسائل والوسائط في متنوع الاعمال ووجوه الحياة ، ويعتبروها مظهراً من مظاهر العظمة والاحاطة ولا يدركوا المجردات ادراكا صحيحا .

فمن هذه الشروح يبدو واضحا كما هو المتبادر أن ما ورد عن الملائكة والجن ، انما استهدف كما قلنا التدعيم للدعوة النبوية وأهداف التنزيل القرآني اولا وليس هو مقصوداً بذاته ثانيا ، وانه قائم على حكمة التدعيم بما هو معروف متداول ثالثا ، وان في ذلك تدليلا على اهمية ملاحظة ذلك في سياق النظر في القرآن تدبراً وفهما وتفسيراً ، لان من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر فيه في الماهيات والكيفيات لذاتها من مثل خلقة الملائكة والجن وكيفية اتصالهم بالله والناس وقيامهم بأوامره على اعتبار أن هذه الماهيات والكيفيات غير مقصودة لذاتها اولا ولا طائل من وراء التنقيب والاستغراق فيها لانها ليس مما يدخل في نطاق الاسس والاهداف ثانيا ، كما انها ليس مما يدخل في نطاق المشهودات والملموسات المادية ثالثا ولا سبيل الى فهمها بالادراك البشري العـــادي رابعا ، وليست هي الا حقائق ايمانية غيبية خامسا ، ولان من شأنها كذلك ان تغني الناظر في القرآن عن التكلف والتجوز والتخمين والتوفيق في صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق والكيفيات لذاتها ، وان تجعله يقف منها عند حد ما وقفه القرآن ، ويبقى القرآن في نطاق قدسيته من الارشاد والموعظة والهدى ، ولا يخرج به الى ساحة البحث التي من طبيعتها الاخـذ والرد والنقاش والجدال والجرح والتعديل الخ .

مشاهدات الكون ونواميسه :

سابعا : ان ما ورد في القرآن من مشـــاهد الكون ونواميسه قد استهدف لفت نظر السامعين الى عظمة الله وسعة ملكوته وبديع صنعه واتقانه بقصد تأييد هدف رئيسي من اهداف الدعوة وهو وجوب وجود الله واتصافه بأكمل الصفات وتنزهه عن الشوائب ، واستغنائه عن الولد والشريك والنصير والمساعد ، ووحدته وانفراده في الربوبية ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه والدعاء ، ومطلق تصرفه وشمول علمه وإحاطته بكل شيء دق او عظم ، وحكمته السامية في خلق الكون على اسس النواميس التي شاءت قدرته ان تقوم عليها ، ثم بقصد بث هيبة الله في قلوب السامعين وحفزهم على الاستجـــابة الى دعوة نبيه والانصياع لاوامره ونواهيه ، والتزام حدوده ، وبتعبير اجمالي آخر قد استهدف العظة والارشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون ان ينطوي على قصد تقرير ماهيات الكون واطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية .

وحكمة هذا واضحة ، فالقرآن خاطب الناس جميعاً على تفـــاوت مداركهم وأذهانهم ، وقصد الموعظة والارشاد والتنبيه والهدي هو القدر المشترك بينهم من جهـــة ، وهو الاصل في القرآن والمتسق مع طبيعته ومداه من جهة اخرى ، بحيث يمتد لكل دور ومكان ، وتجاه اعلم العلماء وأبسط البسطاء ، كما ان شواهده قائمة في آيات القرآن وفصوله واسلوبه

ايضا سواء اكان ذلك في كيفية التعبير والسياق أم في تنوعها مما هو منبث في مختلف السور وخاصة المكية منها لان هذه هي التي انزلت في ظروف الدعوة التي تقتضيها .

ولعل في تعبير الاوتاد عن الجبـــال ، والسقف المبني عن السماء ، والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن النجوم وجريان الشمس ومنازل القمر ، والسراج الوهاج الأولى ، والمصباح المنير الثاني ، وفي ذكر انزال الماء من السماء ، وتسيير السحاب وتصريف الرياح ، وارسال الرعد والبرق والصواعق ، وانبات مختلف الزروع والاشجار ، وتســخير الدواب والانعام ، وتيسير البحار والانهار والفلك ، وجعل الارض بســـاطا ، وتصويرها مركزا الكون والانسان ، قطبا للارض ، حيث سخر له كل ما في السماوات والارض ، واسبغت عليه نعم الله ظاهرة وباطنة ، وسواه الله بيده ونفخ فيه من روحه اتساقا واضحا مفهوما مع مشاهد ومدركات مختلف فئات الناس الذين يوجه اليهم الكلام ، وبالتالي لعل في ذلك دلالات على ما استهدف من هذه التعابير القرآنية مما ذكرناه آنفا .

وفي القرآن تشبيهات وامثلة وتذكيرات متنوعة المضامين والسياق فيها ذلك الاتساق وهذه الدلالات واضحة جلية إذا ما انعم النظر فيها .

وإنه ليصح ان يقال بالاضافة الى ما تقدم وبناء عليه ان المضامين القرآنية في هذه المواضيع متسقة مع ما في أذهان سامعي القرآن عن مظاهر الكون ومشاهده ونواميسه ، وتجلي عظمة الله وقدرته فيها . وهذه النقطة متصلة بالمبدأ العام الذي ما فتئنا نقرره من ان القرآن خاطب النـاس بما يتسق مع ما في اذهانهم اجمالا من صور ومعارف لما يكون من قوة اثر الخطاب فيهم بمثل هذا الاسلوب .

وملاحظة ذلك جوهرية جدا لانها تجعل الناظر في القرآن يقف من الفصول الواردة في هذا الباب فيه عند الحد الذي استهدفته والذي اشرنا إليه ، وتحول بينه وبين التكلف والتجوز والتخمين والتزيد ومحاولة استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون ونواميسه واطواره منها ، والتمحل والتوفيق والتطبيق بما يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته من الوعظ والارشاد ولفت النظر وبث الهيبة والاستشعار بعظمة الله والتزام حدوده إلى مجال البحث وتعريضه لطبيعة هذا المجال من الجدل والنقاش والتعارض والاخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة ولا اتساق مع هدف القرآن وطبيعته .

وبالاضافة الى هذا الذي يتسق مع الهدف والمضمون والمدى القرآني فيما هو المتبادر فان لملاحظة ذلك فائدة عظيمة لذاتها ، حيث تجعل المسلم غير مقيد بنظريات كونية معينة بوهم انها مستندة الى القرآن ومستخرجة منه - مع ما في هذا دائما من تمحل - وتبقيه حراً طليقاً في ساحات العلوم والفنون ونظرياتها وتطوراتها وتطبيقاتها فلا يختلط عليه الامر ولا يصطدم في السير ، ويكون كل ما يجب عليه ان يظل من ذلك ان يظل في حدود الاسس والاهداف والمبادي والمثل العليا وفي نطاق اركان الايمان العامة التي قررها القرآن ، وحيث يظل قصد القرآن ومداه ومفهومه سليماً في جميع الادوار ، يخاطب بآياته وفصوله مختلف الفئات في مختلف الازمنة فيثير فيهم الاجلال والهيبة والاذعان سواء كانوا علماء او بسطاء . وهو قصد القرآن الجوهري من دون ريب .

- ٨ -

الحياة الاخروية في القرآن :

ثامناً : ان ما ورد في القرآن عن الحياة الاخروية واعلامها ومشاهدها وصورها واهوالها وعذابها ونعيمها قد ورد بأسلوب منسجم مع مفهومات السامعين ومألوفاتهم ، ومتناول ادراكهم وحسهم ، وخاصة العرب الذين كانوا اول المخاطبين به ، وانه ورد بالاسلوب الذي ورد به على سبيل التقريب ، واستهدف فيما استهدفه إثارة الخوف والرهبة في نفوس الضالين حتى يرعووا ويستقيموا ، وبث الاغتباط والطمأنينة في نفوس المؤمنين الصالحين حتى يثبتوا في الطريق القويم الذي اهتدوا اليه .

وحكمة هذا واضحة هي الاخرى ، فالقصد القرآني في أصله هو دعوة الناس الى الله وطريق الحق والخير والهدى ، وتحذيرهم من الضلال والانحراف والاثم ، وانذارهم وتبشيرهم بالحياة الاخرى التي يوفى فيها كل منهم بما فعل من خير أو شر بما يستحقه . وهذا الاسلوب وسيلة من وسائل تأييد القصد وتدعيمه ، لان ما يراد اثارته في نفوس الناس لا يتم الا اذا جاء بالاوصاف التي يستطيعون ان يحسوها ويدركوا مداها احساسا وادراكا متصلين بتجاربه ومشاهداته ومألوفاته بطبيعة الحال .

فاذا ذكر في سياق مشاهد يوم الحساب بما فيه من صور مجالس القضاء والخصوم والشهود والاتهام والمحاورات الدفاعية والكتب والوثائق المدونة ففي ذلك صور دنيوية مألوفة للسامع يستطيع ادراك مداها والتأثر بها . واذا ذكر ان الجبال تتفتت وتصبح كالهباء والعهن المنفوش ، والارض تحمل وتدك ، والسماء تنفطر وتنشق ، والكواكب تنتثر وتتكدر وتنطفىء ، والبحار تتفجر ، والعشار تعطل ، والوحوش تحشر

والولدان يصيرون شيبا ، ففي ذلك صور هول لا يمكن السامع الا ان يتأثر بها ويدرك مداها ، ولا سيما تبدل مشاهد الكون الماثلة عظمتها في الذهن واذا ذكر في أوصاف النعيم ما ذكر من جنات فيها انهار جارية وسرر موضوعة ، وفرش مرفوعة ، ومجالس شراب انيقة ، وظلال وارفه وقطوف دانية ، وولدان مخلدون كاللؤلؤ المكنون يطوفون بالاباريق الفضية البراقة الشفافة ، والكؤوس الممزوجة بالكافور والزنجبيل ، وفواكه كثيرة مما تختاره النفوس ، ولحوم طير متنوعة مما تشتهيه ، وصحاف الذهب والفضة يتناول فيها اصحاب النعيم طعامهم ، وثياب الحرير والاستبرق والسندس يلبسونها ، وحلى اللؤلؤ والاساور الذهبية والفضية يتزينون بها وحور عين كالبيض المكنون يستمتعون بها الخ ،فلا يمكن الا أن يتأثر بها السامعون ويفهموا مداها وتتوق اليها نفوسهم لانها منتهى ما تصبو اليه النفوس والعرب خاصة من نعيم وهناء وحبور يعرفون صورها في الدنيا معرفة مشاهدة او استمتاع او سماع . واذا ذكر في أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة شررها كقطع الحطب الضخمة ولهبا كالجبال ، لا ماء فيها الا الحار الشديد الحرارة (الحميم) ولا ظل فيها الا ظل المساكن التي لا تحجب حرارة ويكون الظل فيها كوهج النار ، ولا هواء فيها الا الريح السموم ، ولا شراب فيها الا الغسلين والغساق ، ولا طعام فيها الا الزقوم والضريع ، فان السامعين والعرب خاصة لا يمكن الا أن يتأثروا بها ويفهموا مداها لانها منتهى ما تهلع له قلوبهم وتتكره منه نفوسهم من عذاب وبلاء متصل وصفها بالمشاهد والمعاني الدنيوية المألوفة او المتصورة لديهم .

واذا كان هناك شيء من الاستثناء مثل انهار الخمر والعسل واللبن

ووصف عرض الجنات بعرض السماوات والارض فالاسلوب قوي الدلالة على انه قد جاء في معرض التفخيم والتشبيه بماهو مألوف في كلام السامعين والعرب خاصة وأساليب لغاتهم وخطابهم .

وقد اختصصنا السامع العربي بالذكر لان كثيراً من الاوصاف والالفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية والبيئة العربية بنوع خاص ، بل وربما على الحياة والبيئة في الحجاز بنوع أخص . وهذا في ذاته قرينة قوية قائمة على ما نقرره .

ولعل في تنوع الاوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة واهوالها ونعيمها وعذابها قرينة او دليلا على صواب ما نقرره ، فالجبال مثلا في جملة قرآنية تسير سير السحاب ، وفي اخرى تنسف نسفا ، وفي اخرى كثيب مهيل ، وفي اخرى كالعهن المنفوش ، وفي اخرى كالهباء المنثور ، والسماء في جملة قرآنية تفتّح ابوابا وفي اخرى تنشقق ، وفي اخرى تكسف ، والنجوم في جملة تنتثر وفي اخرى تنطمس ، والشمس في جملة تتكور ، وفي اخرى تجمع مع القمر ، وبينما السماء تتبدل نواميسها ومشاهدها مستقلة عن الارض في جملة ، والارض تدك في جملة تحمل الارض والسماء فتدك دكة واحدة في جملة اخرى ، وتبدل الارض غير الارض والسماوات غير السماوات في جملة اخرى كذلك ، الى الخ ، والكافرون في جملة يدافعون عن أنفسهم في جملة ، ويوردون متنوع الاعذار في جملة ، ويجري انواع الحوار بين بعضهم او بينهم وبين الملائكة أو بينهم وبين الله في جمل بينما لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يتساءلون في جمل اخرى ، وفي جملة ينفخ في الصور وفي اخرى ينقر في الناقور ، وفي جملة ليس للكافرين طعام الا من ضريع وفي اخرى ان

شجرة الزقوم طعام الاثيم ، وفي اخرى ليس لهم طعام من غسلين ، وفي جملة يحشرون وقد كشف عنهم غطاؤهم واصبح بصرهم حديداً وفي اخرى يحشرون عمياً ويسألون الله عن ذلك مع انهم كانوا في الدنيا مبصرين الخ . هذا بالاضافة الى تنوع أوصاف النعيم حيث تأتي في بعض الفصول بسيطة متسقة مع الحياة العادية الدنيوية كما في سورة الغاشية بينما تأتي في اخرى في غاية الاناقة والفخامة مع اتصالها بمعاني ومشاهد الدنيا كما في سورتي الانسان والواقعة مثلا ، وهذا عدا التنوع في الجزئيات حيث تكون الصحاف والاساور في جمل من فضة بينما تكون في اخرى من ذهب ، وحيث يذكر في جملة الحلى الذهبية ، وفي اخرى الحلى الفضية ، وفي اخرى الحلى اللؤلؤية ، وحيث تشبه الحور العين في جملة بالياقوت والمرجان بينما تشبه في اخرى بالبيض المكنون اي اللؤلؤ الخ .

ومع تقريره ان الايمان باليوم الاخر وحسابه ونعيمه وعذابه واجب وانه ركن من اركان العقيدة الاسلامية ، وأن حكمة الله في ذلك قائمة في قصد توفية الناس أعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، وفي تقرير ان الله لم يخلق الكون عبثا فان ملاحظة ما قدمناه جوهرية مثل سابقاتها لان من شأنها ان تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الاخروية وصورها ، والتورط والتكلف والتزيد في صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق لذاتها ، ويذكر ان هدف القرآن في ما جاء من التعابير والاوصاف هو العظة والتنبيه وايقاظ الضمائر ليرعوي الضال عن ضلاله ويثبت المهتدي في طريقه بأسلوب يتسق مع متناول احساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألوفاتهم ويثير فيهم الرهبة من العاقبة ، ويتذكر ان ماهية هذه الحياة وحقيقتها

مغيبتان لا يستطاع فهم شيء عنها الا بالأوصاف الدنيوية ، وان حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الاوصاف على سبيل التقريب والتشبيه .

واذا كانت الحياة الاخروية ومشاهدها وأوصافها وصورها المتنوعة قد شغلت حيزاً كبيرا في القرآن حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكرها أو الاشارة اليها بشكل ما فان مرد ذلك - على كونه من خصوصيات القرآن - الى ان هذه الحيـــاة من اقوى الدعائم الانذارية والتبشيرية القرآنية لاهداف القرآن وأسس دعوته واشدها تأثيراً واثارة لانها تمثل عالم ما بعد الموت الذي لا يكاد يخلو إنســـان في أي دور من استشعار الرهبة منه من جهة ، ومن العقائد الايمانية الاسلامية من جهة ، ولانها كانت من المواضيع الرئيسية أو بالاحرى أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة واستمرار بين النبي ومشركي العرب مما له صلة بظروف الدعوة النبوية من جهة .

- ٩ -

ذات الله في القرآن :

تاسعاً : ان ما ورد في القرآن مما يتصل بذات الله السامية من تعابير اليد والقبضة واليمين والشمال والوجه والاستواء والنزول والمجيء وفوق وتحت وأمام وطي وقبض ونفخ ، اغاجاء بالأسلوب والتعابير والتسميات التي جاءت به من قبيل التقريب لأذهان السامعين الذين اعتادوا أن يفهموا منها معاني القوة والاحاطة والشمول والحضور والحركة الدائمة والصفات التي لا تتم هذه المعاني إلا بها .

ولقد ورد في القرآن عبارات « ليس كمثله شيء » و « لا تدركه الأبصار » و « لا يحيطون بشيء من علمه » يصح أن تكون ضوابط

حاسمة في صدد الذات الالهية ، وتنطوي على قرينة على صحة ما ذكرناه آنفاً في مدى تلك التعابير . ولعل هذه الضوابط تشمل كل ما ورد في صدد الذات السامية من اسماء وأفعال وصفات أخرى قد توهم مماثلة لاسماء وصفات وأفعال البشر ايضا ، حيث يصح ان يقال إن ورودها في القرآن انما جاء كذلك على سبيل التقريب والتشبيه . فالله سميع ولكن ليس كمثل سمعه شيء ، وبصير وليس كمثل بصره شيء ، ومتكلم وليس كمثل تكلمه شيء ، وهو حي وعليم ومريد وقوي وحكيم وصبور وقابض وباسط وليس كمثل حياته وعلمه وإرادته وقوته وحكمته وصبره وقبضه وبسطه شيء .

والمتمعن في الآيات القرآنية التي وردت فيها تلك التعـــابير وهذه الاسماء والصفات مضموناً او اسلوبا وسياقا يجدها قد استهدفت من جهة تقرير معاني القوة والاحاطة والشمول والقدرة والوجود الدائم الشامل ، ومن جهة اخرى تقرير احسن الاسماء والصفات الدالة على اكمل الحالات واتم المعاني اللائقة بالذات الالهية بما تتسع له لغة البشر التي نزل القرآن بها . ولعل التنوع الموجود في التعابير القرآنية مما يقوم قرينة قوية على صحة ما نقرره .

وملاحظة هذا مهمة جداً من شأنها ان تحول دون استغراق الناظر في القرآن في التكلف والتجوز والتخمين والماهيات من جهة ، ودون تورطه في الجدل الكلامي على غير طائل ولا ضرورة من جهة أخرى ، وتجعله يقف من هذه التعابير والاسماء والصفات عند الحـــد الذي وقف عنده القرآن ، ويفهم منها الاهداف التي استهدف تقريرها بها دون تزيد ولا تكلف ولا تمحل .

على أن الناظر في اساليب القرآن المتنوعة يجدها في هذا الصدد كما هو الشأن في ما يتصل بمشاهد الكون والآخرة واخبار الامم السابقة وأنبيائهم والجن والملائكة أسلوب الحكيم الذي لا يدخل في نقـــاش وجدل وتقريرات كلامية ، ويتسق مع طبائع الاشيـاء من حيث انه يخاطب أناسا متفـاوتين متنوعين في اذهـانهم وظروفهم ، المهم والجوهري من أمرهم دعوتهم الى الخير واصلاحهم وتوجيهم الى احسن الوجهات، وتقريب الامور والمعاني إلى عقولهم بأساليب سائغة منسجمة مع مداركهم ، واعطاء كل موضوع في كل موضع ما يتحمله لتدعيم هذه الدعوة وتأييدها وجعلها مؤثرة نافذة، وفي ذلك من دون ريب تعليم للطريقة الفضلى التي يجب الاخذ بها ازاء التعابير والاساليب القرآنية .

- ١٠ -

تسلسل الفصول القرآنية وسياقها :

عاشراً : إن اكثر الفصول والمجموعات في السور القرآنية متصلة السياق ترتيباً او موضوعا أو سبكاً أو نزولاً، وان فهم مداها ومعانيها وظروفها الزمنية والموضوعية وخصوصياتها وعمومياتها وتلقينها وتوجيهها وأحكامها فهما صحيحا لا يتيسر إلا بملاحظة تسلسل السياق والتناسب ، وان في اخذ القرآن آية آية أو عبارة عبارة أو كلمة كلمـــة بتراً لوحدة السياق في كثير من المواقف والمواضيع ، وهو مؤد الى التشويش على صحة التفهم والتدبر والاحاطة أو على حقيقة ومدى الهدف القرآني .

ولتمثيل ذلك وإيضاحه نذكر آية الصافات (٩٦) « والله خلقكم وما تعملون » فهذه الآية كثيراً ما تورد في معرض الحجاج والبرهنة في بعض المذاهب الكلامية على ان القرآن ينص على ان الله قد خلق اعمال

الناس ، وبطلان القول الذي يقوله بعض المذاهب الكلامية الاخرى بأن الانسان خالق أفعال نفسه ومسئول عن تبعتها . فبقطع النظر عن هذا الموضوع الكلامي الخلافي فان الذين يوردون الآية في معرض الحجاج والبرهان قلما يلحظون أنها ليست تقريراً ربانيا مبـــاشراً في صدد خلق الناس وخلق اعمالهم ، وبالتـالي في صدد الموضوع الـكلامي ، وإنما هي جزء من سلسلة تتضمن حكاية قول ابراهيم لقومه في سياق التنديد بهم ، لأنهم يعبدون ما ينحتون من الاصنام مع ان الله كما خلقهم خلق المادة التي يعملونها أي ينحتونها اصناما ليعبدوها ، وهي السلسلة ٨٣ - ١١٣ من السورة . فالآية هي جزء من حكاية أقوال ابراهيم ، ولو لوحظ السياق جميعه لما كان هناك محل لاقتطاع هذه الآية وحدها من السلسلة وتلقيها كتقرير رباني مباشر بخلق اعمال الناس ، كما ان من الواضح مع ملاحظة جزئية الآية من السلسلة أنها لا تصح ان تورد في معرض البرهان الذي تورد فيه ، هذا بقطع النظر عما ورد في السلسلة نفسها من نسبة العبادة والنحت والالقـــاء وارادة الكيد الخ الى قوم ابراهيم وتقرير صدور هذه الاعمال عنهم . .

ونذكر جملة « وقاتلوا المشركين كافة » في آية التوبة (٣٦) فكثير من المفسرين يفسرونها منفردة ويصفونها بأنها آية السيف ويقولون إنها نسخت كل ما جاء في القرآن من عدم قتال غير المعتدين والمقـاتلين من المشركين ، وبذلك ينسخون آيات محكمة في هذا الصدد ، مع ان في الآية فقرة أخرى مرتبطة أشد الارتباط بها ومحتوية التعليل الرائع المعقول المتسق مع طبيعة الامور للامر الذي تضمنته بقتال المشركين كافه وهي « كما يقاتلونكم كافة » فلو لوحظ ذلك ولم تجزأ الآية لـما كان محل لذلك

التفسير والوصف والقول حيث يبدو واضحا أنها في معرض حث المسلمين على قتال المشركين المحاربين مجتمعين وإلبا واحداً كما يقاتلونهم كذلك ولزال الاشكال الذي ينشأ عن هذا التفسير ويؤدي الى نسخ احكام وايات محكمة متسقة مع مبادىء القرآن ومثله السامية ، ومع طبائع الامور ووقائع السيرة النبوية المؤيدة بالآيات من جهة والاحاديث من جهة أخرى ونعني حصر القتال في الاعداء المقاتلين او المعتدين دون المشركين والكفار المعاهدين الموفين بعهدهم والمحايدين والمسالمين والعاجزين والنساء والاطفال مما يقتضي قتالهم جميعا وفاق ذلك التفسير .

ونذكر آية المجادلة الثالثة كمثل ثالث ، وهي التي جاء فيها « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » فكثير من المفسرين ينظرون الى هذه الآية مستقلة عن سابقتها ويحارون في تأويل جملة « ثم يعودون لما قالوا » حتى قال غير واحد منهم ان الجملة من مشكلات القران ، واضطروا الى اعتبار « لما » بمعنى « عن ما » وقالوا إن الجملة تعني « ثم يرجعون عن ما قالوا عنه ويرغبون في معاشرة ازواجهم » او الى تأويلات أخرى ، هذا مع ان هذه الاية متصلة كل الاتصال بسابقتها التي جاء فيها (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم إن امهاتهم اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور) . فلو لوحظ ذلك لما كان هناك محل لهذه الحيرة والاشكال والتأويل . فالاية الاولى نددت بالمظاهرين والظهار وعدته عملا منكراً ثم انتهت بقطع (وان الله لعفو غفور) فكأنما تقدمت باستنكار الظهار من حيث المبدأ وتقرر أن الله يعفو ويغفر للمظاهرين قبل نزول هذا الاستنكار وبالتالي قبل نزول الايتين على اعتبار انه لم

يكن مستنكراً ومنهياً عنه ثم اعقبتهـــا الثانية لتقرر الحكم الاسلامي فالذين يعودون الى ما نهوا عنه واستُنكر اي الظهار بعد ذلك الاستنكار والوصف تجب عليهم الكفارة قبل معاشرة أزواجهم لانهم يكونون قد أتوا بعمل عده القران منكراً وزوراً . وطبيعي ان الحكم الاسلامي صار حكما ملزماً لكل مظاهر وان العفو عن المظاهر ظل خاصاً بمـــن ظـاهر قبل نزول الآية الاولى وهي حالة خصوصية الزمن لا تتكرر .
ولقد احتوت السورة نفسها نفس الحروف في الاية (٨) التي جاء فيها (ألم تر الي الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ، واذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير) حيث يأتي المعنى فيها واضحاً بأن العودة هي لما نهي عنه وان الوعيد هو للعائدين الي التناجي بعد النهي عنه ، ولا فرق بين الجملتين كما هو ظاهر .

وهناك أمثلة كثيرة اخرى بالنسبة لايات واردة في السور الطويلة والمتوسطة مما نبهنا عليه في سياق التفسير . فبينما تكون المجموعة او الفصل القراني مفهومـــاً سائغاً يبدو عليه الانسجام والترابط التامان سبكا وموضوعا اذا قرىء ونظر فيه ككل اضطرب على الناظر في القرآن فهمه وقامت في ذهنه بلبلة او مشكلة او حيرة في مداه ومـــدلوله إذا اخذه اية اية او عبارة عبارة .

ومما يجدر التنبيه عليه في هـذا المقام ان هناك روايات كثيرة تورد كأسباب لنزول آيات منفردة او جزء من آية في حين ان سياق الاية ومفهومها لا يتفقان مع الرواية كسبب النزول، ويلهمان ان الاية منسجمة

الأجزاء ، وأنها متصلة اتصالا وثيقا بما قبلها أو بعدها في السياق ، وكل ما يمكن فرضه في امر الرواية في حالة صحتها أن تكون الآية أوردت على سبيل الاستشهاد على حادث ما وقع بعد نزولها ، او يكون الحادث قد وقع قبل نزولها بمدة ما فجاءت الاشارة اليه في السياق العام الذي أتت فيه الآية على سبيل التشريع او التذكير أو التنديد او التنبيه لو العظة الخ ، فالتبس الامر على الراوي وظن ان الحادث هو سبب النزول.

فقد روي مثلا عن ابن مسعود قوله : « لما امرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء ابو عقيل بنصف صاع وجاء انسان بأكثر منه فقال المنافقون ان الله لغني عن صدقة ذلك وإن ما فعله الاخر ليس الا رياء » فنزلت « الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين بالصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . التوبة ٧٩

فهذه الرواية توهم ان الاية نزلت منفردة بسبب هذا الحادث مع انها متصلة بسياق عام سابق ولاحق بها أشد الاتصال ، وان في السياق قرائن تدل على ان الفصل الطويل الذي تقع فيه هذه الاية (٣٨ - ٩٩) قد نزل كله أو جله في أثناء غزوة تبوك وظروفها وسببها .

وهناك رواية اخرى في البخاري عن ابن مسعود أن رجلين من قريش وختنا لهما من ثقيف كانوا في بيت فقال بعضهم لبعض أترون ان الله يسمع حديثنا قال بعضهم يسمع بعضه وقال بعضهم لئن كان يسمع بعضه لقد يسمعه كله فنزلت الاية « وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . . فصلت ٢٢

مع ان الاية متصلة بسياق يحكي فيه محاورة في الاخرة بين الكفار

وبين اعضاء ابدانهم التي تشهد عليهم اشد الاتصال وليس هناك تطابق ما بين مفهوم الرواية وعبارة الاية .

والفصول الاولى من سورة النساء من مواريث وأنكحة مترابطة ومنسجمة ، والاية الاولى في السورة بمثابة براعة استهلال لما تضمنته من هذه الفصول ، وروح آيات الفصول يلهم أنها وحدة تشريعية ، في حين أن هناك روايات تكاد تجعل لكل آية مناسبة نزول مستقلة وتوهم انها نزلت منفردة بسببها . ويقال هذا في فصول سورة الحجرات ايضا . وامثال ذلك كثيرة جداً نبهنا عليها في سياق التفسير .

فملاحظة السياق والتناسب والترابط بين الفصول والمجموعات القرآنية ضرورية ومفيدة جداً في فهم مدى القرآن ومواضيعه وأهدافه من جهة وفي لمس ناحية من نواحي الروعة والاعجاز والاتقان فيه ، لانها يظهران الناظر في القرآن على ما هو عليـــه من ترتيب وانسجام وترابط نظما وموضوعا من جهة ثانية ، وعلى نقاط الضعف في روايات كثيرة وردت في سياق الايات القرآنية وخاصة في مكية بعض الايات في السور المدنية ومدنية بعض الايات في السور المكية من جهة ثالثة ، وتزيلات ما هو عالق في الذهن خطأ من ان الفصول القرآنية فوضى لا ترتيب ولا انسجام بينها من جهة رابعة .

ومن فوائد هذه الملاحظة المهمة إزالة وهم التعـارض والتنـاقض في نصوص القران وتقريراته المتكررة بأسـاليب متنوعة حسب المواقف والمناسبات وخاصة في القصص والمواعظ والانذار والتبشير والمشـاهد الكونية والاخروية ، وبنوع أخص في عبارات جعل الهداية والضلال والكفر والايمان وتزيين الاعمال والطبع على القلب وتسليط الشياطين

والأغواء ومسئولية الانسان من عمله وحكمة الله في عدم خلق الناس أمة واحدة الخ ، ففي تدبر سياق كل مناسبة وكل جملة قرآنية من هذا القبيل يمكن أن يلمح الناظر في القرآن حكمة وروده كل منها بالاسلوب الذي وردت به والمناسبة التي جاء فيها والمعنى الذي أريد منها والهدف الذي استهدفه ، وكل هذا قد يكون متنوعا بتنوع المواقف والاساليب والمضامين والسياق ، فيطمئن بسلامة المعنى وحكمة النص الوارد في السياق الذي ورد فيه ، ويزول وهم التعارض والتناقض وما يؤدي اليه من الحيرة احيانا ، ويحمل عليه من التكلف والتجوز والتخريج والجدل على غير ضرورة ولا طائل وعلى غير اتساق مع الهدف القرآني ونطاقه.

فأنت مثلا اذا اخذت جملة « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » في آية فاطر (٨) وجملة « كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » في اية المدثر (٣١) وقعت في حيرة لان هناك آيات كثيرة جاء في بعضها « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . الكهف ٢٩

وفي بعضها « قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » . يونس ١٠٨

ولكنك إذا قرأت سياق آيتي فاطر والمدثر كوحدة (٣ — ١٠ فاطر) و (١ — ٣١ المدثر) ظهر لك المعنى سائغاً مفهوما ، وبدا لك أنهما استهدفتا فيما استهدفتاه التنديد بالكافرين والضالين والحملة عليهم من جهة والتنويه بالمؤمنين الصالحين وتطمينهم وتبشيرهم من جهة وتسلية النبي فيما ألم به من حزن وحسرة على مكابرة الكافرين وعنادهم من جهة ، بل ظهر لك أن تلك المعاني التي تقررها ايات الكهف ويونس منطوية في نفس سياق جملتي سورتي فاطر والمدثر حيث احتوى سياق اية فاطر « يا ايها

الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين امنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أفمن زين له سوء عمله فراه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . وحيث احتوى سياق اية المدثر « إنها لاحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » . ويطرد هذا في امثال كثيرة مثل اية البقرة (١٦) مع سياقها واية النحل (٩٣) مع سياقها واية القصص (٥٦) مع سياقها واية يونس (٩٩ - ١٠٠) مع سياقها الخ مما عليه في التفسير عند مناسباته .

وأنت اذا اخذت مثلا جملة « إنا جعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفي اذانهم وقراً وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابداً » في سورة الكهف الاية ٥٨ لحدتها وجدت نفسك امام مشكلة محيرة لانها توهم ان الله قد صرف الكفار عن فهم القران والتأثر به وحتم عليهم عدم الاجابة والاهتداء ، ولكنك إذا تدبرت سياق الاية جميعه (الايات ٤٥ - ٥٩) بل اول الاية التي وردت فيها ظهر لك قصد وصف مكابرة الكفار وعنادهم والتسرية عن النبي ازاء هذه المكابرة والعناد ..ويطرد هذا كذلك في امثال كثيرة كآيات هود ١١٨ والرعد ٣١ والبقرة ٧ و يس ٩ وسياقها .

ونقول استطرادا إن هذه الامثلة قد كانت موضوع أخذ وردوجدل في كتب التفسير بسبب صلتها بالموضوع الخلافي الكلامي في صدد فعل الانسان وكسبه وارادته ، حيث ذهب فريق الى مايفيد ان الانسان مجبور على افعاله وانها محتمة عليه في الازل لا معدى له عنها ولا اختيار له فيها من كفر وايمان وفساد وصلاح وشر وخير ، وان العقاب والثواب

ينالان الناس بمحض مشيئة الله وفضله ، ولا صلة ولا اثر لاعمالهم فيهما في حقيقة الامر ، وحيث ذهب فريق اخر إلى ما يفيد أن الانسان خالق أفعال نفسه فيؤمن ويكفر ويفسق ويصلح بارادته واختياره ، وان الله لا يصح عليه إرادة الكفر والفسق من العبد ولا تقديرها عليه ، بل ولا يصح ان يكون مريداً للقبيح وانه يجب عليه الاصلح لعباده ، وأن الانسان يعاقب ويثاب على أفعاله حقاً وعدلا ، وحيث توسط فريق فذهب إلى ما يفيد أن الله هو خالق أفعال عباده من كفر وايمان وعصيان وطاعة ومنكرات وصالحات، وكل بارادته ومشيئته وقضائه وتقديره في حدود عموم تأثير صفاته الازلية ، وان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء بمعنى خلقه الضلال والهدى ، وانه لا يجب عليه الاصلح ، وقرروا مع ذلك للانسان فعلا اختياريا يثاب عليه إذا كان طاعة وصلاحا ويعاقب عليه اذا كان معصية وفساداً ، وقالوا ان معنى ان الله أراد من الكافر كفره ومن الفاسق فسقه ومن المؤمن ايمانه ومن الطائع طاعته أنه ارادها باختيار الناس وكسبهم ، وتشاد الجميع حول هذه المواضيع كل يؤيد رأيه ويرد على رأي الاخرين بأساليب جدلية من جهة وعبارات قرانية من جهة أخرى مقتطعة من ايات او سياق دون تدبر في بقية الاية او السياق ، ويؤول ما هناك من نصوص تناقض رأيه في ظاهرها ولا تتسق معه على ما هو مبسوط في كتب المتكلمين المسلمين على اختلاف مذاهبهم .

والموضوع في أصله اي كون الانسان مخيرا أو مسيراً عريض وموضوع جدلي عام لا ينحصر التشاد حوله في المذاهب الاسلامية الكلامية وله جبهات متنوعة ولا يدخل التبسط فيه في موضوع هذا الكتاب ، غير ان المقام يتحمل بعض القول بسبب ما احتواه القران من ايات

كثيرة جداً اتخذها علماء المذاهب الكلامية الاسلامية مستندا لمذاهبهم المختلفة في هذا الموضوع. ومع ان من المسلم به أن النصوص القرانية هي سند رئيسي في العقائد والشرائع والاحكام الاسلامية فالذي نعتقده أن الناظر في الايات القرانية إذا اخذ المجموعة القرانية وحدة ولم يغفل سياقها وظروف نزولها وهدفها، ولم يقتطع منها الجمل وينظر فيها على حدة كما يفعل اصحاب المذاهب الكلامية في تشادهم ومجادلاتهم فيما بينهم – وهذا هو موضوع هذا المبحث في الاصل – يستطيع ان يتبين اهداف القران في العبارات الواردة تبينا يزول معه من نفسه ما قد يقوم من وهم التعارض والتناقض في اياته، والقران بريء من التعارض والتناقض بنص صريح فيه جاء في اية النساء ٨٢ وأفلا يتدبرون القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيراً. ويجد حلا لما يبدو من إشكال وتعليلا سائغا لما يوهم ظاهره من معان متعارضة فيه، ويظهر له ان كثيراً مما دار ويدور من جدل ونقاش وحجاج وخلاف لا تتحمله عبارات القران ولا تقتضيه، وليس من ورائه طائل ولا ضرورة. وان هذه العبارات ليست في صدد هذه التقريرات الكلامية، وفي الامثلة التي اوردناها دلائل كافية، وهي مطردة في سائر فصول القران ومجموعاته التي وردت أمثالها فيها، ثم يجد وهذا مهم جداً – ان النصوص والاهداف القرانية تجري في مدى هداية الناس ودعوتهم الى الخير واصلاحهم وتوجيههم الى أفضل الوجهات وانفعها، والتنويه بالمستجيبين المهتدين الصالحين المتقين المحسنين وتبشيرهم وتطمينهم، والتحذير من الفساد والاثم والفاحشة وانكار الله ووحدته وكمال صفاته والتنديد بالضالين الاثمين المكابرين المنافقين الظالمين وانذارهم، ولا تجري في اي حال في مجرى التقريرات الكلامية

التي يدور حولها الخلاف والجدل المذهبي ، وهذا هو اسلوب الحكيم الذي يعلمنا اياه القرآن في جميع الامور ، المتسق مع طبائع الاشياء وحقائقها ونعني كون القران يخاطب بشراً معروف على انهم ذوو قابليات وكسب واختيار ، وان لهم أثراً فيما يصدر عنهم من اعمال واقوال ومواقف وفقاً لما تمليه عليهم عقولهم وميولهم ومداركهم وتقديراتهم ومنافعهم وظروفهم الخاصة والعامة ، وانهم متفاوتون في كل هذا وانهم ذوو تمييز للخير والشر والحسن والقبيح في نطاق تلك العقول والميول والمدارك والتقديرات والمنافع والظروف والقابليات المتفاوتة ، وان المهم في الامر هو دعوتهم الى الهدى والخير واخراجهم من الظلمات الى النور وانقاذهم من الضلال واثارة نفوسهم وايقاظ ضمائرهم ، وتبشير المستجيبين وانذار المكابرين وارشاد الضالين الجاهلين منهم ، وان من الممكن ان تؤثر فيهم الدعوة فيستجيبوا تسليما واذعانا وادراكا او خوفا وطمعا ورغبة ورهبة وان الانحراف عن هذا النطاق والمدى إلى الجدل في ما وراء ذلك تكلف وتجوز وبعد عن مقاصد القران وأهدافه ، ومؤدٍ الى البلبلة والحيرة والتشويش على هذه المقاصد والاهداف وعلى الراغبين في تفهم القران والناظرين فيه .

- ١١ -

فهم القرآن من القرآن :

حادي عشر : ان الاوثق والاوكد والوسيلة الفضلى لفهم مدى القرآن ودلالاته وتلقيناته بل وظروف نزوله ومناسباته تفسير بعض القران ببعض ، وعطف بعضه على بعض ، وربط بعضه ببعض كلما كان ذلك ممكنا لغة أو مدلولا أو حادثا أو مناسبة أو سبكا أو حكما أو موقفا أو

تقريراً ،وسواء ذلك ما يدخل في نطاق الاسس والاهداف أو الوسائل والتدعيات . وامكانيات ذلك قائمة على نطاق واسع في مختلف فصول القرآن المكية والمدنية . فان القرآن يكاد يكون سلسلة تامة يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال في ما يمثل من ادوار السيرة النبوية في عهديها كما ان من شأن عباراته وجمله وأحكامه ومشاهده وقصصه ومواعظه وحججه ان يفسر بعضها بعضاً وان يدعم بعضها بعضاً .

وفائدة هذه الملاحظة عظيمة كما يتضح عند التدبر ، حيث يمكن ان تغني الناظر في القرآن عن الفروض والتكلف والتخمين ، وتحول بينه وبين التورط في موهمات التعارض والاشكالات اللغوية وغير اللغوية . وكثيرا ما تساق على تمييز القوي من الضعيف والصحيح من الباطل من الاقوال والروايات الواردة في تفسير كثير من الايات أو في مناسبات نزولها وأسبابها . وهذا باب واسع الشمول والمدى . ولنضرب مثلا لذالك آية وردت في سورة الانعام جاء فيها « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ١٥٩

فقد قال غير واحد من المفسرين وعلماء المذاهب اقوالا يستفاد منها ان الاية قد احتوت أخباراً غيبيا بما نجم بعد النبي من خلافات ومنازعات وفرق وشيع وبدع الخ ، في حين انه جاء في سورة الروم جملة مثلها مسبوقة بجملة فيها صراحة بأنها تعني المشركين كما ترى « منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون . ٣١ - ٣٢ »

فلو لوحظت هاتان الايتان وربط بينها وبين آية الانعام لما كان محل لتلك الاقوال التي تبدو فيها رائحة ما نجم من تلك الخلافات والمنازعات

والفرق والشيع والبدع بعد وفاة النبي بسنين قليلة ، بل اوحظ سياق اية الانعام على ما نبهنا عليه في المبحث السابق وخاصة الايتين ١٥٥ - ١٥٦ لظهر انه احتوي تنديداً بالمشركين ومواقفهم من الدعوة والقران ولبدا الاتساق واضحا بين ايات السورتين القرانيتين ولما كان محل لتلك الاقوال ايضا : ومن الامثلة التي تساق في صدد المبحث الحالي ما روي عن ابن عباس في الاية « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربــــه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا . الكهف ٤٩

وهو قوله ان الجن طائفة من الملائكة وان التسمية من الاختفــــاء الذي يشمل الملائكة كما يشمل الجن ، هـذا في حين ان الآية جمعت بين الملائكة والجن على اعتبارهما خلقين مستقلين ، وان هناك ايات قرانية عديدة حكت قول ابليس انه مخلوق من النار واخرى قررت ان الجن قد خلقوا من النار ، فملاحظة هذا الاشتراك تظهر عدم صحـــة الرواية لان هذا ليس مما يمكن ان يخفى عن ابن عباس الذي يوصف بما يوصف به من سعة العلم وقوة الذكاء والاحاطة بالقران ، وتساعد على القول الحاسم في جنية ابليس في النصوص القرانية .

ويمكن ان تساق الآيات التي نصت على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ولا نريد ان نكرر ما قلناه قبل قليل في هذا الامر . ولكنا نريد ان ننبه على ان في القران ايات من هذا الباب فيها ايضاح من شأنه ان يضع الامر في نصاب الحق بالنسبة لاطلاق العبارة في ايات اخرى .. ففي سورة البقرة : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين . ٢٦ » وفي سورة الرعد « قل إن الله يضل من يشاء ويهدي اليه

من اناب . ٢٧ » وفي سورة ابراهيم « يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي للآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . ٢٧»
فهذه الايات حينما تلاحظ اثناء تلاوة وتفسير الايات التي جاءت عبارتها مطلقة وتفسر بها يزول كل ما يدور حول هذا الموضوع الكلامي من اسباب الحجاج والنقاش ويبدو قصد تقرير كون هدى الله انما يكون لمن استنار قلبه وحسنت نيته ورغب في الانابة الى الله ، وكون الضلال انما يكون للظالمين والفاسقين وأردياء النية والخلق ، وكون الهدى والضلال منوطين بحسن نوايا الناس وسوئها والرغبة في الانابة الى الله والمكابرة فيها ، ويسوق الناظر الى التماس سبب مجيء العبارة مطلقة في الايات التي جاءت فيها مطلقة في اسلوبها وسياقها على ما ذكرناه قبل .

ويمكن ان تساق اية الشورى هذه كمثل اخر :

« ذلك الذي يبشر الله عباده الذين امنوا وعملوا الصالحات قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ان الله غفور شكور . ٢٣

فان بعض المفسرين وخاصة مفسري الشيعة فسروا الآية على انها تفيد ايجاب محبة اقارب النبي الادنين والبر بهم وطاعتهم ، في حين ان هناك ايات قرانية عديدة(١) امرت النبي بالقول انه لا يسألهم اجراً دون أي استثناء . فملاحظة ذلك تجعل الناظر في القران يحمل ما جاء في اية الشورى من استثناء على محمل اخر يبعد عن القران وهم التعارض ، وينزه الله ونبيه عن تقاضي الأجر على هداية الناس وايجابه بالنسبة لذريته او اقاربه الادنين ، ولا يتورط في تأويل يؤيد الاستثناء والاجر

---

(١) آيات يوسف ١٠٤ والمؤمنون ٧٢ والفرقان ٥٧ وسبأ ٤٧ وص ٨٦ والقلم ٤٦

الذين يثيران حيرة وإشكالا . هذا بقطع النظر عن ما في ذلك التفسير من تمحل وتجوز لا يتحملها مضمون الآية ، وعن ما هنـــالك من رواية مأثورة عن ابن عباس في صددها تجعلها متسقة كل الاتساق مع النصوص القرآنية الاخرى وتفيد ان قصد الاية تقرير كون حرص النبي على هداية قومه لا يمكن ان يتهم لانه لا يطلب عليها اجراً و كون مردهذا الحرص هو ما بين النبي وقريش من أوشاج القربى حيث لم يكن بطن من بطون قريش الا وبينه وبين النبي قرابة . وهناك تأويل آخر جاء في تفسير ابن كثير المشهور وهو ان الاية بمعنى أني لا اريد منكم شيئا الا ان تحترموا قرابتي لكم وتوادوني من أجلها وتكفوا عن الاذى والصد والتعطيل وهو تأويل وجيه ومتسق مع روح القرآن والآية . وننبه على أننا هنا في صدد فهم نصوص القرآن ولسنا في صدد نفي واجب المسلمين في بر ومودة الصالحين الاتقياء الذين ليست نسبتهم الى بضعة الرسول محل شك وريب من اجل هذه النسبة الشريفة الكريمة .

ومن فوائده ملاحظة ما هو موضوع هذا البحث أنها تساعد على معرفة الناسخ والمنسوخ وصور التطورات المتنوعة في ســـير الدعوة النبوية والسيرة النبوية والتشريع القرآني . فايات النساء ١٥ - ١٦ مثلا تشير الى جريمة الزنا وتعين نصاب شهود ثبوتها ولكنها لا تعين حداً وتكتفي بالامر بامساك النساء في البيوت واذية الزناة بعبارة مطلقة ؛ في حين ان آية سورة النور الثانية تعين حداً للزانين والزانيات مئة جلدة . فملاحظة ايات النساء والنور معاً في النظر والتفسير تساعد على معرفة كون ايات النساء قد نزلت قبل آيات النور ، وأن ايات النور هي المحكمة في جريمة الزنا دون آيات النساء ، وان في نزول آيات النور بعد آيات النساء تطوراً

في التشريع القراني . وفي اية النساء (٢٥) جملة تنص على ان حد الاماء المحصنات (المتزوجات) اذا زنين هو نصف حد الحرائر المحصنات وهي هذه « فاذا أحصن فإن اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » فملاحظة اية النور في تفسير هذه الجملة تساعد على معرفة ان هذه الجملة نزلت بعد ايات النور ، بعكس الايات السابقة حيث نزلت ايات النساء قبل ايات النور ، وانما وضعت في محلها للتناسب الموجود في سلسلة احكام الانكحة والاسرة والمواريث الواردة في سورة النساء ، وتساعد كذلك على معرفة صورة من صور التأليف القراني : كذلك اذا قرأنا ايتي سورة المنافقون هاتين « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون . ٧ - ٨ » ثم قرأنا ايتي سورة التوبة هاتين : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ اومغارات أو مُدّخلا لوّلوا اليه وهم يجمحون. ٥٦ - ٥٧ » . استطعنا ان نتبين من ملاحظة ايات السورتين ان المنافقين في المدينة كانوا في أوائل العهد المدني معتدين بقوتهم ومالهم ومركزهم بينما صاروا في أواخر هذا العهد الى حالة الخوف والضعف ، وان نلمس صورة تطورية من صور السيرة النبوية ، وان نحكم على تهافت الرواية التي ذكرت ان معسكر المنافقين عند الاستعداد لغزوة تبوك كان يعادل في سعته وعدده معسكر المؤمنين المخلصين .

والامثلة في هذا الباب كثيرة جداً ومنبثة في السور والفصول القرانية

مكيها ومدنيها نبهنا عليها في التفسير . وبهذه الكثرة تظهر فائدة هذه الملاحظة في حسن فهم القران وتفسيره كما هو واضح .

-١٢-

ولا ادعي بأن هذه الملاحظات جديدة وغير مسبوقة ، ففي الاتقان للسيوطي لنفسه ولغيره من العلماء والمؤلفين نبذ عديدة في شروط التفسير وأصوله احتوت غير واحدة من هذه الملاحظات ، كما ان كثيراً من العلماء والباحثين والمفسرين نبهوا عليها بأساليب متنوعة ، ومنهم من فعل ذلك في مقدمات كتبهم التفسيرية او في ما كتبوه عن القران من كتب خاصة بل ومنهم من سار عليها قليلا او كثيراً غير أني لم أر في ما تيسر لي من الاطلاع عليه من كتب التفسير (١) العديدة القديمة والحديثة أن هذه الملاحظات قد لوحظت جميعها معا في تفسير واحد ، وان صح القول إنها لوحظت متفرقة وبسعة او ايجاز حيث يمكن ان يكون مفسر لاحظ بعضا وسار عليه واخر لاحظ بعضا وسار عليه مع ان ملاحظتها جميعا والسير وفقها جوهري جداً فيما اعتقد لفهم القران فهما صحيحاً وخدمته خدمة فضلى ، هذا مع اعترافي بالتقصير إزاء ما احرزه الذين بحثوا في القران

---

(١) من كتب التفسير التي اطلعت قراءة او تصفحا على جميع او بعض أجزائها التفسير المعزو الى ابن عباس رواية أبي صالح وباب التفسير في البخاري وتفاسير الطبري والنسفي وأبي السعود والطوسي والخازن والرازي والزمخشري والطبرسي والبيضاوي والجوهري وفريد وجدى ورشيد رضا والالوسي وابي حيان وابن كثير والبغوي والقرطبي والمراغي والعادلي .

وعلومه وألفوا فيه وفسروه قديما وحديثاً من علم واطلاع وتمكن وممارسة طويلة وتفرغ اطول وخاصة في علوم الصرف والنحو والبـــلاغة واللغة وأصول الفقه والحديث والرواية والخلافات المذهبية والكلامية ؛ ومع اعترافي بالمجهود الذي بذله كل منهم في خــــدمة القرآن وتفسيره ؛ وما لكثير من كتب التفسير من خصوصيات مفيدة إما من حيث الاسهاب والايجاز أو من حيث اللغة والبلاغة ، والقواعد النحوية والصرفية ، او من حيث التنويه بالمعاني والقضايا وتفريعـــاتها ، أو من حيث الاحكام واستنباطها ، أو من حيث ابراز ما في القرآن من اشراق وبعــــد مدى وقوة تلقين وتوجيه ، أو من حيث روايات المناسبات واسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، أو من حيث التعليق على ما فيـــه من قصص وايضاحها ، او من حيث شرح المذاهب الكلامية والفقهية وجدلياتها .

الفصل الرابع

نظرات وتعليقات على كتب المفسرين ومناهجهم

تمهيد

ومع ما ذكرناه في صدد كتب المفسرين فان الناظر في كثير منها يلحظ ثغرات عديدة تنقص من قيمة تلك الفوائد التي احتوتها والجهود التي بذلت فيها قليلا او كثيراً ، وتجعلها غير شافية للنفس شفاء تاما .

- ١ -

روايات أسباب النزول :

فأولا إن هناك روايات كثيرة في اسباب النزول ومناسباته وقد حشرت في كثير من كتب التفسير التي كتبت في مختلف الادوار لا تثبت على النقد والتمحيص طويلا ، سواء بسبب ما فيها من تعدد وتناقض ومغايرة أو من عدم الاتساق مع روح الآيات التي وردت فيها وسياقها بل ونصوصها احيانا ، ومع آيات اخرى متصلة بموضوعها أو موضحة لها او عاطفة عليها ، حتى ان الناقد البصير ليرى في كثير من هذه الروايات أثر ما كان من القرون الاسلامية الثلاثة الاولى من خلافات سياسية ومذهبية وعنصرية وفقهية وكلامية قوي البروز ، وحتى ليقع في نفسه ان كثيرا منها منحول او مدسوس او محرف عن سوء نية وقصد تشويش وتشويه ودعاية ونكاية وحجاج وتشهير ، او قصد تأييد رأي على رأي ، وشيعة على شيعة .

والمتبادر انه لما كان عهد التدوين الذي راجت فيـــه الرواية تلقف المدونون من الافواه الغث والسمين والصحيح والفاسد والمعقول وغير المعقول والملفق والمنحول والمحرف فدونوه وتناقلوه ، وجمله المفسرون القديمون من عمد تفسيرهم ، بل كان وظل الركن الاقوى والاوسع في التفسير ، فكان هذا التساهل من جانب المدونين اولا والمفسرين المتقدمين ثانياً باعثا على تسلسل الدور وانتقال الروايات من عهد الى عهد من دون تحفظ او تمحيص الا قليلا حتى صارت كأنها قضايا مسلمة او نصوص نقلية يجب الوقوف عندها والتقيد بها او التوفيق بينها الخ ، وأدى هذا الى الوقوع في اخطاء وتشويشات ومفارقات كثيرة ، سواء كان في صدد السيرة النبوية وأحداثها او ظروف ما قبل البعثـــة ، او المفهومات والدلالات والاحكام القرآنية . ولقد كان هذا في احيان كثيرة مستنداً من مستندات أعداء العرب والاسلام المنعقبين الثغرات فيهم ، فتمسكوا بكثير من الروايات الواردة في التفسير مع ما هي عليه من وهن وتهافت فأساؤا فهم القرآن وخلطوا فيه عن عمد او غير عمد ، شأنهم في ذلك شأنهم في التمسك بكثير من الروايات الواردة عن السيرة النبوية والبيئة النبوية وظروفها وما بعدها من احداث الحركة الاسلامية وظروفها وتاريخها . والامثلة على ذلك كثيرة جداً ، وقد نبهنا عليها في سياق التفسير ، واليك بعضها على سبيل التمثيل والايضاح :

(١) فقد نقل الخازن(١) في تفسير أوائل سورة التوبة عن محمد بن

(١) ان اشارتنا الى كتب تفسير بعينها في هذا الفصل وغـيره لا تعني أن عدا هذه الكتب خال من الثغرات التي ننبه عليها وغثل لها . فان اكثر ما اطلعنا عليه من هذه الكتب ينطوي على واحدة او اكثر من هذه الثغرات ، وبعضها ينقل عن بعض حرفيا وبعضها يعزو الى بعض والقليل منها تعليق على ما يورده او ينقله أو يعزوه وكثير منها يورد فيها بدون تعليق كأنما يتبناه أو ليس له اعتراض وتعليق عليه .

اسحاق ومجاهد وغيرهما ان النبي عليه السلام آمر ابا بكر على الحج في اول حج بعد فتح مكة وبعث معه اربعين آية من سورة براءة ليقرأها على اهل الموسم ، ثم بعث بعده عليا ليقرأ على الناس صدر براءة ويؤذن بمكة ومنى ان قد برئت ذمة الله وذمة رسوله من كل مشرك ، وان لا يطوف بالبيت عريان ، وان ابا بكر رجع فقال يا رسول الله بأبي انت وامي انزل في شأني شيء قال لا ولكن لا ينبغي ان يبلغ هذا الا رجل من اهلي ، هذا بينما ورد في البخاري حديث عن ابي هريرة ان ابا بكر بعثه في الحجة التي امره رسول الله عليها في رهط يؤذن في الناس يوم النحر ان لا يحج بعد العام مشرك ويطوف بالبيت عريان . وفي الحديث الثاني تعارض مع الاول كما هو ظاهر ، ولقد كان الحديث الاول موضع تأويل متقابل من الشيعة والسنة ، فالاولون احتجوا به لصواب مذهبهم لانه مؤيد لحق علي في القيام مقام النبي بعده ، وكون ما تم هو مخالف لتلقين النبي ، والآخرون قالوا مقابل ذلك انما بعث النبي عليا في هذه الرسالة حتى يصلي خلف ابي بكر ويراه الناس انه تحت امرته ويكون في ذلك تنبيه على امامة ابي بكر بعد رسول الله ، وان الامير على الناس كان ابا بكر ولم يكن عليا وان في هذا تقديما له عليه ، ولم يكلف من هؤلاء واولئك نفسه عناء البحث في متن الرواية ، فان ما احتواه حديث بعث النبي مع ابي بكر اربعين اية من صدر سورة براءة يجعل الحديث موضع نظر وتوقف لان هذا العدد من صدر السورة احتوى مواضيع متنوعة ومنها ما نزل في شؤون اخرى ، ومنها ما هو متصل بسلسلة طويلة من بعده ، بل ومنها ما نزل قبل الفتح المكي على ما ذكرته من روايات اخرى يؤيدها او يقوم قرينة عليها نصوص بعض هذه الايات ، هذا فضلا

عن رائحة التشاد الحزبي بين الشيعة والسنة القوية في الحديثين وما يمكن أن تعنيه من وضعها لتأييد كل رأيه وتجريح رأي خصمه هجوما ودفاعاً !

(١) وقد روي السدّي عن الزبير على ما جاء في كشاف الزمخشري أنه قال إن آية « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . الانفال ٢٥ » نزلت فينا ، وانه كان يساير النبي يوما فأقبل عليه فضحك له الزبير فقال رسول الله كيف حبك لعلي فقال يا رسول الله بأبي انت وأمي إني احبه كحبي لولدي او اشد قال فكيف أنت إذا سرت اليه تقاتله . هذا في حين ان الآية شديدة الانسجام مع سابقاتها ولاحقاتها ، وان السياق في صدد تثبيت المسلمين وتذكيرهم وتحذيرهم وعظتهم على أثر التشاد الذي كان بينهم حول غنائم بدر وفي سبيل توطيد طاعة النبي في نفوسهم ، وفي حين أنه لا يبدو قط أي اتساق وصلة بين الرواية والاية معنى أو موضوعا أو مدى ، فضلا عما يلفت النظر فيها من اثر الفتنة التي نجمت مذ مقتل عثمان ومن عدم احتمال صدورها عن الزبير لان فيها ادانة له .

ومن هذا الباب روايات كثيرة في أسباب نزول آيات كثيرة تضمنت صرف الايات الى بعض الصحابة وتشم فيها رائحة الخلاف السني الشيعي ولا تتسق في حال مع الايات وظروف نزولها وسياقها ، فقد روى بعض الشيعة رواية بأن آية « والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون الزمر ٣٣ » قد نزلت بحق علي ، وروى بعض السنيين رواية بأنها نزلت في حق أبي بكر ، والسياق يدل على انها مع ما سبقها ولحق بها عامة متصلة بظروف الدعوة في العهد المكي الذي لم يكن علي في اوائله الا صبياً . ومن ذلك ما رواه بعض السنيين من أن آية « يا ايها النبي حسبك

الله ومن اتبعك من المؤمنين . الانفال ٦٤ » قد نزلت عند إسلام عمر ، ومن ان جملة « وشاورهم في الامر . آل عمران» نزلت في ايجاب مشاورة أبي بكر وعمر ، مع ان آية الانفال مدنية ومتصلة بظروف الجهاد في العهد المدني وجزء من سياق منسجم ، وان جملة آية ال عمران من آية يدل مضمونها نفسه على انها متصلة بموقف بعض المسلمين والمنافقين في ظروف وقعة احد فضلا عن انها جزء من سياق منسجم في ظروف هذه الوقعة ، ومن ذلك ما رواه الشيعيون من ان آية « وقفوهم انهم مسئولون . الصافات ٢٤ » قد نزلت في الذين ينكرون حق علي في الولاية مع ان السياق عام متصل بظروف الدعوة في العهد المكي ، وفيه حكاية عن ما يراه الكافرون والمؤمنون من المشاهد الاخروية ترهيباً وترغيباً .

(٣) وجاء في البخاري عن انس ان عمر بن الخطاب قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو امرت امهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله اية الحجاب ، بينما جاء في البخاري عن انس ايضا أنه لما تزوج رسول الله زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون واذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ليدخل فاذا القوم جلوس ثم انهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبي انهم انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه وانزل الله « يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوت النبي الي اخر اية الاحزاب ٥٣ وهي الاية التي ذكر فيها الحجاب والتي توصف بأنها اية الحجاب والتي نزلت بناء على مراجعة عمر كما جاء في الرواية الاولى ، وجاء كذلك في البخاري عن عائشة أن عمر بن الخطاب كان يقول لرسول الله احجب

نساءك فلم يفعل وكان ازواج النبي يخرجن ليلا قبل المناصع(١)،فخرجت سودة بنت زمعة وكانت امرأةطويلة فراها عمر وهو في المجلس فقال عرفتك ياسودة حرصا على ان ينزل الحجاب قالت فأنزل الله اية الحجاب . وجاء في البخاري ايضا عن عائشة قالت خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فراها عمر بن الخطاب فقـــال اما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة الى رسول الله في بيتي وانه ليتعشى وفي يـــده عرق فدخلت فقالت يارسول الله خرجت لبعض حاجتي فقال عمر كذا وكذا قالت فأوحى الله اليه ثم رفع عنه وان العرق في يده ما وضعه فقال انه اذن لكن ان تخرجن . فهذه اربعة احاديث بخارية حول الحجاب ، وثلاثة منها في مناسبة نزول اية الحجاب في سورة الاحزاب ، وفيها ما فيها من التغاير في هذه المناسبة وكل هذا في حين ان الحجاب المذكور في الاية يعني الستر على باب البيت كما رواه انس في احد احاديثه السابقة وامر الناس بأن يطلبوا ما يكون لهم من حاجات من زوجات النبي من ورائه ولا يدخلوا عليهن بسبب ذلك كما ان الايه لم تنزل خاصة في الحجاب حتى تسمى ايته كما يظهر ذلك لمن ينعم النظر فيها .

(٤) وروى الضحاك عن ابن عباس على ما جاء في الخازن ان اية « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فســـادا .. الخ . المائدة ٣٣ » نزلت في قوم من اهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله عهد وميثاق فنقضوا عهد الله وافسدوا في الارض فخير الله رسوله ان

---

(١) محلات الغائط .

يشأ يقتل وان يشأ يصلب وان يشأ يقطع الايدي والارجل من خلاف بينا روى الكلبي عن ابن عباس ايضا انها نزلت في قوم هلال بن عويمر وذلك ان النبي وادع هلالا على ان لا يعينه ولا يعين عليه وان من مر بهلال الى النبي فهو امن ، فمر قوم من بني كنانة يريدون الاسلام بقوم هلال فشدوا عليهم فقتلوهم واخذوا اموالهم فنزل جبريل بالقضاء فيهم بهذه الآية ، وهذا وذاك في حين ان رواية عن سعيد بن جبير تقول ان الاية نزلت في قوم من عرينه وعكل اتوا رسول الله وبايعوه على الاسلام وهم كذبة ، فاستوخموا المدينة فبعثهم رسول الله الى ابل الصدقة فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الابل . فهذه ثلاث روايات في سبب نزول اية كل منها مخالف للاخرى من حيث القصة وكل منها يفيد ان الاية نزلت مستقلة بسبب حادث معين ، واثنتان منها على تخالفها مرويتان عن ابن عباس ، مع ان الذي ينعم النظر في سياق الاية يجدها غير منفصلة عن السياق السابق الذي يدور الحديث فيه عن اليهود والتنديد بهم ويربط حاضرهم بماضيهم ، ثم يجد في الاية التالية لها ما يدل على ان الذين هم موضوع الكلام ليسوا في متناول يد النبي وان ما نسب اليهم انما صدر منهم في ظرف كفرهم ، وانها امرت بقبول توبتهم اي اسلامهم اذا تابوا قبل ان يقعوا في متناول يد النبي ويجد السياق التالي لها متصلا بالسياق السابق ايضا (الايات ٣٢ - ٣٧ المائدة) .

ولقد روى البخاري حديثا عن انس بن مالك في قصة عرب عكل وعرينه التي ذكرت في الرواية المعزوة الى سعيد بن جبير جاء فيــــه ان النبي سمر اعينهم - كواها بأسياخ النار وقطع ايديهم وارجلهم وتركهم وتركهم في ناحية الحرة حتى ماتوا ، ولم يرد في هذا الحديث ان الاية

نزلت فيهم كما انها لا تحتوي تسمية المعنيين وحال أن يخالف النبي نص الاية لو انها نزلت فيهم .

- ٢ -

روايات التفسير :

ثانيا ان هناك اولا تفسيراً كاملا معزوا الى ابن عباس رواية أبي صالح عن الكلبي احتوى تفسيرات لغوية وكثيراً من اسباب النزول وتأويلات القصص والتعابير والمشاهد والاوصاف القرآنية وتعليقات عليها ، وثانياً أقوالا كثيرة جداً في كتب التفسير معزوة الى ابن عباس منها ما ورد في ذلك التفسير ومنها ما لم يرد ، واحتوت هي الاخرى تفسيرات لغوية واسباب نزول وتأويلات للقصص والتعابير والمشاهد والاوصاف القرانية وتعليقات عليها . وثالثا اقوالا كثيرة جدا كذلك في كتب التفسير معزوة الى علماء من التابعين وتابعي التابعين امثال مجاهد والضحاك وقتادة والحسن البصري وعكرمة وسعيد ومسروق ومحمد القرظي وسفيان بن عيينه وعطاء الخ فيها كذلك تفسيرات لغوية واسباب نزول وتعليقات وتأويلات بل وهناك روايات عن كتب تفسير معزوة الى بعض هؤلاء مثل مجاهد والضحاك وقتادة وسفيان ، وقد وصف السيوطي ما ورد عن ابن عباس من روايات تفسيرية بكلمة « لا تحصى » دلالة على كثرته ، وذكر ان عدد مثل هذه الروايات المروية عن الصدر الاول قد بلغ بضعة عشر الفا ، والارجح ان هذا العدد لا يشمل ما يرويه الشيعة بطرقهم وشروطهم الخاصة التي لا يستقيم كثير منها عند السنيين ولا يحتجون بها والتي ربما بلغ عددها نفس العدد او زاد ، وكثير من الاقوال المنسوبة الى هذا الصدر ومن يليه يصح عليها ما قلناه في الفقرة السابقة من انه

لا يثبت على النقد والتمحيص للأسباب التي ذكرناها هناك ، ومن حيث ما يقع في النفس من تلقفها من الافواه وتدوينها في عهد رواج الرواية فاختلط حابلها بنابلها وغثها بسمينها وصحيحها بباطلها ، وظهر على كثير منها أثر تلك الخلافات السياسية والحزبية والكلامية والمذهبية والعنصرية ، ومن حيث ما يقع في النفس من قصد التشويش والتشويه في بعضها وتعمد النحل والتلفيق في بعض آخر منها ، وفي بعضها ما هو ادخل في باب الخرافة منه في باب الحقيقة او الاحتمال كما أن كثيراً منها لايصح تصديق صدوره عن صحابة وتابعين وتابعي تابعين وخاصة من علمائهم الاجلاء المشهورين في سلامة المنطق والفهم والذكاء والدراية والورع . ويؤيد هذا قول الامام الشافعي بأنه لم يثبت عن ابن عباس مما عزي اليه من روايات التفسير الا نحو مئة ، بينما المنسوب اليه يبلغ بضعة آلاف ، ويؤيده كذلك موقف الامام الحنبلي من هذه الروايات حيث يسلك روايات التفسير المعزوة إلى الصحابة والتابعين - وكل ذلك مما يدخل في شمول كتب الحديث - في سلك روايات الملاحم والمغازي من حيث غلبة احتمال تسرب الاخطاء والمبالغات وعدم صحة السند فيقول انها لا أصل لها .

ومع ذلك فقد صارت هي الاخرى من عمد المفسرين القديمين وكتبهم وانتقلت من دور الى دور حتى استفاضت في كتب التفسير جميعها تقريباً وغدت نصوصاً نقلية يوقف عندها وبتقيد بها بل ويحتج بها بسبب مكانة المصدر الذي نسبت اليه بدءاً ، ولم تحظ الا بقليل من النقد والتمحيص ، بل وان ما جرح منها ظل ينتقل من دور الى دور ويستفيض في كتب التفسير ، ويورد في سياق الآيات من جملة الاقوال والتأويلات ، ومنها ما لا يذكر

جرحه ، ولقد جرح بعض علمـــاء القرآن والرواية رواية ابن الكلبي بل سماه بعضهم بالكذاب ، ولكن كثيرا مما رواه أخذه المفسرون القدماء وتنوقل عنهم دوراً بعد دور ، منه ما ذكر راوية ومنه ما لم يذكر ، ودخل كذلك في عداد النصوص المروية التي يوقف عندها ويتقيد ويحتج بها ، وهذا شأن كثير من الروايات المجروحة أيضا ، فأدى ذلك كله الى اخطاء وتشويشات وتشويهات ومفارقات ومجادلات كثيرة ، وكان وسيلة من وسائل غمز الاغيار والباحثين المستشرقين وطعنهم ايضا كما كان ذلك في روايات الاسباب والمناسبات على ما ذكرناه قبل. والامثلة على ذلك كثيرة جداً نورد بعضها فيما يلي التمثيل والايضاح :

(١) ففي تفسير سورة القلم من تفسير ابن عباس المذكور ان النون هو السمكة التي تحمل الارضين على ظهرها ، وهي في الماء وتحتها الثور وتحت الثور صخرة وتحت الصخرة الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى الا الله - كأن هذا من العلم الذي عرفه البشر - وان اسم السمكة ليواش ويقال ليوثي واسم الثور يلهوت ويقال يلهوى ويقـال ليوثا، وهي في بحر يقال له عصواص وهو كالصور الصغير في البحر العظيم ، وهذا البحر في صخرة جوفاء ، وفي هذه الصخرة أربعة آلاف خرق يخرج منها الماء . وقد وردت هذه الاقوال بعينها أو مزيداً عليها أو مبدلة بعض الشيء في كتب عديدة من كتب التفسير منها ما عزي الى ابن عباس عن أبي صالح عن الكلبي ومنها ما لم يذكر راويه ومصدره .

(٢) وقد صرفت كلمة « ربك » في هذا التفسير في جملة « اذهب انت وربك فقاتلا » الى هارون .

(٣) ولقد علق فيه على جملة « ولقد خلقنا كم ثم صورنا كم » بأن الله قد صور آدم بين مكة والطائف .

(٤) وقد صرف فيه المقصود من آيتي الاعراف « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن اتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ١٨٩، ١٩٠ » الى آدم وحواء وروى فيه أنهما جعلا لله شركاء في ما أتاهما حيث سمي احد اولادهما عبد الله والآخر عبد الحارث . وقد ورد هذا القول في الخازن عن ابن عباس بغير ذكر الكلبي بهذا النص : كانت حواء تلد لآدم أولاداً فيسميهم عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال ان سر كما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحرث ـ يعني نفسه ـ فولدت ولداً فسمياه كذلك فعاش !

(٥) وذكر فيه نسب نمرود هكذا : نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش .

(٦) وعلق فيه على جملة « فيها من كل شيء موزون » كل شي يوزن مثل الذهب والفضة والحديد والصفر والنحاس .

(٧) وفسرت فيه كلمتا « تمني » و « امنية » الواردتان في آية الحج « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقي الشيطان في امنيته ٥٢ » بمعنى قرأ وقراءته فكان هذا التفسير من اركان الاقوال والروايات التي قيلت ورويت في قصة الغرانيق وكون الشيطان هو الذي اجرى على لسان النبي الجملتين « تلك الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لترتجى » في اثناء تلاوة سورة النجم في صلاة اقامها بالمؤمنين في فناء

الكفنية ، وكون آيات الحج هي بسبيل نسخ تلك العبارات والتنبيه على انها من القاء الشيطان ، مما كان مثار اخذ ورد ومغامز ومطاعن في حين ان عبارات آيات الحج ٥٢ ــ ٥٤ وروحها وسياقها لا يتسق مع ذلك التفسير ولا مع تلك الاقوال قط على ما فصلناه في سياق تفسيرها(١) ، فضلا عما هناك من رواية تفيد ان هذه الآيات نزلت على النبي بطريق هجرته الى المدينة .

(٨) وقد أولت فيه آيات زواج النبي بطلقة متبنيه الواردة في سورة الاحزاب تأويلا تنزه رسول الله عنه من عشقه لزينب ومخادعته لزيد كان مثار اخذ ورد ومغامز ومطاعن ايضا في حين ان عبارة الايات وظروفها تناقض هذا التأويل . كما فصلناه كذلك في سياق تفسيرها(٢) .

(٩) ومما نقل عن ابن عباس من غير طريق ابن الكلبي واشرك معه غيره من الصحابة والتابعين ما نقله الخازن عن قصة هاروت وماروت العجيبة والشائقة معاً حيث جاء فيها انهما كانا أعبد الملائكة وانهما عيرا الله في خلقه البشر على عصيانهم وان الله قد تحداهما ان يثبتا اذا ركب فيهما طبائع البشر ، وانهما لما انقلبا بشراً زنيا وشربا الخمر وقتلا النفس وسجدا للأصنام واساءا استعمال اسم الله الاعظم الخ بتفصيل طويل ، مما لا يتسق مع منطق من جهة وفيه ما فيه من موقف نحو الله من جهة اخرى . ولقد صارت هذه القصة وسيلة لجدل كلامي في عصمة الملائكة ، واحتج القائلون بعدمها بالقصة كحجة نقلية مروية بألفاظ متقاربة عن ابن عباس وعلي ابن أبي طالب وابن مسعود وكعب الاحبار والسدى والربيع ومجاهد !

---

(١) و (٢) اقرأ ايضا كتاب سيرة الرسول الجزء الاول ففيه بحث وتمحيص .

(١٠) ومن ذلك ان حملة العرش قرونا وان ما بين أخمص احدهم الى كعبه مسيرة خمسمئة عام ومن كعبه الى ركبته مسيرة خمسمئة عام ومن ترقوته الى موضع القرط منه مسيرة خمسمئة عام .

(١١) وروى الكشاف عن عكرمة في تأويل « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » ان هذا مثل ضربه الله لبدء الاسلام وترقيه فأخرج شطأه بأبي بكر وآزره بعمر واستغلظ بعثمان واستوى على سوقه بعلي . واثر المقالات الخلافية في ترتيب الخلفاء الراشدين ظاهر القول .

(١٢) وروى الكشاف معزواً الى الحسن في صدد خلق الارض والسماء ان الله خلق الارض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم اصعد الدخان وخلق منها السماوات وأمسك الفهر في موضعه وبسط منه الارض فذلك قوله « كانتا رتقا ففتقناهما . الانبياء ٣٠

(١٣) وروى الخازن معزواً الى عبد الله بن عمر أن الذين يحملون العرش ما بين سوق احدهم الى مؤخر عينيه خمسمئة عام .

(١٤) وروى الخازن ايضا معزواً الى عروة بن الزبير ان من حملة العرش من صورته على صورة الانسان ومنهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الاسد .

(١٥) وروى ايضا معزواً الى نوفل البكالي في وصف السلسلة التي ذكرت في سورة الحاقة « ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ٣٢ » أن كل ذراع سبعون باعا وكل باع أبعد ما بينك وبين مكة وكان هو في رحبة الكوفة .

(١٦) ووردت روايات شيعية عن مقاتل عن أبي عبد الله انه وجد في

كتاب علي بن ابي طالب ان آدم لما هبط إلى الارض كانت رجلاه بثنية الصفا ورأسه دون افق السماء وانه شكا له حرارة الشمس فأوحي الى جبريل ان اغمزه فغمزه فصير طوله سبعين ذراعاً بذراعه ثم غمز حواء غمزة فصير طولها خمسة وثلاثين ذراعا بذراعها . وقد رأينـــا تعليقا على رواية تقصير آدم وحواء لمؤلف شيعي آخر حاول فيـــه ان يعلل أذى الشمس بأن حرارتها تكون من غير جهة الانعكاس وتكون قامة آدم طويلة بحيث تتجاوز طبقة الزمهرير ! ثم ايد صحـــة طول ادم واحتمال تأذيه من حرارة الشمس بقصة عوج بن عناق فذكر كيف كان يأخذ السمكة من قاع البحر ويشويها في عين الشمس ، ولم يكتف المؤلف بهذا فقد اخذ يورد احتمالات ووجوها من طرائفها أن جبريل غمز آدم فجعله سُبعَين لا سبعين وغمز حواء فجعلها خُمسَين وثلثي الخمس لا خمسة وثلاثين وان من المحتمل ان يكون الناقل وهم في القراءة . .

(١٧) وجاء في تفسير القرطبي معزواً الى ابن عباس انه كان يوضع لسليمان ستمئة كرسي ثم يجيء اشراف الانس فيجلسون مما يليه ثم يأتي اشراف الجن فيجلسون مما يلي الانس ثم يدعو الطير فتظلهم ثم يدعو الريح فتقلهم وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر .

(١٨) وجاء فيه معزوا الى جابر بن عبدالله الى النبي عليه السلام انه كان نقش خاتم سليمان بن داود « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

(١٩) وجاء فيه ايضا معزواً الى الحسن ان الجياد المذكورة في قصة سليمان في سورة ص « اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجيـاد » ٣١ خرجت من البحر لها أجنحة ، ومعزوا الى الضحاك انهـا كانت منقوشة ذات اجنحة ، ومعزواً الى علي ان الشيطان أخرجها بجنحة من مروج البحر وكانت عشرين فرساً .

(٢٠) وفي الخازن عن البغوي عن الثعلبي عن كعب الاحبار ان موسى نظر في التوراة فقال اني اجد امة هي خير امة اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والآخر ويقاتلون اهل الضلالة حتى يقاتلون الاعور الدجال ، رب اجعلهم أمتي قال هي أمة محمد يا موسى. قال رب اني أجد امة هم الحادون المحكمون إذا ارادوا أمرا قالوا نفعل إن شاء الله فاجعلهم امتي قال هي امة محمد . قال رب إني اجد في التوراة أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم - وكان الاولون يحرقون كفاراتهم بالنار - وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي . قال هي أمة محمد . ويستمر الكلام فيتناول بضع صور اخرى من هذا القبيل. ونقول بهذه المناسبة ان المفسرين كثيرا ما نقلوا عبارات وجملا على انها واردة في التوراة والانجيل ومنها ما يشبه بعض آيات وعبارات القرآن ، ويعزون ذلك الى كعب الاحبار أو عبد الله بن سلام او ابن عباس او بعض التابعين ومن جملة ذلك ما رواه البيهقي عن ابن عباس ان سورة الكهف تسمى في التوراة الحائلة وسورة يس المعمة كأنما كل سورة في القرآن لها ما ما يقابلها أو لما ذكر في التوراة .

(٢١) وجاء في الخازن أن سعيداً ابن جبير قال عن ألواح موسى انها من ياقوتة حمراء ، وان الكلبي قال انها من زبرجدة خضراء ، وان ابن جريج قال انها من زمرد وان الله امر جبريل فجاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد - أي اخذ الحبر - من نهر النور ، وان الربيع بن انس قال ان الالواح كانت من زبرجد ، وان وهبا قال : ان الله امر جبريل فقطعها من صخرة صماء عينها له ثم شقها

الله بأصبعه وسمع موسى صريف الاقلام بالكلمات العشر وكان ذلك اول يوم من ذي الحجة ، وكان طول الالواح عشرة أذرع على طول موسى واختلفوا في عدد الالواح فروي عن ابن عباس انها كانت سبعة وروى عنه رواية أخرى أنها لوحان ووجهه الفراء وقال انما جمعت على عادة العرب في اطلاق الجمع على الاثنين ، وان وهباً قال انها عشرة وان مقاتلا قال انها تسعة ، وان الربيع بن انس قال انها كانت وقر سبعين بعيراً يقرأ الجزء منها في سنة ولم يقرأها الا اربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى .

(٢٢) وجاء في الخازن عن الربيع ابن انس ان درجات الجنة سبعون ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة .

(٢٣) وجاء فيه عن ابن مسعود ان ما بين السماء والارض مسيرة خمسمئة عام وما بين كل سماء وسماء خمسمئة عام وفضاء كل سماء وارض خمسمئة عام وما بين السماء السابعة والكرسي خمسمئة عام وما بين الكرسي والماء خمسمئة عام والعرش على الماء والله على العرش . وهناك خبر عن ابن عباس ان المسافة ؟

فحاول احد المفسرين التوفيق بين القولين فقال أن الخلاف في قدر المسافة على اختلاف سير الدواب .

(٢٤) وجاء فيه معزوا الى ابن عمر ان السور الذي ذكر في القرآن « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . الحديد ١٣ » هو سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد وظاهره من قبله العذاب وادي جهنم .

وهذا قليل جداً من كثير جداً مما ورد من هذا الباب معزوا مثل ما تقدم الى صحابة وتابعين عن الخلق والتكوين والقصص وتأويل الآيات

والاحداث المتصلة بالسيرة النبوية وظروف الدعوة .

وهذا غير ما روي من روايات تأويلية وتفسيرية كثيرة جداً في كتب السنة والشيعة معزوة الى صحابة أو تابعين ممن عرفوا بالعلم والدراية والورع وسلامة المنطق متناقضة من جهة ويبرز فيها أثر الخلافات الحزبية والمذهبية والسياسية بروزاً واضحا من جهة اخرى . وفي كل هذا ما هو ظاهر من الاغراب والتخمين بل والتخريف وعدم الاتساق مع مرامي الآيات ومضمونها وظروفها ، ودلائل الجهل بحقائق الكتب المنزلة ومحتوياتها وبما هو معروف اذ ذاك من الحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية مما يشوش على الراغب في تفهم القرآن ويجعل القرآن عرضة للحجاج والجدل والاخذ والرد ، ويشوه اسماء كثير من اصحاب رسول الله وتابعيهم ، ويجعل المسلم يقف موقف الحيرة والبلبلة مما نقل عنهم .

- ٣ -

تعليقات المفسرين على القصص :

ثالثاً إن كثيراً من المفسرين قد ولعوا بالتعليق على ما ورد في القرآن من قصص ولعاً كبيرا تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة الى الصحابة والتابعين على علات كثير من هذه الروايات ، وجالوا في ساحات التخمين والتخرص والتكلف والتزيد والمبالغة جولات مسهبة حيناً وموجزة حينا آخر ، ومنسوبة الى رواة من غير تلك الطبقة بالاسماء حيناً وبدون اسماء حينا وصادرة عنهم او موهمة انها كذلك حينا آخر ، حتى ليقع في نفس القارىء من فحوى عباراتهم واساليب ايرادهم احيانا انهم يعنون ان القصص القرآنية او بعضها على الاقل قد وردت في القرآن لذاتها ، وبقصد الاخبار والماهيات والحقائق اكثر من قصد العظة والتذكير ،

وكثير مما اوردوه لا يتفق مع دلالات الايات ولا تتحمله اهدافها ولا تقتضيه عباراتها كما فيه مفارقات كثيرة وما هو ادخل في باب الخرافة منها في باب الحقائق . واليك بعض الامثلة من ذلك للتمثيل والايضاح .

(١) فهذه سلسلة مما ورد عن ذي القرنين ويأجوج ومأجوج منقولة عن الخازن وابي السعود والبيضاوي والكشاف ، واكثرها بتعبير روي وقيل واحيانا بدون ذلك وقليل منها معزو لقائل معين :

١ - ان الله انما ذكر ذا القرنين لان حكمته شاءت تخليد اسمه في القرآن على مر الدهور لما بلغه من عظمة السلطان وسعة الملك .

٢ - إن ذا القرنين دخل الظلمة في طلب عين الحياة ، وان الخضر كان من رجال جيشه فوقع على العين فاغتسل وشرب منها .

٣ - إن عمر ذي القرنين الف وثلاثون سنة .

٤ - وقال ابن جريج كان عند العين الحمئة مدينة يقال لها الجاسوس لها اثنا عشر الف باب وسكانها من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح ولولا ضجيج أهلها لسمع الناس وجيب الشمس حين تغيب .

٥ - إن يأجوج امة ومأجوج امة ، وكل امة اربعة آلاف امة ، ولا يموت الرجل منهم حتى يرى من صلبه الف رجل قد حمل السلاح ، وهم ثلاثة أصناف صنف منهم امثال الارز شجربالشام طوله عشرون ومئة ذراع ، وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومئة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبـــل ولا حديد ، وصنف منهم يفترش احدهم أذنه ويلتحف بالاخرى ، ولايمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ، ومنهم من طوله شبر . وقال كعب ان آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب

فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج ، فهم متصلون بنا من جهة الاب دون الام .

٦ – كان لذي القرنين قرنان فأمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الايمن فمات فأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الايسر فمات فأحياه الله .

٧ - سخر الله لذي القرنين السحاب فحمل عليه ، ومد له الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليـــه سواء . وخاطبه قائلا إني باعثك الى امم مختلفة السنتهم ، منهم امتان بينهما طول الارض أحداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك ، ومنهم امتان بينهما عرض الارض إحداهما في القطر الايمن يقال لهـــا هاويل والاخرى في قطر الارض الايسر يقال لها تاويل ، ومنهم امم في وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج ! فقال بأي قوة اكابدهم وباي جمع اكاثرهم وباي لسان اناطقهم ، فقال الله اني ساقويك أبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء ، والبسك الهيبة فلا يروعنك شيء ، واسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك . فالنور يهديك من امامك والظلمة تحوطك من ورائك

٨ – انه الاسكندر الذي ملك الدنيا . وقيل ملكها مؤمنان وهما ذو القرنين وسليمان وكافران وهما نمرود وبختنصر .

٩ – قيل انه كان عبداً صالحا ملكه الله الارض وأعطـــاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة ، فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه . وقيل كان نبيا وقيل كان ملكا من الملائكة .

وعن علي انه ليس بملك ولا نبي ولكنه عبد صالح ضرب على قرنه الايمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضربه على قرنه الايسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين ، وان فيكم لمثله . وعلق المفسر قائلا ان عليا أراد نفسه .

١٠ – أن معاوية قرأ جملة « عين حمئة » « عين حامية » فقرأها ابن عباس « عين حمئة » فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأها فقال كما يقرأ امير المؤمنين ، ثم ان معاوية وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب في التوراة قال في ماء وطين فوافق قول ابن عباس .

(٢) وهذه سلسلة اخرى في سياق قصص موسى وفرعون وبني اسرائيل وسليمان منقولة عن الكشاف . وقد وردت في كتب تفسير أخرى مقاربة او نصاً كما جاءت في الكشاف :

١ – قيل ان بني اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله ان يفرق بينهم وبين اخوانهم ففتح الله لهم نفقاً في الارض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هناك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وذكر عن النبي ان جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبي الامي فآمنوا به ، ثم قالوا يا رسول الله ان موسى اوصانا من ادرك منكم احمد فليقرأه مني السلام فرد محمد على موسى السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة وامرهم ان يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون فأمرهم ان يجمعوا ويتركوا السبت .

٣ - روي ان معسكر سليمان كان مئة فرسخ في مئة . خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له الف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمئة زوجة وسبعمئة سرية ، وقد نسج له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخاً في فرسخ ، وكان منبره يوضع في وسطه ، وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمئة الف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الانس وحول الانس الجن والشياطين ، وتظلهم الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليهم الشمس ، وترفع الريح البساط فتسير به مسيرة شهر في يوم وان الله أوحى اليه مرة وهو يسير بين الارض والسماء اني قد زدت في ملكك فلا يتكلم احد بشيء الا القته الريح في سمعك ، فيحكى انه مر بحرات فقال لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فألقته الريح في اذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال إنما مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه . وكان من امره أن سمع كلام النملة من ثلاثة اميال.

وقد ذكر بعض المفسرين في سياق هدهد سليمان انه كان مكلفا بالتنقيب عن مواضع المياه للجيوش اللجبة التي تسير مع سليمان لان الارض في عيني الهدهد ككرة من زجاج شفـــاف يرى ظاهرها وباطنها .

٣ - كانت عند شعيب عصي الانبياء ، فأمر موسى ان يدخل ويأخذ له عصا ، فوقعت يده على عصاة وكان آدم هبط بها من الجنة ولم يزل الانبياء يتوارثونهـا ، فضن بها على موسى والقاها بين العصي أولا وثانيا وثالثا الى السابعة وكانت في كل مرة تقع في يده فوقع في نفس شعيب ان له شأنا فأعطاها له .

٤ ـ ارسل فرعون خلف بني اسرائيل الف الف وخمسمئة الف ملك، ومع كل ملك الف، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمئة الف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس أن فرعون خرج في الف الف حصان سوى الاناث، وهذا سبب استقلاله قوم موسى وقوله عنهم «إنهم لشرذمة قليلون.. سورة الشعراء» مع ان عددهم ستمئة الف وسبعون الفا.

٥ ـ ان بلقيس كانت من الجن، وان الجن خشوا ان يتزوجها سليمان فيجتمع في ابنه منها فطنة الانس والجن فدسوا له عنها وشنعوا له سيقانها فامتحنها بالصرح الممرد، ولما ظهر له كذبهم استنكحها وكان يزورها في الشهر مرة.

٦ ـ حينما كانت العصا تنقلب ثعبانا في يد موسى كان يبدو أنه ثعبان ذكر اشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعا، وقد وضع حينما القاه بين يدي فرعون لاول مرة لحيه الاسفل في الارض ولحيه الاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون الفا قتل بعضهم بعضا.

٧ ـ كان عدد السحرة سبعين الفا وقيل ثمانين الفا وقيل بضعة وثلاثين الفا.

٨ ـ في الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي المعروف بجامع احكام القرآن اثنتان وثلاثون صحيفة في تفسير الآيات الواردة في سورة ص عن داود عشرة حشواً عجيبا بالقصص عن داود وسليمان والاقوال التي تدور حول هذه القصص، وفيها من الاغراب مايثير

الدهشة . منها ما جاء في صدد توبة داود معزواً الى عطاء الخراساني
ان داود سجد اربعين يوما حتى نبت المرعى حول وجهـــه وغمر
رأسه فنودي أجائع فتطعم وعار فتكسى فنحب نحبة هاج المرعى
من حر جوفه فغفر له وستر بها ذنبه ، فقال يا رب هذا ذنبي فيما
بيني وبينك قد غفرته فكيف بفلان و كيف بفلان و كذا و كذا
رجلا من بني اسرائيل تركت أولادهم ايتاما ونساءهم ارامل ، قال
يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم استوهبك منه
بثواب الجنة . . ثم قيل يا داود ارفع رأسك فذهب ليرفع رأسه
فإذا به قد نشب في الارض فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الارض
كما يقتلع من الشجرة صمغها . رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر
عن عطاء . . قال الوليد واخبرني منير بن الزبير قال فلزق مواضع
مساجده على الارض من فروة وجهه ما شاء الله . . وقال وهب إن
داود نودي اني قد غفرت لك فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال
لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك . قال يا رب كيف وانت لا
تظلم احداً فقال الله لجبريل اذهب الى داود فقل له يذهب الى قبر
اوريا فيتحلل منه فسأسمعه نداءه. فلبس داود المسوح وجلس عند
قبر اوريا ونادى يا اوريا فقال لبيك من هـــذا! الذي قطع علي لذتي
وايقظني فقال أنا أخوك داود اســألك ان تجعلني في حل ، فاني
عرضتك القتل قال عرضتني الجنة فأنت في حل . وفي الخبر وكان
داود يقعد على سبعة افرشة من الليف محشوة بالرماد فكانت تستنقع
دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الافرشة كلها ، وكان اذا جاء يوم
نواحه نادى مناديه في الطرق والاسواق والاودية والشعاب وعلى

رؤوس الجبال وافواه النيران الا ان هذا يوم نواح داود فمن اراد ان يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعده فيهبط الناس من النيران والاودية وترتج الاصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عكّف وبنو اسرائيل حوله فاذا اخذ في العويل والنواح وأثارت الحرقات منابع دموعه صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم . . وفي هذا الجزء من تفسير القرطبي اربع عشرة صحيفة اخرى محشوة بمثل هذه الاقوال في سياق الآيات الواردة في سورة ص كذلك عن سليمان تثير الدهشة في اغرابها وتفصيلاتها وخاصة في وصف كرسي سليمان وانتقـــال موكبه بواسطة الريح وشيـــاطينه المسخرة والمصفدة والبنائين والغواصين وخاتم سليمان والجسد الذي القي على كرسيه ونسائه منها ما هو معزو الى رواة ومصادر معينة ومنها ما هو مروي بصيغة المجهول مما يطول الامر بنقله .

وهذا الذي نقلناه غيض من فيض وقطرة من بحر مـــا اورده المفسرون في سياق القصص القرآنية . ولقد كان امرهم ان استغرقوا فيها حتى صاروا يحاولون التوفيق بين مختلف الروايات الواردة فيها والجدل في ذلك بالاضافة الى محاولات التوفيق والتلفيق والتأليف بين ما جاء فيها وبين ما يبدو من مناقضة العبارات القرآنية لبعض ما فيها، او لما يجب من حق الله والانبياء والملائكة ويضاف الى هذا محاولتهم أخذ بعض الاحداث القصصية كحجة لاحكام فقهية في الاسلام مثل ما فعلوا في قصة ايوب واستنباط جواز الحيلة في التحلل من اليمـــين لان القصة احتوت أمرا لايوب بضرب زوجته بضغث من حشيش بدلا من جلدها بالسوط مئة مرة كما اقسم ، ومثل تجويز ان تكون اجرة الراعي صداقا وعدم تعيين

البنت التي آجر موسى نفسه مقابل نكاحها في قصـــة موسى وشعيب . .

وهكذا كاد القرآن يخرج من نطاق قدسيته من الموعظة والدعوة والتذكير الى نطاق بحوث في التاريخ والوقائع المروية وفي نطاق هذه الروايات العجيبة التي أوردت على هامش القصص القرآنية والتي لا يتفق كثير منها مع ما ورد في القرآن منها ، ويتعرض بذلك الى الاخـــذ والرد والنفي والاثبات والجدل والتصويب والتخطئة ، بل ويدخـــل محتويات بعض قصصه مثل قصص آدم وإبليس ويوسف مع امرأة العزيز ويونس في مغاضبته وإبراهيم في طلبه من الله إراءته كيف يحيي الموتى وموسى في طلبـــه رؤية الله وفي قتله القبطي ، والملائكة في مراجعتهم الله في شأن خلقه آدم في نطاق الجدل بين اصحاب المذاهب الكلامية من نواح متعددة تخطئة وتصويباً وتخريجاً وتأويلاً ، كما يدخل محتويات بعض قصصه مثل حقيقة واسم مؤمن آل فرعون وإيمان امرأة فرعون، وحقيقة الذبيح ، والدراهم التي بيع بها يوسف والاذى الذي أوذي به موسى واسماء أهل الكهف وكلبهم ، وأسماء امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون والذي أماته الله دهر وحماره ثم بعثه وعفريت سليمان والذي عنده علم الكتاب والذي اشترى يوسف وامرأته وفرعون والغلام الذي قتله العبد الصالح وأبويه والغلامين اليتيمين ورهط قوم صالح وعاقر الناقة وابن لقمان والشيطان الذي ألقي على كرسي سليمان وشيطان أيوب ونفر الجن الذين استمعوا القرآن الخ الخ في نطاق البحث والنقاش واستنباط حقائق التاريخ لذاتها ، وايراد الاقوال والروايات في هذه الشؤون التي فيها كثير من التكلف والمفارقات والتخمين والاغراب والتخريف ، مما هو مبث بكثرة في كثير من كتب

التفسير ، ومما يجعل المرء يندهش ويحار من روايتها وإيرادها من قبل علماء اعلام وجوازها عليهم ، ومما ظل أثره مستمراً متمكناً الى عصرنا هذا ، حيث كان كثير من هذه القصص بالاضافة الى القصص القرآنية مواضيع كتب خاصة عليها طابع الكتب التاريخية وتحمل اسم « قصص الانبياء » وحيث يتجادل الباحثون على صفحات المجلات في ذي القرنين وما هيته وما هو معروف عن تاريخ الاسكندر ، وفي ما إذا كان بنو إسرائيل قد ورثوا ملك فرعون في مصر وملكوها بعد أن غرق هو وجنوده اجمعون الخ ويتكلفون بما لا طائل من ورائه .

وكل هذا مؤد كما هو ظاهر الى التشويش على الناظر في القرآن ومراميه في القصص وعلى أهدافه السامية والى غدو كتب تفسيره معرضاً للكثير من المفارقات والمبالغات والتمحلات والمجادلات والمنحولات والمدسوسات وغدو القرآن بذلك عرضة للغمز والجرح من قبل الاغيار ايضاً . كما أن ذلك قد أدى الى استحواذ القصة القرآنية لذاتها على افكار السواد الاعظم من المسلمين بل وخاصتهم ، وصارت عندهم كذلك موضوعاً ذاتياً ومجالاً واسعاً للأخذ والرد والسؤال والاستفتاء والاستقصاء والحجاج والاحتجاج والتصويب والمناظرة الخ ، مما كاد يضيع معه مواضع العبرة في القصة وقصد القرآن الجوهري منها .

– ٤ –

تعليقات المفسرين على مشاهد الكون والجن والملائكة :

رابعاً : إن كثيرا من المفسرين قد ولعوا ايضا بالتعليق على ما ورد في القرآن من تعابير وإشارات وتذكيرات وتنبيهات وتقريرات حول

مشاهد الكون ونواميسه ، وحول ما ورد كذلـــك في صدد الملائكة والجن وابليس وخلقة آدم ولعلأ تجاوزوا فيه حدود الروايات المنسوبة الى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وجالوا في ساحات التخمين والتكلف والتزيد والاغراب ، وأوردوا اقوالا منسوبة الى رواة ومصادر من غير تلك الطبقة باسماء وبدون اسماء وصادرة احيانا عنهم أو موهمة انها كذلك، حتى ايقع في نفس القارىء انهم يعنون ان ما ورد في القرآن في هـــذه الشؤون كله أو بعضه قد ورد لذاته وبقصد تقرير الماهيات والحقائق اكثر من قصد الدعوة والتذكير والتدعيم به وفي كثير مما نقلوه وقالوه ما لا يتفق مع دلالات الآيات ولا تتحمله أهدافها ولا تقتضيه عباراتها كما ان فيه مفارقات كثيرة هي ادخل في باب الخرافة منهـــا في باب الحقيقة . واليك بعض الامثلة عـــلى سبيل الايضاح ، منقولة عن كتب تفسيرية متعدده :

(١) ان سماء الدنيا موج مكفوف والثانيـة مرمرة بيضاء والثالثة حديد والرابعة صفر وقيل نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء وما بين السابعة الى الحجب صحار من نور .

(٢) ان وجهي الشمس والقمر متجهان الى السماوات وضوؤهما فيهن جميعا واقفيتهما نحو الارض .

(٣) ان اللوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والارض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه من نور وأصله في حجر ملك .

(٤) ان الانهار التي انزلها الله من عين من عيون الجنة واستودعهـا الجبال واجراها على الارض وهي سيحون وجيحون ودجـلة والفرات والنيل هي التي عنيت في الآية « وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض » . (سورة المؤمنون)

(٥) لما خلق الله الارض وفتقها سبع أرضين بعث من تحت العرش ملكا فهبط الى الارض حتى دخل تحت الارضين السبع وضطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله من الفردوس ثوراً له اربعون الف قرن وأربعون الف قائمة وجعل قرار قدم الملك على سنامته فاستقرت ، وقرون ذلك الثور خارجة من اقطار الارض ومنخاره في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفسا فاذا تنفس كان مد البحر واذا رد نفسه كان جزره، ولم يكن لقوائم الثور قرار فخلق الله صخرة كغلظ سبع سماوات وسبع اورضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه « انها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة . سورة لقمان » ، ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله نونا وهو الحوت العظيم فوضعت الصخرة على ظهره والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة ، ولقد تغلغل ابليس الى الحوت فوسوس اليه فقال اتدري ماعلى ظهرك يالبوتا من الامم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم لالقيتهم عن ظهرك ، فهمّ ليوتا أن يفعل فبعث الله له دابة فدخلت منخره فوصلت الى دماغه فضج الحوت الى الله منها فأذن لها فخرجت ، وإنها لتنظر اليه وينظر اليها إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت .

(٦) إن القلم من نور وإن طوله ما بين السماء والارض. وقد نظر الله اليه أول ما خلقه فانشق نصفين ثم قال له اجر بما هوكائن الى يوم القيامة فجرى على اللوح المحفوظ . والناس إنما يجرون على امر قد فرغ منه .

(٧) إن بين كل سمائين مسيرة خمسئة عام وغلظ كل سماء كذلك ، والارضون مثل ذلك ، وان الصخرة التي تحت الارض السابعة والتي منتهى علم الخلائق على ارجائها يحملها اربعة من الملائكة لكل منهم اربعة وجوه وجه انسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر . فهم قيام عليها قد احاطوا بالسماوات والارض ورؤوسهم تحت العرش .

(٨) إن الناس ينادون يوم القيامة من صخرة القدس لانها اقرب الى السماء باثني عشر ميلا وانها في وسط الارض . .

(٩) إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص

(١٠) ان في العرش تمثال ما خلق الله في البر والبحر وذلك تأويل قوله تعالى « وان من شيء الا عندنا خزائنه . سورة الحجر »

(١١) ان سدرة المنتهى شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيل . ينبع من اصلها الانهار التي ذكرها الله في القرآن ويسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها .

(١٢) ان جبريل نزل بالميزان فدفعه الى نوح وقال مر قومك يزنوا به

(١٣) ان آدم نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد وهي السندان والكلبتان والمطرقة والابرة والميقعة وقيل ان معه كذلك المرو والمسحاة

(١٤) اختلف في عدد عوالم الله فقيل انها الف عالم ستمئة في البحر وأربعمئة في البر ، وقيل ثمانون الف عالم أربعون الفا في البر ومثلهم في البحر ، وقيل ثمانية عشر الفا منها عالم الدنيا عالم واحد ، وما العمران في الخراب الا كفسطاط في صحراء

(١٥) لما اراد الله أن يخلق آدم اوحى الى الارض اني خالق منـك خليقة منهم من يطيعني ومنهم من يعصاني فمن اطاعني ادخلته الجنة ومن عصاني ادخلته النار . قالت الارض أتخلق مني خلقاً يكون للنار . قال نعم . فبكت الارض فانفجرت منها العيون الى يوم القيامة . وبعث الله جبريل ليأتيه بقبضة منها احمرها واسودها وطيبهـــا وخبيثها، فلما اتاها ليقبض منها قالت أعوذ بعزة الله الذي ارسلك أن لا تأخذ مني شيئا . فرجع جبريل الى مكانه وقال يا رب استعاذت بك مني فكرهت ان

اقدم عليها . فقال الله لميكائيل انطلق فأتني بقبضة منها فلما اتاها قالت له مثل ما قالت لجبريل فرجع الى ربه فقـــال ما قالت له . فقال الله لعزرائيل انطلق فأتني بقبضة منها فلما أتاها قالت له ماقالت لجبريل وميكائيل فقال وانا اعوذ بعزته ان اعصي له امراً فقبض منهـــا قبضة من جميع بقاعها من عذبها ومالحها وحلوها ومرها وطيبها وخبيثها وصعد بها الى السماء ، فسأله ربه وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الارض وبما رد عليها فقال الله وعزتي وجلالي لاخلقن بما جئت به خلقا ولاسلطنك على قبض ارواحهم لقلة رحمتك ، ثم جعل الله تلك القبضة نصفهـــا في الجنة ونصفها في النار ثم تركها ما شاء الله ثم اخرجهـــا فعجنها طينا لازبا مدة ثم حمأ مسنونا مدة ثم صلصالا(١) ثم جعلها جسداً والقاه على باب الجنة . فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لانهم لم يكونوا رأوا مثله . وكان ابليس يمر به ويقول لامر ما خلق هذا . فنظر اليه فاذا هو اجوف فقال هذا خلق لا يتمالك ، وقال يوما للملائكة ان فضل عليكم ماذا تصنعون . قالوا نطيع ربنا ولا نعصاه . فقال ابليس في نفسه لئن فضل علي لاعصينه ، ولئن فضلت عليه لاهلكنه . فلما اراد الله ان ينفخ فيه الروح امرها ان تدخل في جسد آدم فنظرت فرأت مدخـــلا ضيقا فقالت يا رب كيف ادخل هذا الجسد قال الله ادخليه كرها وستخرجين

---

(١) يظهر ان القائل أراد ان يوفق بين التعابير القرآنية حيث جاء في احدها ان الله خلق البشر من طين لازب وفي احدها من حمأ مسنون وفي احدها من صلصال .

منه كرها ، فدخلت بافوخه فوصلت الى عينيه فجعل ينظر الى سائر جسده طينا ، فسارت الى ان وصلت الى منخريه فعطس فلما بلغت لسانه قال الحمد لله رب العالمين ، وهي اول كلمة قالها فناداه الله رحمك ربك يا أبا محمد ، ولهذا خلقتك . ولما بلغت الروح الى ركبتيه همّ ليقوم فلم يقدر فقال الله خلق الانسان من عجل . فلما بلغت الساقين والقدمين استوى قائما بشراً سويا لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا واحشاء وكسي لباسا من ظفر يزداد جسده جمالا وحسنا كل يوم .

(١٦) ان الملائكة الذين ذكروا في آية البقرة (٣٠) هم الذين كانوا في الارض . وذلك ان الله خلق الارض والسماء وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء واسكن الجن الارض فعبدوا دهراً طويلا ، ثم ظهر فيهم الحسد والبغي فأفسدوا واقتتلوا فبعث الله عليهم جنداً من الملائكة يقال لهم الجان ورأسهم ابليس وهم خزان الجنان فهبطوا الى الارض وطردوا الجن الى جزائر البحار وشعاب الجبال ، وسكنوا الارض ، وخفف الله عنهم العبادة ، واعطى ابليس ملك الارض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان رئيسهم واكثرهم علما . فكان يعبد الله تارة في الارض وتارة في السماء وتارة في الجنة . فدخله العجب وقال في نفسه ما اعطاني الله هذا الملك الا لاني اكرم الملائكة عليه فقال له ولجنده اني جاعل في الارض خليفة بدلا منكم ورافعكم الي فكرهوا ذلك لانهم كانوا اهون الملائكة عبادة .

(١٧) كان ابليس من حي من الملائكة وقيل من الجن ممن يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون . وقيل ان ابليس يدخل ذنبه في

دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين ، وان من أولاده لاقيس ولهاب والهفاف ومرة وزنبور وبتر والاعور ومطوس وداسم ، ومنهم من يتولى إفســاد الصلاة وآخر يتولى التنجيس وآخر يزين اللغو والايمان الـكاذبة وآخر يغري بالزنا فينفخ في إحليل الرجل وعجيزة المرأة.

وهذا قليل من كثير من هذا الباب مما يكاد يكون من عمد اكثر كتب التفسير القديمة ، وفيه ما هو ظاهر من الاغراق والمفارقات ودلائل الجهل بما كان معروفا من الحقائق الكونية حتى ليدهش المرء من جوازه على علماء اعلام ونقلهم اياه بأساليب وسياقات تدل على انهم مندمجون فيه ومنزلوه منزلة الحقائق او على الاقل غير شاكين فيه ولا مكذبيه ، وانهم يرمون او يرمي بعضهم الى التوفيق بين مختلف الآيات والتعابير القرآنية والى شرحها وتعليل مداها ، وفي ذلك ماهو واضح من اسباب التشويش على اهداف القرآن وصرف الذهن عن مراميه ، وجعل كتب التفسير معرضا لكثير من المفارقات والمبالغات والمنتحلات والمدسوسات .

ومما هو جدير بلفت النظر ان بعض الباحثين والناظرين في القرآن بل ومفسريه من المتأخرين والمعاصرين قد ولعو بمثل ذلك الولع مع تعديل اقتضته تطورات العلوم والمفاهيم ، حيث نراهم يحاولون استنباط النواميس العلمية والفنية واستخراج نظريات الدورات الشمسية والقمرية والارضية وكروية الارض ونظام الافلاك والمطر وأطوار النشوء ونمو الاحيـــاء وانفتاق الارض والسماء والذرة والـــكهرباء الخ الخ من بعض الآيات القرآنية ، أو يحاولون تطبيق النظريات العلمية والفنية المتصلة بنواميس الكون والتكوين والشمس والقمر والسماء والارض والحياة والكهرباء والبرق والرعد الخ الخ على بعض الآيات القرآنيـة ليدللوا على احتواء

القرآن اسس هذه النظريات او نواتها مما اخذ يستفيض في الكتب والمجلات بل والصحف منذ اواخر القرن السابق . وتفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري الذي صدر في اوائل القرن الحاضر مثال عجيب لهذه المحاولات والتطبيقات .

والثغرة في هذا هو ما يفيده ويوهمه هذا الولع كما ذكرنا هذا في ما تقدم من أن ما ورد في القرآن من الاشارات والتنبيهات والتعابير مقصود الذاته وماهياته ، وما يؤدي هذا اليه من صرف هذه الاشارات والتنبيهات والتعابير عن هدفها الوعظي والتدعيمي للدعوة اولا ، ومن اخراج محتويات القرآن في نطاق هذا الهدف وقدسيته الى نطاق الجدل والبحث والنفي والاثبات في حقائق النظريات العلمية والفنية الكونية ، وما تتعرض له هذه النظريات من تبدل وتطور وجدل ثانياً ، في حين ان تلك المحاورات او بالاحرى التمحلات قائمة على الظن والتخمين ومنها ما هو متهافت جدا من جهة ، وان اسلوب الآيات القرآنية من جهة اخرى واضح الدلالة على اقتصار ما احتوته على الهدف المذكور ، وعدم استهدافه التقريرات العلمية والفنية في ماهية الخلق والتكوين ونواميسها ، حيث هو اسلوب خطابي موجه الى مختلف طبقات الناس بقصد ايقاظ ضمائرهم ولفت انظارهم الى ما يقع تحت مشاهدتهم من مشاهد الكون العظيمة ، وما يرونه من مظاهر نواميسه ، وما يتمتعون به من مختلف تلك المشاهد وهذه النواميس في مختلف حياتهم على الوجه الذي يفهمونه منها ، وتمتليء اذهانهم بها ، وبقطع النظر عن ماهياتها لذاتها ، والتدليل بهذا الاسلوب العام الموجه الى مختلف الطبقات على وجود الله وعظمته وقدرته وشمول حكمه وتصرفه ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة وصحة

الدعوة اليه وواجب طاعته في ما يأمر وينهى بواسطة انبيائه وتنزيله ، مما يستطيع ان يلمسه كل من انعم النظر في الآيات والفصول القرآنية .

وما احسن ما قاله الامام الغزالي في تهافت الفلاسفة من كلام قوي حكيم يتصل بهذا الموضوع حيث قال في صدد تقسيم مذاهب الفلاسفة « والقسم الثاني ما لا يصدم مذهبهم فيه اصلا من اصول الدين وليس من ضرورة تصديق الانبياء والرسل منازعتهم فيه كقولهم ان خسوف القمر عبارة عن امحاء ضوئه بتوسط الارض بينه وبين الشمس من حيث انه يقتبس نوره من الشمس ، والارض كرة ، والسماء محيطة بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل الارض انقطع عنه نور الشمس ، وكقولهم ان كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة . وهذا الفن ايضا لسنا نخوض في ابطاله اذ لا يتعلق به غرض . ومن ظن ان المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف امره ، فان هذه الامور تقوم على براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة في من يطلع عليها ويتحقق ادلتها حتى يخبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرهما ومدة بقائهما الى الانجلاء قبل وقوعها ، واذا قيل له ان هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه وانما يسترب في الشرع . وضرر الشرع ممن ينصره بغير طريقه اكثر ممن يطعن عليه بطريقه وكما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل » .

ونضيف الى هذا ان عظمة شأن القرآن هي في روحانيتـــه القوية النافذة وفي قوة هدايته الخالدة وفي ما احتواه من اسس ومبادىء ومثل عليا تستجيب لحاجات الانســانية المتنوعة على كر الدهور ومتنوع الظروف ، وان الواجب الاعظم هو التزام حدود هذه الاسس والمبادىء

والمثل وتجليتها وازالة كل ما يشوش عليهـــا ويعرقل بروزها او اهماله والانصراف عنه .

- ٥ -

التشاد المذهبي في سياق التفسير :

خامسا : ان بعض المفسرين قد اتخذوا التفسير وسيلة من وسائل الجدل المذهبي وخاصة في علم الكلام . فقد تجاذبوا وتشادوا حول العبارات القرآنية التي جاءت عن ذات الله وصفاته وافعـــاله وأعضائه ونزوله وعروجه واستوائه نفيا وتأويلا واثبـــاتا وتسليما . وقد تجاذبوا كذلك وتشادوا حول ما جاء عن اعمال الانسان وسلوكه وايمانه و كفره وذنوبه وحسناته وثوابه وعقابه واختلاف الناس الطبيعي او الخلقي ، فقرر بعضهم قدرة الانسان على العمل وكسبه اياه وقابليته الذاتية على التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح واختياره مايختاره منها واستحقاقه الثواب والعقاب عدلا وحقا نتيجة لذلك وبقصد تنزيه الله عن الظلم والتناقض ، في حين ان آخرين رأوا في ذلك تغـــايراً مع قدرة الله ومطلق تصرفه ونقضا لعلمه الازلي ولكونه المؤثر الحقيقي في كل شيء فقرروا ان افعال الانسان مكتوبة عليه في الازل لا معدى له عنها ، وان الله لا يسأل عما يفعل ، وانه لا يصح ان يقاس ما يجريه بمقياس البشر في الحسن والقبيح والعدل والظلم الخ . وقد تجاذبوا وتشادوا حول ما ورد من عبارات في توبة التائب وغفران الذنوب بدون قيد فقرر بعضهم أنه لا غفران بدون توبة وان اصحاب الكبائر مخلدون في النار وان الله كتب على نفسه قبول التوبة فصار واجبا عليه قبولها ، في حين ان آخرين قرروا ان الله لايجب عليه نحو خلقه شيء وانه يغفر لمن يشاء ما يشاء دون قيد وشرط ، وان

المؤمن لا يخلد في النار ولو كان صاحب كبيرة . وتجاذبوا وتشادوا في ما يجوز على الله وما لا يجوز وما يجب وما لا يجب في عصمة الانبياء المطلقة وامكان صدور الاخطاء منهم ووقوع السحر عليهم ، وفي المفاضلة بينهم وبين الملائكه ، وفي عصمة الملائكة المطلقـــة وامكان صدور الهفوات والاخطاء عنهم ، وفي خلق القرآن ، وفي صفات الله وكونها ذات الله أو غير ذاته ، وفي امكان رؤية الله او رؤية الجن والملائكة الخ من المسائل الكلامية الخلافية الكثيرة .

واستند كل فريق الى آيات قرآنية تؤيد رأيه في كل مسألة من تلك المسائل ، وأول ما استند اليه الفريق الآخر من الآيات التي يتعـــارض ظاهرها مع رأيه ، واستغرق الفريقان في الجدل والتشاد والتجاذب كل يؤيد مذهبه ويندد بالمذهب المخالف حتى خرجا في احيان كثيرة عن وقار العلم بما وجهوه الى بعضهم من الشتيمة والتسفيه والغمز والانتقاص بل والتكفير، وحتى يبدو للذي يمعن النظر ان كلاالفريقـــين يصرف احيانا الكلام عن وجهه الحق ويتجوز ويتكلف فيه عصبية الحزبية المذهبية ان صح التعبير مع ان كلا منهم في الاصل صادق الايمان والاخلاص مستهدف تنزيه الله وتوقيره .

وفي تفسير الكشاف للزمخشري وهو من اعلام علماء القرن السادس الهجري ويمثل مذهب الاعتزال او ما يسميه مذهب أهل العدل والتوحيد وفي تعليقات القاضي ابن المنير عليه وهو من علماء القرن السابع ويمثل مذهب الاشاعرة من اهل السنة أمثلة كثيرة على ذلك حتى ليصح ان يقال ان التفسير والتعليق قد استهدفا هذه الوجهة في الدرجة الأولى .

يقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « كالذي يتخبطه الشيطان

من المس . سورة البقرة ، وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، حيث يزعمون ان الشيطان يتخبط الانسان فيصرعه ، ثم يستطرد فيقول ورأيت لهم - ويقصد أهل السنة - قصصا واخباراً وعجائب في الجن ، وانكار ذلك عندهم كانكار المشاهدات ، فيعلق ابن المنير على هذا القول فيقول انه على الحقيقة من تخبط الشيطان بالقدرية - يعني المعتزلة - في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع فاحذرهم قاتلهم الله.

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران . سورة الانعام » ان هذا جاء على ما كانت تزعمه العرب فيعلق ابن المنير قائلا ومن انكر استيلاء الجن على بعض الاناس واستهواءهم حتى يحدث من ذلك الخبط والصرع فهو ممن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي .

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . سورة النساء » بوجوب قبول التوبة على الله فيعلق ابن المنير قائلا انه اطلاق يتقيد عنه لسان العاقل ويقشعر منه جلده استبشاعا لسماعه ويتعثر القلم عند تسطيره . على ان من لطف الله انه لم يجعل حاكي الكفر كافرا وحاكي البدعة لضرورة ردها مبتدعا .

ويقول الزمخشري في سياق تفسير جملة « يا اهل الكتاب لا تغلوا في في دينكم . سورة المائدة » ان غلوهم كغلو الاشاعرة في جعلهم لله صفات أفعال فهم كالنصارى ، فيرد عليه قائلا ان التشبيه بهم اولى ، فالنصارى غلوا فجعلوا الاله ثلاثة ولكن المعـــتزلة غلوا فجعلوا كل آدمي خالقا وشريكا لله .

وفي سياق تفسير معنى استواء الله ووجهه ويده ونزوله وعروجه يورد الزمخشري الابيات المشهورة :

وجماعة سموا هواهم سنة لجماعة حمر لعمري مؤكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة (١)

فيورد ابن المنير رداً عليه الابيات التالية :

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد الله ما ان يخلفه
وتلقبوا الناجين كلا انهم ان لم يكونوا في لظى فعلى شفه

ويذكر الزمخشري رواية عن طاووس التابعي جاء فيها إنه طرد رجلا من مجلسه يقول بالقدر فقيل له هذا فقيه فقال ابليس افقه منه لانه قال فبما اغويتني وهذا يقول إني اغوي نفسي ، ثم يقول ان الرواية من تكاذيب المجبرة الذين بلغ بهم من تهالكهم على اضافة القبائح الى الله ان لفقوا الاكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين ، فيرد ابن المنير فيقول ان كلامه حيدان عن العقيدة الصحيحة ، وان ذنب اهل السنة انهم يؤمنون بخالق واحد في حين ان القدرية يتهالكون حتى ليشركون كل شخص مع الله في الخلق .

ويحمل الزمخشري على الاشاعرة في سياق تفسير جملة « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . سورة الحج » فيقول وما ارى رؤساء اهل الاهواء والبدع والحشوية المتلقبين بالامامة في دين الله الا داخلين تحت هذا دخولا اوليا ، بل هم اشد الشياطين ضلالا واقطعهم

(١) منحوتة عن جملة « بلا كيف » يعني ان الاشاعرة يقولون ان الله استوى على العرش ولكن دون ان يعرف احد كيفية هذا الاستواء .

لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدوينا والقنوه اشياعهم تلقينا وكأنهم ساطوه بلحومهم ودمائهم .

ويندد بخصومه في صدد تفسير جمله « يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » فيقول إن اهل الاهواء والبدع يتصامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء ويطيبون لانفسهم بما يفترون على ابن عباس في قولهم هذا ، وان انتظار الغفران بدون توبة وانتظار الشفـــاعة بدون سبب غرور وحمق وجهالة .

وفي احدى المناسبات يشبه ابن المنير المعتزلة بالمشركين ويقول انهم يقولون هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا حيث يثبتون خالقـــا غير الله ولا يأنفون عن اثبات رازق غيره فأنى يؤفكون .

وفي سبيل الهوى المذهبي يصرف الزمخشري جملة « وكلم الله موسى تكليما . سورة النساء » الى معنى جرحه الله بمخالب قدرته . . ثم ينسى هذا فيقول في سياق آية « ولما جاء موسى لميقاتنـــا وكلمه ربه . سورة الاعراف » اسمعه الله كلاما وحروفا واصواتا خلقها في ما حوله .

وبينما يؤول الزمخشري « عرش الله » في سياق آيات عديدة بعظم قدرته وملكه يقول في سياق آية « وكان عرشه على الماء . سورة هود » ان فيها لدليلا على ان العرش والماء قد خلقا قبل السماوات والارض ، فيعترف بذلك بوجود مادي للعرش يناقض تأويله الاول .

وهذا قليل متنوع المدى من كثير جدا في الكشاف وتعليقات ابن المنير عليه يكفي لايضاح ما قصدنا اليه . وليس معنى اكتفـــائنا بنقل ما جاء في الكشاف والتعليقات أنها الوحيدان في هذا الباب ، فان المدقق في مختلف كتب التفسير كالخـــازن والبيضاوي وأبي السعود

والرازي وغيرها يجد غمزات شديدة وخفيفة في مناسبة كثير من العبارات القرآنية ، وتنبيهات على ما فيها من دلائل ضد مذهب مخالفيهم ، او على ما في استناد هؤلاء المخالفين اليهم من وهن كما يجد توجيهات وتأويلات تتسق مع مذهبهم وتؤيده سلباً او ايجابا . وممن ذكرهم صاحب الاتقان على نمط الزمخشري في اتخاذ تفاسيرهم وسيلة الى شرح مذاهبهم وتأييدها والطعن على غيرهم عبد الرحمن بن كيسان الاصم والجبائي وعبد الجبار الرماني .

وهذا عدا ما احتوته الكتب الكلامية والخلافية والنحلية والمذهبية الاخرى من التشاد والتجاذب حول العبارات القرآنية وصرفها من جانب كل فريق الى مذهبه تقريراً او تأويلا بما هو خارج عن مدى الموضوع الذي نحن بسبيل التنبيه عليه وان يكن فرعا من اصل .

وليس يعنينا هنا بيان المصيب او تأييد مذهب على مذهب ، وانما يعنينا الثغرة في الاسلوب ، وبيان ما صارت اليه كتب التفسير بسببه من معارض تشاد وتسفيه ومهاترة وتكلف في صدد الجدل الكلامي .

ومع ان من المسلم به ان النصوص القرآنية في حد ذاتها مستند العقائد والاحكام والتشريع الاسلامي ، الا اننـــا نعتقد ان اصحاب المذاهب الكلامية والخلافية قد تكلفوا وغلوا في كثير مما تجاذبوا وتشادوا فيه على غير طائل ولا ضرورة ، وانهم حملوا العبارات القرآنية ما لا محل لتحميلها اياه ولا يقتضيه السياق الذي جاءت فيه ، وان هذا قد نشأ بنوع خاص من اخذهم اياها مستقلة لذاتها في حـــين تكون قد جاءت متصلة بسياق لا تفهم على وجهها الا معه ، وبمناسبة لا تلمح حكمة صيغتها الا بملاحظتها ، او على سبيل التقريب والتمثيل ، او على سبيـــل التسلية

والتطمين او التنديد والتسفيه او الحجاج والالزام او الحكاية الخ تبعا لتنوع الاساليب والمناسبات القرآنية ومواقف واحداث السيرة النبوية مما يمكن ان يتبينه كل من امعن النظر في المجموعات القرآنية التي وردت فيها العبارات التي تكون موضوع التشاد والتجاذب ، وان العبارات القرآنية اذا ما نظر فيها مع سياقها السابق او اللاحق او كليهما زال الوهم فيها وانسقت التقريرات والمعاني القرآنية ، وان محاولات اهل المذاهب الكلامية والخلافية هذه تجعل القرآن يناقض بعضه بعضا مما يجب تنزيهه عنه وبما هو منزه عنه فعلا بنص القرآن ·

وبما يحسن إيراده هنا ما جاء في تفسير الرازي حيث قال في احدى المناسبات ان الرافضة يعني الشيعة - قالت ان هذا الذي عندنا ليس هو القرآن الذي جاء به محمد بل غير وبدل ، والدليل عليه اشتماله على هذه المناقضات التي ظهرت بسبب المناظرات الدائرة بين اهل الجبر واهل القدر . واطلاق الرازي كلمته يوهم ان الشيعيين جميعا يقولون هـــذا ، وهو غير صحيح لان الشيعة والامامية خاصة تعترف بالقرآن الموجود بين دفتي المصحف اعترافا تاما ، وقد نقلنا في مناسبة سابقة كلمة احد اعلام مفسريهم القدماء الشيخ الطوسي في هذا الصدد ، ولا يمنع هذا ان تكون احدى فرقهم الغالية قد قالت هذا لان من هذه الفرق من تعمـــد هدم الاسلام والتشكيك في القرآن تعمداً . وعلى كل حال فان كلمة الرازي صدى لما كان من تجاذب وتشاد حول العبارات القرآنية في سبيل الخلاف المذهبي وتأييد لما نحن في صدده من ضرر ذلك وخطله ، واعتباره ثغرة خطيرة في تفسير القرآن .

وما ذكرناه هو ما يتصل بالخلاف المذهبي الكلامي . وهناك تفاسير

عديدة احتوت اشياء كثيرة مما يتصل بالخلاف الشيعي السني ومنهـــا ما اتخذ وسيلة الى تقريرات وتأويلات متصلة بهذا الخلاف ، مما يمت الى الثغرة التي نحن بصدد التنبيه عليها ، ومما ينسحب عليه الكلام الذي قلناه آنفا بطبيعة الحال . ولقد اشرنا الى بعض هـــذه التقريرات والتأويلات في مناسبات متنوعة ، ونكتفي هنا بايراد شيء منها منقول عن تفسير التبيان للشيخ الطوسي .

ففي سياق تفسير آية آل عمران المعروفة بآية المباهلة « فان حاجوك من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ـ ٦١ » قال الشيخ دون استناد الى حديث او رواية ولما نزلت الآية اخذ النبي بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم دعا النصارى الى المباهلة . . ثم قال واستدل اصحابنا بهذه الآية على ان امير المؤمنين ـ يعني عليا كان افضل الصحابة من وجهين احدهما ان موضوع المباهلة هو تمييز الحق من الباطل وذلك لا يصح ان يكون الا بمن هو مأمون البـــاطن مقطوعا على صحة عقيدته وافضل الناس عند الله ، والثاني انه جعله مثل نفسه بقوله وانفسنا وانفسكم والآية تدل على ان الحسن والحسين ابنا النبي بلا خلاف لانها تقول ابناءنا . وتدل على ان تعبير نساء النبي بقوله نساءنا قد صرف الى فاطمة فقط ، واذ جعل النبي امير المؤمنين مثل نفسه وجب الا يدانيه احد في الفضل والايثار به ، ومتى قيل انه ادخل في المباهلة الحسن والحسين مع كونهما غير بالغين وغير مستحقين الثواب ، وان كانا مستحقين الثواب لم يكونا افضل الصحابة قال لهم اصحابنا ان الحسن والحسين كانا بالغين مكلفين لان البلوغ وكمال العقل لا يفتقران الى شرط مخصوص ، وقد تكلم عيسى

في المهد بما دل على كونه مكلفاً عاقلا ، وقد ذكر الشيخ في سياق آية « اليوم اكملت لكم دينكم . سورة المائدة » أنه روي عن ابي جعفر وابي عبد الله ان الآية نزلت بعد ان نصب النبي عليا علما للامة يوم غدير خم منصرفه من حجة الوداع ، كما ذكر في سياق آية « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته . سورة المائدة » أنه روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ان الله لما أوحى الى النبي أن يستخلف عليا كان يخاف ان يشق ذلك على جماعة من اصحابه فأنزل الله هذه الآية تشجيعاً له . . والهوى الحزبي ظاهر البروز في ذلك كله .

- ٦ -

الولع بأسرار القرآن ورموزه ومنطوياته :

سادسا : ان بعض المفسرين والمشتغلين بالقرآن قد ولعوا بتخمين انطواء القرآن على اسرار ورموز ، واستغرقوا في استقراء الحروف والكلمات والتراكيب القرآنية بقصد الكشف عن تلك الاسرار والرموز واتسع مجال التفريع والتكلف والاغراب في هذا المجال كثيراً .

ولعل أصل هذا الولع يرجع الى بعض روايات في الحروف المتقطعة المنفردة التي جاءت في مطالع نحو ربع السور القرآنية مكية ومدنية . فمع ان القسم الاكبر من هذه المطالع قد أعقبه ذكر القرآن والكتاب وتنزيله وإحكامه وحكمته قسما أو بيانا أو تنويها أو تنبيها(١) ، ومع

(١) هي سورة القلم و ق و ص والاعراف ويس وطه والشعراء والنمل والقصص ويونس وهود ويوسف والحجر ولقمان وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والاحقاف وابراهيم والسجدة والبقرة وآل عمران والرعد . اما السور التي مطالعها حروف متقطعة منفردة ولم تعقب بالاشارة الى القرآن فهي سورة مريم والروم والعنكبوت

ان روحا تلهم انها جاءت بسبيل التوكيد والتنبيه واسترعاء الاسماع الى القرآن وآياته وعبره وحكمته وإحكامه مما قرره غير واحد من اعلام علماء القرآن من ابن عباس فما بعد ومما تطمئن اليه النفوس ويتسق مع مهمة الذي انزل عليه القرآن وخطاب القرآن لجميع الفئات وتوكيده انه واضح مبين لا عوج فيه ولا امت ولا تعقيد ولا اختلاف فقد روى في سياق البحث في الحروف المذكورة رواية مفادها ان اليهود جاؤوا الى النبي فسألوه عما أوتيه من عمر الدنيا فقال لهم « ا ل م » فحسبوهافجاءت (٧١) في الحساب المعروف بالحساب الجمل والذي هو حساب يهودي يقوم على ترتيب الاحرف الهجائية العبرانية (ا ب ج د ه و ز الى اخره) فقالوا ثم ماذا فقال لهم (ا ل م) ثانية ثم (ا ل م ص) الى آخر السور فحسبوا حساب الحروف جميعها فبلغ سبعمئة وكسوراً من السنين(١)فأقروا بالامر تسليما بأن النبي قد بعث بين يدي الساعة . ومع ان هذه الرواية ليست موثقة ولا يثبت مضمونها ومداها على نقد وتمحيص من وجوه عديدة فقد تنوقلت واستفاضت في جملة ما تنوقل واستفاض في مختلف كتب التفسير والقرآن .

ومثل هذه الرواية أقوال مروية اخرى معزوة الى بعض الصحابة والتابعين ومستفيضة في كتب التفسير وليست هي الاخرى موثقة اومن شأنها ان تثبت على نقد وتمحيص ذكر فيها ان هذه الحروف ترمز الى بعض اسماء الله واسماء النبي ، وانها تحتوي اسرار القرآن وسر اسم الله الاعظم . ومن هذه الروايات روايتان اوردهما الرازي في سياق تفسير اول البقرة احداهما معزوة الى ابي بكر جاء فيها ان لكل كتاب سراً

(١) حساب الحروف جميعها يتجاوز الثلاثة آلاف والمائتين !

وسر القرآن في اوائل سوره ، وثانيتهما معزوة الى علي ابن ابي طالب جاء فيها ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي . وهناك روايات وأقوال شيعية المصدر جاء في بعضها ان الحروف تحتوي رموزاً للنبي وعلي والحسن والحسين ، وفي بعضها ان كل مطلع من المطالع المنقطعة يشير الى دور من أدوار التاريخ المتصلة بالائمة العلويين ، ومن ذلك ان مطلع سورة آل عمران يشير الى حادث الحسين ومطلع سورة الاعراف يشير الى دور العباسيين . وقد نقل عن تفسير الطبري ان مطلع سورة الشورى يشير الى أحداث تاريخية عظيمة في مدينتين من مدن المشرق وملكين من ملوكها ، وقد ذكر السيوطي في الاتقان ان لمحمد بن حمزة الكرماني كتابا في مجلدين سماه العجائب والغرائب وضمنه أقوالا ذكرت في الحروف المنقطعـــة مثل (ح س ع س ق) مطلع سورة الشورى حيث ترمز الحاء الى حرب علي ومعـــاوية والميم الى الدولة المروانية والعين الى الدولة العباسية والسين الى الدولة السفيانية والقاف الى الدولة المهدوية اللتين تظهران في آخر الزمان .

ثم اتسع القول في مدى هذه الحروف ودلالاتها الفنية والنظمية فتراءى الزمخشري مثلا بعض أسرارها ، فهي نصف حروف المعجم ، وعدد السور التي تبتدء بها على قدر حروف المعجم ، وهي تحتوي نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المجهورة ، وتحتوي كذلك نصف الحروف المستعلية ونصف حروف المنخفضة ونصف حروف القلقة . وتراءى لصاحب كتاب البرهان على ما ذكره السيوطي في الاتقان ان كل سورة بدأت بحرف منها فان اكثر كلماتها وحروفها مماثل له ، وحق لكل سورة منها ان لا يناسبها الا الحروف الواردة فيها ، وذكر على سبيل المثال سورة ق

حيث كان ذلك لان حرف القاف قد تكرر كثيرا في كلمات السورة ، وسورة ص حيث كان ذلك لانها احتوت خصومات عديدة خصومة النبي مع الكفار وخصومة الخصمين امام داود وخصومة اهل النار وخصومة ابليس ، وسورة يونس حيث بدأت بحروف الالف واللام والراء بسبب تكرر هذه الحروف وخاصة الراء فيها الى اخره ، والتكلف شديد البروز وفي هذه الاقوال عند امعان النظر كما أنها غير مطردة عند التطبيق حيث فيها النقص والزيادة والخلاف(١).

ثم اتسع القول فقال قائل انه ما من شيء الا يمكن استخراجه من القرآن ، وانه لو ضاع عقال بعير لوجده في كتاب الله ، واستنبط بعضهم

---

(١) نقول من قبيل الاستطراد اننا اطلعنا على بحث وجيز للاستاذ نصوح الطاهر تضمن تقرير كون الحروف المتقطعة تشير الى عدد آيات السور . ولم نجد فيما جاء في مقاله الموجز شفاء يساعد على القطع برأي حاسم في صحة النظرية وبطلانها ، ثم في صواب شمول الامثلة لجميع السور ذات الحروف المتقطعة على ما يقول به صاحب النظرية . وقد تراأى لنا من الامثلة الواردة ان هناك تجوزاً وتحكما في حساب الآيات ودمج بعض السور في بعض وترجيحا بغير مرجح لروايات الايات المدنية في السور المكية والايات المكية في السور المدنية ، ولروايات اخرى في صدد عدد وحجم بعض السور واسقاط بعض سور مشاجة في مطلعها لسور اخرى كاسقاط سورة الحجر مع انها تبدأ بجملة « الر » واسقاط سورة الاحقاف مع انها تبدء بجملة «حم» وكل ذلك رغبة في التوفيق والتطبيق بسبب صدفة في حساب آيات او وحدات وانطباق على حساب الروايات . وقد وعد الاستاذ نشر البحث تاما شاملا لجميع السور المبدوءة بالحروف المتقطعة والتي يقول ان نظريته وحسابه قد صح فيها جميعها فلننتظر وفاءه بما وعد حتى نتمكن من القطع في النظرية . وقد كتبنا هذا من قبيل الاستطراد وليس من شأنه ان يؤثر في البحث الذي بحثناه حول ما دار في صدد أسرار القرآن أو الغازه او رموزه وآثارها كما هو واضح .

عمر النبي ثلاثا وستين سنة من سورة المنافقون لانها الثالثة والستون من السور وفق ترتيب المصحف وقد جاء فيها آية « ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها » وقال قائل ان نصوص القرآن ليست على ظاهرها ، وان لها معاني باطنة محجوبة عن غير الواصلين والمعلمين ، وقال قائل ان علوم القرآن خمسون علما واربعمئة علم وسبعة آلاف علم او سبعون الف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في اربعة اذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع وقال قائل انه ما من كائن ويكون من احداث الدنيــا منذ بدئها الى منتهاها الا احتوت حروف القرآن وكلماته علمها وغيبها ، وانه احتوى جميع علوم الاولين والآخرين ، وقال قائل ان لكل آية ستين الف فهم وروى راو عن علي ابن ابي طالب انه لو اراد ان يوقر حمل سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن – يعني الفاتحة لفعل ، وفصل بعضهم وفود العلوم المستنبطة من القرآن إستناداً الى ما ورد من بعض كلمات لها صلة مــا لغة أو معنى بعلم أو فن او صناعة ما من العلوم والفنون والصناعات المعروفة فقال ان في القرآن أصل علم الهندســة مستنبطاً من جملة « ظل ذي ثلاث شعب . . سورة المرســلات » واصل علم الجبر والمقابلة مستنبطا من اوائل السور التي فيها ذكر مــدد امم سالفة واعوامها وأيامها وتواريخها وتاريخ ومدة ايام الدنيا وما مضى وما بقي بعضهــا ببعض ، وأصل علم الطب مستنبطا من ثلاث آيات وهي آية الفرقان « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » وآية الاسراء « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » وآية النحل « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » واصل علم الهيئة مستنبطا مما ورد من ذكر ملكوت السماوات والارضين وما بث في العالم العلوي

والسفلي من المخلوقات ، واصل علم المواقيت مستنبطا من آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج والمنازل ، واصل علم التنجيم مستنبطا من جملة «أو أثارة من علم» سورة الاحقاف» وأصل علم تعبير الرؤيا مستنبطا من قصة يوسف ، وأصل علم الحساب مستنبط مما فيه من ضروب الجمع والقسمة والضرب والاعداد والموافقة والتأليف والمناسبة والتنصيف والمضافة ، وأصل كل من علوم النحو والصرف والبيان والبديع والجدل والمنطق والتاريخ والقصص والقضاء والتشريع والفقه والفرائض مستنبطا مما فيه من قواعد صرفية ونحوية ونظم بياني وبديعي وجدلي ومنطقي وقصصي وتاريخ واحكام وحدود وانكحة ومواريث الخ ، وأصل صناعات النجارة والحدادة والزجاجة والقصارة والبناء والخياطة والصباغة والفلاحة والنحت والفخارة والكيالة والرمي والصيد والصياغة والملاحة مستنبطا من كلمات وآيات وردت فيها أشارات ألى هذه الصناعات او ما يتصل بها (١)

ورأي مفسرو الشيعة وباحثوهم في كثير من آيات القرآن وعباراته إشارات ورموزاً إلى علي وفاطمة والحسن والحسين مثل جملة «مرج البحرين يلتقيان» سورة الرحمن «حيث ترمز الى علي وفاطمة وجملة «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .. نفس السورة» حيث ترمز الى الحسن والحسين . وجملة «الف شهر في سورة القدر» حيث ترمز الى مدة الدولة الاموية وجملة «هذان خصمان اختصموا في ربهم» سورة الحج » حيث ترمز الى علي وخصومته لدى ربه مما وقع عليه من حيف في الخلافة» وجملة «يؤمنون

جميع هذه الاقوال واردة في الاتقان للسيوطي

بالغيب سورة البقرة حيث ترمز إلى المهدي المنتظر ، وجملة « وفديناه بذبح عظيم . سورة الصافات حيث ترمز الى الحسين ، وجملة «اخرجنا لهم دابة الارض تكلمهم . سورة النمل « حيث ترمز الى علي يوم رجعته ، وجملة « ومن عنده علم الكتاب سورة الرعد » حيث الى علي ، وجملة « أرأيت إن متعناهم سنين — سورة الشعراء حيث ترمز الى الامويين وجملة « سبعا من المثاني سورة الحجر حيث ترمز الى الائمة السبعة وجملة « حملته امه كرها سورة الاحقاف حيث ترمز الى الحسين وفاطمة وجملة « وانه لعلم للساعة — سورة الزخرف » حيث ترمز الى المهدي وجمل «ورددنا لكم الكرة عليهم سورة الاسراء »«ويوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب بآياتنا سورة النمل «وانا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد سورة غافر « وربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . سورة الحجر و «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمــــة ونجعلهم الوارثين — سورة القصص » حيث ترمز الى الرجعة والدور الذي يكون فيه الائمة الفاطميون اصحاب السلطـان ويتمكنون فيه من الانتقام من خصومهم وسالبي حقوقهم . حتى ان الناظر في ما كتبه بعضهم ليجد ان كثيراً من محتويات القرآن مصروف الى الائمة وذرية فاطمة ، ومحمول على تأييد اقوالهم ومـــذاهبهم وائمتهم ورجعتهم وخصومهم وفيه من الغرائب والمفارقات العجيبة ما لا يتسع له اي حوصلة .

ولعل مما يتصل بهذا الباب ما أدير من الاقوال حول احاديث نزول القرآن على سبعة احرف فقد ورد عدة احاديث في ذلك منها ان عثمان بن عفان وقف على المنبر فقال أذكر الله رجلا سمع النبي قال إن القرآن

أنزل على سبعة أحرف كلها شاف وكاف الاقام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا فقال وأنا اشهدمعهم ، ومنها عن ابن عباس أن النبي قال أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم ازل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف ومنها حديث نبوي رواه النسائي ان جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل اقرأ القران على حرف فقال ميكائيل استزده حتى بلغ سبعة احرف ، وفي حديث مروي عن أبي بكرة زيادة مفادها انه لما بلغ سبعة أحرف نظرت الى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة . ومنها عن أبي عن النبي قال أرسل الي ربي أن أقرأ القرآن على حرف فرددت عليه أن هون على أمتي فأرسل الي أن اقرأه على حرفين فرددت عليه أن هون على امتي فأرسل الي ان أقرأه على سبعة احرف ومنها حديث آخر عن ابي قال لقي رسول الله جبريل فقال يا جبريل اني بعثت الى امة اميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتابا قط قال يا محمد إن القرآن انزل على سبعة احرف ومنها حديث ابن مسعود أن النبي قال كان الكتاب الاول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة ابواب على سبعة احرف زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمة وآمنوا متشابهه وقولوا آمنا كل من عند ربنا . ومنها حديث جاء في الموطأ قال عمر سمعت هشام ابن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها وكان رسول الله أقرأنيها فكدت ان أعجل عليه ثم امهلته حتى انصرف يعني اتم صلاته ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله فقلت يا رسول الله إني سمعت هذا

يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها ، فقال رسول الله أرسله ثم قال اقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله هكذا انزلت ، ثم قال لي اقرأ فقرأت فقال هكذا انزلت ثم قال إن القرآن نزل على سبعة احرف فأقرأوا منه ما تيسر .

فمع ان هذه الاحاديث المروية ومداها وظروفها بوجه الاجمال باستثناء حديث ابن مسعود الذي يتحمل نصه التوقف والنظر اكثر من غيره لانه لا يتسق مع سائر الاحاديث الواردة وفيه تقسيم وتصنيف عليين يشبهان تقسيم العلماء المتأخرين عن عهد النبي كثيراً تلهم أنها في صدد التيسير والتسهيل في قراءة القران نطقا واداء وعدم الاحراج والاعنات في ذلك وهذا مما قرره غير واحد من العلماء - فان البحث حولها اتسع حتى خرج عن هذا النطاق ودخل في نطاق آخر يتصل بما ذكرناه من التخمينات حول أسرار القران ومكنوناته وشموله . ولقد عد صاحب الاتقان خمسة وثلاثين قولا في هذه الاحاديث أقلها متصل بتسهيل القراءة واكثرها من قبل تلك التخمينات كما ترى في هذه السلسلة .

١ - سبعة أوجه القراءة

٢ - سبعة أوجه يقع فيها تغاير في فتح ورفع وكسر وتقديم وتأخير وتخفيف وتشديد وادغام .

٣ - سبعة انواع من الآيات : اية في صفات الله واية تفسيرها في اية اخرى وآية بيانها في السنة الصحيحة وآية في قصة الانبياء والرسل واية في خلق الاشياء وآية في وصف الجنة واية في وصف النار

٤ - سبع جهات من صفات الله .

٥ سبعة أنواع أخرى من الآيات اية في وصف الصانع واية في إثبات الوحدانية له واية في اثبات صفاته واية في اثبات رسله واية

اثبات كتبه واية في اثبات الاسلام واية في اثبات الكفر

٦ - سبع قراءات لسبعة من الصحابة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب.

٧ - ظهر وبطن وفرض وندب وخصوص وعموم وأمثال .

٨ - تصريف ومصادر وعروض وغريب وسجع ولغات مختلفة كلها في واحد .

٩ - سبعة ألفاظ عام اريد به الخاص وخاص اريد به العام ، وعام اريد به العام وخاص اريد به الخاص ولفظ يستغنى تنزيله عن تأويله ولفظ لايعلم تأويله الا الراسخون ولفظ لايعلم تأويله الا الله.

١٠ - المطلق والمقيد والعام والخاص والنص والمؤول والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفسر والاستثناء وهذا قول الفقهاء .

١١ - الحذف والصلة ، والتقديم والتأخير ، والاستعارة والتكرار ، والكناية والحقيقة والمجاز ، والمجمل والمفسر ، والظاهر والغريب وهذا قول علماء اللغة .

١٢ - التذكير والتأنيث ، والشرط والجزاء ، والتصريف والاعراب والاقسام وجوابها ، والجمع والافراد والتصغير والتعظيم ، واختلاف الادوات وهو قول علماء النحو .

١٣ - الزهد والقناعة مع اليقين والجزم والخدمة مع الحياء (والكرم والفتوة مع الفقر ، والمجاهدة والمراقبة مع الخوف ، والرجاء والتضرع والاستغفار مع الرضى ، والشكر والصبر مع المحاسبة والمحبة والشوق مع المشاهدة وهذا قول الصوفية .

١٤ - امر ونهي وبشارة وانذار وأخبار وأمثال .

١٥ - علم الانشاء ، وعلم الايجاد ، وعلم التوحيد والتنزيه ، وعلم صفات الذات ، وعلم صفات الفعل ، وعلم صفات صفات العفو والعقاب ، وعلم الحشر والحساب ، وعلم النبوات .

١٦ - المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والخصوص والعموم والقصص .

١٧ - سبع لغات لغة قريش ولغة اليمن ولغة جرهم ولغة هوازن ولغة قضاعة ولغة تميم ولغة طي .

١٨ - سبعة اوجه أعراب الكلمة الواحدة حتى يكون المعنى واحداً وان اختلف لفظا .

١٩ - سبعة احرف هي امهات الهجاء وهي الالف والباء والجيم والدال والزاي والسين والعين .

٢٠ - ان جبريل كان يكرر كل كلمة سبع مرات على سبعة اوجه .

٢١ - تقرير كون القرآن نزل بمعان متسق مفهومها مختلف مسموعها حيث يجوز التغاير اذا لم تبدل كلمة عذاب بكلمة رحمة . وروى القائلون في معرض تدليلهم على قولهم ان ابن مسعود كان يقرأ امهلونا مكان انظرونا في سوره الحديد ، وأن أبيا كان يقرأ سعوا بدل مشوا في سورة البقرة ، وان ابن مسعود أجاز لقارىء ان يقرأ طعام الفاجر بدل طعام الاثيم في سورة الدخان لانه لم يكن يحسن النطق بكلمة الاثيم .

٢٢ - التسهيل في التقديم والتأخير مثل جاءت سكرة الحق بالموت بدلا من جاءت سكرة الموت بالحق في سورة ق .

وواضح ان في كل ما ذكرناه في هذا المبحث ثغرات عديدة من

شأنها التشويش على القرآن ومداه وعلى الناظر فيه والراغب في تفهمه ، وصرف القلب عن روحانيته واهدافه الوعظية والارشادية والتذكيرية والتوجيهية ، والاستغراق في هذه الناحية حتى تنقلب جمل القرآن وكلماته وحروفه الى معادلات جبرية ورياضية وكيماوية وتنجيمية ومنطقية وكلامية وجدلية الى اخره بما يخرجه عن قدسيته ولا يتسق مع طبيعة توجيهه الى مختلف طبقات الناس ، وما تقتضيه هذه الطبيعة من عدم انطوائه على أسرار ورموز وغوامض غيبت عن فئة دون فئة ، واختصت بها فئة دون فئة ، كما لا يتسق مع نصوص القرآن الصريحة بأنه انزل ليكون موعظة وهدى ورحمة للناس كافة ، وبأن الناس جميعهم مدعوون الى تفهمه وتدبره والتزام حدوده الايجابية والسلبية ، وهذا فضلا عن ما في الاقوال او كثير منها من التكلف والتزيد والتجوز والتحكم ، وعن ما يبدو في بعضها من آثار الخلافات الحزبية والسياسية والنحلية والمذهبية من جهة وعما يبدو في بعضها من جهة ثانية من مقاصد الدس على القرآن والاسلام من بعض النحل والفرق التي حرصت ان تبث في الاذهان ان التكليفات الشرعية معاني واهدافا مكنونة تخالف ظاهرها ، وان تثير في النفوس نحو القرآن الشكوك والريب ، وفضلا عن ما يبدو من جهة ثالثة من مقاصد التجرؤ على التبديل والتغيير في نظم القرآن وكلماته من ناحية ما هناك من روايات الخلافات اللفظية والنظمية ، ونكاد نجزم ان كثيراً من هذه الروايات الكثيرة جداً والواردة في مختلف كتب التفسير والقراءات والمعزوة الى الصحابة ، والتي تدور في نطاق الالفاظ والنظم تبديلا وتقديما وتأخيراً وزيادة ونقصاً ونحواً وصرفا مدسوس او محرف ، وانه يمت الى هذه المقاصد الخبيثة على اعتبار ان صحة صدور القرآن عن

النبي منوطة بوحدة اللفظ والنظم ، وان تشوبه هذه الوحدة كفيل بالتشكيك في صحة صدور القرآن المتداول من النبي ، مع التنبيه على لمنا لا نرى ما يمنع ان يكون بين المندعين في هذه الروايات والتخمينات اناس ذوو نيات حسنة وطويات سليمة ومقاصد بريئة .

- ٧ -

الولع بالتفريع والاستطراد :

سابعا ان بعض المفسرين قد ولع ولعا غريبـــا في التفريع والتقسيم والاستطراد الى البحوث المتنوعة الآلية والعقلية والكونية والكلامية والطبيعية والفقهية والفلسفية .

والعلم البارز في هذا الباب من قدماء المفسرين الرازي في تفســيره « مفاتيح الغيب » وهـــذا الولع ليس من نوع الولع بالرموز والاسرار والمغيبات ، وهذا ما جعلنا نفرد له نبذة خاصة .

وقبل كل شيء نريد ان ننبه على ان تفسير هـــذا الامام من ناحية متناوله العلمي الاسلوبي القديم كنز غني ومعلمة كبرى يصح ان تكون مفخرة من مفاخر المؤلفين الاسلاميين وما بلغوا اليه من رفيع المستوى في البحث والعلم وسعة الاطلاع وشموله وطول النفس ، ولو انه الف كتابه الذي يقع في اكثر من ستة آلاف صحيفة من القطع الكبير ذي الحرف الدقيق كمعلمة مرتبة على حروف الهجاء او الكلمات او المواضيع لكان عملا عظيما لا غبار عليه ، ولكن الثغرة فيه انه كتبه في صدد تفسير القرآن في حين ان الناظر فيه يكاد ينسى انه يقرأ تفسيرا لكثرة التفريع وتعداد المسائل والوجوه وتوالي الاستطرادات التي كثيراً ما لا تكون متصلة بالموضوع القرآني الا اتصالا لفظيا .

وفي الصفحات الاولى لهذا التفسير يبدو ان الدافع اليه هو الرغبة في تعداد كثرة المسائل التي تتفرع من كل فصل أو آية او عبارة في القرآن فيقول المؤلف مثلا انه قال ان سورة الفاتحة يمكن ان يستنبط منها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض ذوي الهمم القاصرة ، ثم يأخذ يجمل في التعداد وفي انواع المسائل وما تحتويه من وجوه وامثلة حتى ينتهي به القول الى ان الاستعاذة وحدها تحتوي عشرة آلاف مسألة ، وان البسملة وحدها تحتوي مثل ذلك ، وان الحمد لله رب العالمين تحتوي مثل ذلك ، ثم يجمل فيقول ان سورة الفاتحة تحتوي ألف ألف - مليون - مسألة او اكثر وليس عشرة آلاف كما قرر أولا من باب التساهل ، فرب العالمين مثلا على اسلوبه تعني جميع المخلوقات السماوية والارضية من ملائكة وسماوات وكواكب وارضين وجن وانس ودواب وطيور وهوام ومعادن ومياه وبحار ونباتات واشجـــار وما يتصل بكل ذلك من عادات ونواميس ومعايش الى اخره ، حيث يبدو في هذا من الاغراق العجيب في التجوز والتوسع في سياق تفسير القرآن ما يثير العجب . ولقد بلغ عدد الصفحات الكبيرة التي فسر فيها سورة الفاتحة مئتين وستاً وعشرين احتوت اكثر من مئة ألف كلمة أو بمقدار المصحف جميعه مرة ونصفا . فيذكر الكلمة من ناحية تركيبها المجاني عكساً وطردا وتبديل مواقع حروف وثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسيا وسداسيا ، ثم من ناحيه اشتقاقها ومعانيها في كل هذه التركيبات المجانية والاوزان الصرفية ، ثم من ناحية صرفها ونحوها ومداها الفلسفي والمنطقي والكلامي والجدلي والذهني والاستعمالي والحسي والنفسي والتصوري والفقهي ، مع استعراض اقوال وافتراض اسئلة وايراد ردود واجوبة الى اخره ، فلا يلبث القاري، كما قلنا ان ينسى انه

يقرأ تفسيراً القرآن وانما معناه لبيا كل شيء بما حمل بعض العلماء على القول ان فيه كل شيء هذا التفسير .

وبنفس هذا الاسلوب الاستطرادي ذي النفس الطويل يتناول البحث في ماهية كل موضوع ، سواء أكان ذلك من مشاهد الكون والخلق والتكوين ، ام من مشـــاهد الآخرة أم من مواضيع الملائكة والجن والشياطين فيستعرض اقوال مختلف الفئات من طبيعيين والهيين وفلاسفة وملاحدة وفرق اسلاميـة في تلك المشـــاهد وهذه المواضيع وادلتهم واعتراضات خصوم كل فئة وفرقة وادلتهم وينـــاقش ويجادل ويقرر ويصوب ويخطيء .

وبنفس الاسلوب يدخل في بحوث جدلية كلامية فيورد أقوال مختلف الفئات والفرق وادلتهم واعتراضاتهم على خصومهم وينـــاقش ويجادل ويقرر ويصوب ويخطيء ايضا .

ومع ما على كلام المؤلف من طابع الاستقلال بوجه عام وما تدل عليه استطراداته وتعليقاته واستدراكاته ومنقولاته من قوة العقل وسعة الافق والنظر والمشاركة الواسعة في مختلف العلوم والمواضيع من نحو وصرف وبلاغة ومنطق وجدل وفقه ورواية وفلسفة وطبيعيات والهيات وطبيات الى اخره فان المدقق فيها يجد كثيرا من التكلف والتحكم والاضطراب والتخمين والمفارقة والمبالغة والاغراب في مواضع ومواضيع كثيرة يرى القارىء شيئا منها في بعض الامثلة التي سننقلها عنه بعد قليل وهذا بالاضافة الى نظره في القرآن جملة جملة وعبارة عبارة وسوقه التعليقات والاستطرادات على هذا الاعتبار في الاعم الاغلب ، والى ما في كتابه في صدد القصص القرآنية من تعليقات فيها ما في كتب غيره

من المبالغات والتهافت والمفارقات والاغراب ، والى ما في كتابه مع طابع الرأي والشخصية من الاحاديث الكثـــيرة المعزوة الى الصحابة والتابعين ومن الاحاديث النبوية التي أوردت في سيـاق التعليقات والاستطرادات ومناسبات النزول فيها شيء كثير لا يستند الى اسناد موثقة ولا يثبت على النقد والتمحيص .

والكتاب جميعه أمثلة على ما قلناه آخذ بعضها برقاب بعض حتى ان الناظر فيه لا يجد أي صعوبة في تلقف الامثلة في سياق اي جملة او عبارة قرآنية . ومع ان نقل نماذج في هذا المقام مؤد الى التطويل بسبب كثرة التداخل والتفريع والاستطراد وطول النفس فاننا رأينا ان نورد بعض المقتطفات الموضوعية مع مثال اسلوبي واحد .

(١) تســاءل المؤلف في سياق جملة «او كصيب من السماء - سورة البقرة»عن فائدة ذكر السماء مع ان الصيب لا يكون الامن السماءوأجاب بقوله ان ذلك لئلا يظن احتمال نزول الصيب من بعض جوانب السماء دون بعض ، فلما ذكرت السماء دل على انه عام مطبق آخذ بآفاق السماء جميعها . ثم استطرد فقال ان من الناس من قال ان المطر يحصل من ارتفاع ابخرة من الارض الى الهواء فتنعقد هناك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة اخرى فذاك هو المطر فأبطل الله ذلك المذهب حيث بين ان الصيب نزل من السماء ، واكده في آيات اخرى مثل «وانزلنا من السماء ماء طهوراً . سورة الفرقان »و« ينزل من السماء من جبال فيها من برد سورة النور » والتكلف في التـأول واضح كما انه ربط في استطراداته نظرية ماهية المطر بنصوص قرآنية وفي هـذا تعريض القرآن النقاش الجدلي .

(٢) قال في سياق تعبير « يا ايها الناس .. سورة البقرة » انه روى عن علقمة والحسن انهما قالا ان كل شيء في القرآن يبدء بهذا النداء فانه مكي وما ابتدأ بنداء المؤمنين فهو مدني . ثم قال ان القاضي قال ان هذا الذي ذكروه ان كان مرجعه النقل فسلم به وان كان السبب فيه حصول المؤمنين في المدينة على الكثرة دون مكة فهو ضعيف لانه لايجوز ان يخاطب المؤمنون مرة بصفتهم ومرة بجنسهم ، وقد يؤمر من ليس يؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها فالخطاب في الجميع ممكن . وغفل هو والقاضي ومن نقل عن علقمة والحسن او هذان اذا كانا قالا القول الذي نقل عنهما عن واقعية وقطعية مدنية آيات فيها الخطاب بنداء المسلمين مثل آية النساء الاولى والآية (١٧٠) منها ومثل آية الحجرات (١٣) مثلا فأراد القائلون ان يحلوا المسألة بالمنطق او التسليم بالنقل مهما كان بادي الوهن دون الواقع الراهن .

(٣) قال في سياق جملة « الذي جعل لكم الارض فراشا .. البقرة» انها دليل على ان الارض ساكنة غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فلو كانت متحركة بالاستقامة لما كانت فراشا على الاطلاق لان من طفر من موضع عال يجب ان لا يصل الى الارض لانها هاوية وذلك الانسان هاو والارض اثقل من الانسان والثقيلان اذا نزلا كان اثقلهما اسرعهما والابطاء لا يلحق الاسراع فثبت انها لو كانت هاوية لما كانت فراشا .. اما لو كانت حركتها بالاستدارة فلا يكمل انتفاعنا بها لان حركة الارض اذا كانت الى المشرق مثلا والانسان يريد ان يتحرك الى جانب الغرب فيجب ان يبقى في مكانه ولا يستطيع ان يصل الى حيث يريد لان حركة

الارض اسرع ولما امكنه الوصول علمنا ان الارض غير متحركة بالاستدارة ايضا .

(٤) تساءل عن ايها افضل الارض ام السماء في سياق آية البقرة (٢٢) فأورد اربعة اقوال لمفضلي السماء على الارض هي (١) ان السماء متعبد الملائكة وما فيها بقعة عصى الله فيها احد (٢) ان آدم لما ارتكب المعصية قيل له اهبط من الجنة وقال الله لا يسكن في جواري من عصاني (٣) ان ذكر السماء على الاغلب قد ورد مقدما والتقديم دليل التفضيل (٤) ان الله قال « وجعلنا السماء سقفا محفوظا . . سورة الانبياء » و « تبارك الذي جعل في السماء بروجا . . سورة الفرقان » ولم يذكر الارض في ذلك ، ثم أورد اقوال مفضلي الارض وهي (١) ان الله وصف بقاعاً من الارض بالبركة (٢) الله وصف جملة الارض بالبركة (٣) ان الله خلق الانبياء من الارض (٤) ان الله كرم الارض بالخلق منها في حين انه لم يخلق من السماء شيئا (٥) ان الله كرم نبيه فجعل له الارض كلها مسجداً وجعل له ترابها طهوراً .

(٥) ومما قاله في تعليل طلوع القمر وغيابه ان الله جعل في كلا الحالتين مصلحة ، ففي غروبه نفع لمن هرب من عدوه فيستره الظلام ويخفيه فلا يلحقه طالب فينجو ، وفي طلوعه نفع لمن ضل عنه شيء واخفاه الظلام قبل الطلوع .

(٦) وقال فيما قاله في سياق جملة « اذ قال ربك للملائكة . . سورة البقرة » روى ان بني آدم عشر الجن وان الجن عشر حيوانات البر وهؤلاء كلهم عشر الطيور وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الارض الموكلين بها وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الدنيا ، وكل

هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وعلى هذا الترتيب الى السماء السابعة ، ثم الكل في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل ، ثم كل هؤلاء عشر ملائكة السرادق ، وعدد سرادقات العرش ستمئة الف وطول كل واحد وعرضه وسمكه اذا قوبلت به السماوات والارضون ومافيها وما بينها فانها كلها تكون شيئا يسيراً وقدراً صغيراً ، ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة من البحر ولايعلم عددهم الا الله ، ثم هؤلاء في مقابلة ملائكة اللوح الذين هم اشياع اسرافيل والملائكة الذين هم جنود جبرائيل مثل ذلك . ثم استطرد فقال انه قرأ في بعض الكتب ان النبي حين عرج به رأى الملائكة بمنزلة سوق بعضهم يمشي تجـــاه بعض فسأل جبريل اين يذهبون فقال لا أدري الا اني اراهم مذ خلقت ولا ارى واحداً منهم قد رأيته قبل ذلك ، ثم سألوا واحداً منهم مذ كم خلقت فقال لا ادري غير ان الله تعالى يخلق كوكبا كل اربعمئة الف سنة فخلق الله مثل ذلك الكوكب منذ خلقني اربعمئة الف . وروى في سياق الجملة القرآنية المذكورة عن ابن عباس ان النبي بينما كان في ناحية ومعه جبريل اذ انشق افق السماء فأقبل جبريل يتضـــاءل ويدخل بعضه في بعض ويدنو من الارض فاذا ملك قد مثل بين يدي رسول الله فقال يا محمد ان ربك يقرأك السلام ويخيرك بين ان تكون نبيا ملكا او نبيا عبداً قال عليه السلام فأشار الي جبريل بيده ان تواضع فعرفت انه لي ناصح فقلت عبداً نبياً فعرج ذلك الملك الى السماء ، فقلت يا جبريل قد كنت اردت ان اسألك عن هذا فرأيت من حالك ماشغلني عن المسألة فمن هذا يا جبريل ، قال هذا اسرافيل خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لا يرفع طرفه وبينه وبين الرب سبعون نوراً ما منها نور يدنو منه الا احترق ، وبـــين يديه اللوح

لمحفوظ فاذا اذن الله في شيء من السماء أومن الارض ارتفع ذلك اللوح بقرب جبينه فنظر اليه فان كان من عملي أمرني به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره بـه وإن كان من عمل ملك الموت أمره بـه ، قلت على اي شيء انت يا جبريل قال على الرياح والجنود ، قلت على أي شيء ميكائيل قال على النبات ، قلت على أي شيء ملك الموت ، قال على قبض الانفس ، وما ظننت أنه هبط الا لقيام الساعة ، وما ذاك الذي رأيت مني الا خوفا من قيامها . ،

وهذا مثال اسلوبي منه قال : ان جملة « يا أيها الناس اعبدوا ربكم سورة البقرة » تحتوي مسائل (المسألة الاولى) طرز الخطاب وفيهـا فوائد (الفائدة الاولى) تحريك السمع (الثانية)توجيه الخطاب(الثالثة) الانتقال من الغيبة الى الحضور (الرابعة)الامربالتكليف(المسألةالثانية) احتوت شرح كلمة الناس ومداها واشتقاقاتها (المسألة الثالثة) في النداء فذكر وجوه النداء ومواقعه اولا وثانياً وثالثاً (المسألة الرابعة) في حروف النداء (المسألة خامسة) في صلة النـداء (المسألة السادسة) في الامر الذي احتوته الجملة وفيهاابحاث(الاول) حرف التعريف ومداه الثاني) موضع الخطاب (الثالث) شموله وعدم شموله للسامعين (الرابع) مدى الامر بالعبادة (الخامس) ما اذا كان يتناول الكفار (السادس) انكار التكليف وأقوال المنكرين فأورد منها خمسة وردعلى كل منها (السادس) استثناآت شمول التكليف (المسألة السابعة) سبب الدعوة العبادة ومنها يستطرد الى الجملة الثانية من الآية « الذي خلقكم » وهذا الذي ذكرناه رؤوس اقوال فان المؤلف قـد شرح كل مسألة وكل بحث وكل فائـدة

احتوتها المسألة شرحا وافيا بايراد الوجوه ووجوه الاعتراض والاقوال والادلة والرد عليها الخ واستغرق الكلام على هذه الجملة وحدها وهي نصف آية خمس صحف كبيرة وهناك جمل كثيرة جداً استغرق الكلام عليها اكثر مما استغرقه الكلام على هذه الجملة ، واستفاض الكلام فيها استفاضة ابعد عن الشروح اللغوية والنظمية ، وجاء فيها استطرادات ضعيفة الصلة جداً بالجملة ومداها .

ونظن اننا في غنى عن القول إن هذا الاسلوب مشوش على الناظر في القرآن والراغب في تفهم مراميه ومبادئه واستيحاء توجيهاته واحكامه وتلقيناته الكافلة لسعادة الدارين والتي هي الاصل والجوهر فيه وفي الدعوة التي قامت عليه ! وهذا فضلا عما فيه من مآخذ التكلف والتخمين والتزيد والاغراب وايرد الاقوال والروايات المتهافتة والاستغراق في الجدل والماهيات الكونية والغيبية والعقائدية.

واذا كنا اختصصنا تفسير الرازي بالكلام في هذه الفقرة فاننا لا نعني انه هو وحده الذي سارع على هذا الاسلوب فهناك تفاسير عديدة وكثيرة التفريع والاستطراد الى ما لا صلة له بتفسير القرآن الاما يمكن ان يكون من صلة بعيدة لغوية أو موضوعية ذكر الاتقان منها تفسير الثعلبي . وقد اطلعنا في احدى مكتبات بورسة على تفسير مخطوط ضخم وعديد المجلدات اسمه العادلي ينحو مؤلفه هذا النحو

ولعل تفسير المنار من التفاسير الحديثة مما يصح ان يسلك في هذا السلك . فقد صدر منه اثنا عشر مجلداً تبلغ صفحاتها نحو ستة آلاف من القطع الكبير والحرف الدقيق لتفسير اثني عشر جزءاً من القرآن

أي ان الله لو فسح في حياة مؤلفـه العظيم وانه لبلغت صفحاته خمسة عشر الفا أي اكثر من ضعف تفسير الرازي ، ولعله يكون بذلك اضخم تفسير في القديم والحديث . وقد توسع مؤلفه في البحوث واكثر من الاستطرادات والتفريعـات والتعليقات والتزم في كثير منها اسلوب المناظرة وخاصة بين الاسلام والنصرانيـة ومبشري النصارى وكتابهم بحيث يكاد القارىء ينسى انه يقرأ تفسيراً وبحيث يصعب التفرغ لقراءته ، فأبعده ذلك فيا نعتقد عن أن يكون التفسير المثالي ، مع ان التمحيص والتدقيق في بحوثه غالبان ، والتكلف والتهافت فيها قليلان وقد نم عن فهم عميق لاهداف القرآن ومراميه ، بحيث يعد بحق أحسن المؤلفات الاسلامية القرآنية الكبيرة واقومها وأقواها وأشدها حرارة وحيوية . وهو من هذه الناحية معلمة اسلامية قرآنية عظيمة القدر من الخسارة أن يموت مؤلفها قبل اتمامها ، وفرق كبير من ناحية التمحيص والتدقيق وقلة التكلف والتهافت والاغراب بينه وبين تفسير الرازي وغيره من التفاسير الكبيرة القديمة والحديثة .

ولقد اطلعنا على تفسير حديث نشر معظمه للاستاذ المراغي(١) ومع ان قصد التحرز والتحاشي وعدم الاغراب والسير بأسلوب قريب المتناول على اوساط الافهام ملموس فيه فانه يأخذ كثيراً من الروايات والاقوال الضعيفة وغير المتسقة مع الآيات سنداً أو كقضايا مسلمة ولا يندمج في جو القرآن ونزوله وبيئته ، وليس فيه تلك الحرارة والحيوية اللتين تثيران الاهتمام والشوق فضلا عن تفصيلات كثيرة لا طائل من ورائها أدخلته

---

(١) هو غير المرحوم شيخ الازهر

في عداد كتب التفسير الضخمة التي لا تسمح لكثير من الراغبين بالاحاطة به واستيعابه حيث تبلغ صفحاته نحو سبعة آلاف ونيفا ، وكل ذلك لا يجعله تفسيراً مثاليا فيا نعتقد

- ٨ -

بالاضافة الى ما شرحناه من الثغرات وأوردناه من التعليقات والمآخذ حول كل مبحث من مباحث هذا الفصل فان هناك بحوثا وآراء دارت حول القرآن ، وكانت فيايتبادر لنا مظاهر عامة مشتركة بين هذه الثغرات يصح ان تشرح وأن يعلق عليها في هذا المقام

روايات نزول القران جملة واحدة واثرها

فاولا من ذلك الآثار المروية بأن القرآن قد نزل جملة واحدة الى سماء الدنيا ثم صار ينزل على النبي خلال مدة حياته بعد بعثته . فالذي يبدو لنا انه كان لهذه الآثار اثر قليل او كثير في بعض الثغرات التي ذكرناها أو بالاحرى في أكثرها ، بحيث صارت عاملا بين حين وآخر وبقصد وغير قصد في اغفال صلة الفصول القرآنيـــة بالسيرة والبيئة النبوية ، ومفهوم الاساليب الخطابية العربية ومدارك سامعي القرآن ومألوفاتهم ومتداولاتهم وعاملا كذلك في إسباغ معان خاصة أو مستقلة على الالفاظ والاساليب القرآنية ، واستخراج معان خاصة منها تباعد بيننا وبين نزول القرآن وجو البيئة النبوية التي تتصل بالقرآن ونزوله واساليبه والفاظه اتصالا مباشراً ووثيقا على ما شرحناه في مناسبة سابقة

ومع ان من العلماء من توقف في التسليم بمدى هذه الآثار ورأى فيها تعارضا مع ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ وجدل ، وقال إن

القرآن كان ينزل على قلب النبي من عند الله منجما حسب الحوادث فان كثيراً منهم اخذوا بها كما يبدو من التدقيق في مختلف الكتب والتفاسير القديمة التي كانت عماد كتب التفسير التالية قليلا او كثيراً ، ومنهم من جمع بين الاخذ بها وبين القول بنزول القرآن حسب الحوادث معا : وجل هذه الآثار إن لم يكن كلها منسوب إلى ابن عباس مع اختلاف في النصوص والطرق :

١ ـ فقد اخرج الحاكم من احدى الطرق عن ابن عباس انه قال : « انزل القران جملة واحدة الى سماء الدنيا ليلة القدر ثم انزل بعد ذلك في عشرين سنة ثم قرأ «وقال الذين كفروا لو لا انزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا» سورة الفرقان ٣٢

٢ ـ واخرج الحاكم كذلك بطريق اخرى عن ابن عباس انه قال « فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي

٣ ـ واخرج الطبراني من احدى الطرق عن ابن عباس قال « انزل القرآن في ليلة القدر الى سماء الدنيا جملة واحدة ثم انزل نجوما

٤ ـ واخرج الطبراني كذلك عن ابن عباس من طريق اخرى انه قال « انزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد بجواب كلام العباد واعمالهم .

٥ ـ واخرج ابن ابي شيبة عن ابن عباس «ان القرآن دفع الى جبريل في ليلة القدر جملة واحدة ثم جعل ينزله تنزيلا

٦ ـ واخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس انه قال « نزل القرآن

جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ونجمه جبريل على النبي عشرين سنة . وقد سبقت هذه الروايات في سياق هذه الآيات :

١ - شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن   البقرة ١٨٥
٢ - انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين   الدخان ٣
٣ - انا انزلناه في ليلة القدر   القدر ١

ووردت متقاربة المدى مع بعض التباين في الصيغة في التفسير المنسوب الى ابن عباس وفي تفاسير عديدة مثل الطبري والكشاف والخازن وابي السعود والبيضاوي جريا على العادة من اتخاذ المفسرين الروايات الواردة في أغلب الاحيان مادة للتفسير مهما كان امرها وروانها على ما شرحناه في مناسبة سابقة .

ولم يقتصر الامر على الروايات المعزوة الى ابن عباس فان بعض العلماء رووا روايات وقالوا اقوالا اخرى في الموضوع فقال ابو شامة وهو من علماء القرآن باحتمال ان يكون القرآن قد انزل الى السماء قبل نبوة النبي . وروي عن عكرمة انه قال ان آية « فلا اقسم بمواقع النجوم سورة الواقعة » تعني نزول القرآن منجما من السماء الاولى

وعلق بعض العلماء والمفسرين على ما تضمنته الروايات تعليقات تطبيقية وتوفيقية على اعتبار انها قضية مسلمة فقال ابو شامة ان السر في انزاله الى السماء تفخيم امره وامر من نزل عليه ، وذلك باعلام سكان السماوات السبع ان هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لاشرف

الامم قد قربناه اليهم لتنزله عليهم ، ولولا ان الحكمة الالهية اقتضت وصوله اليهم منجما حسب الوقائع لهبط به الارض جملة واحدة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الامرين بإنزاله جملة ثم إنزاله مفرقا ا.. وقال الحاكم الترمذي انزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا تسليما منه للامة ما كان ابرز لهم من الحظ ببعث محمد، وذلك ان بعثة محمد كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد وبالقرآن فوضع القرآن ببيت العزة في السماء الدنيا ليدخل في حد الدنيا ووضعت النبوة في قلب محمد ، وجاء جبريل بالرسالة ثم بالوحي ، كأنه تعالى اراد ان يسلم هذه الرحمة التي كانت حظ هذه الامة من الله . . ا وقال السخاوي ان في انزاله الى السماء جملة واحدة تكريماً لبني آدم وتعظيما لشأنهم عند الملائكة ، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم ، ولهذا امر سبعين الفا من الملائكة ان تشيع سورة الانعام (١) ، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام وانساخهم اياه وتلاوتهم له ، وفيه تسوية بين نبينا وبين موسى في انزاله كتابه جملة ، والتفضيل لمحمد في انزاله جملة ومنجما . . ا وجاء في تفسير الخازن في سياق سورة القدر وبعد ايراد الروايات المذكورة سابقا : قيل انما انزله الى سماء الدنيا لشرف الملائكة بذلك ولانها كالمشترك بيننا وبين الملائكة فهي لهم سكن ولنا سقف وزينة ، وذكر السيوطي في اتقانه انه ورد في تفسير النيسابوري ان جماعة من العلماء قالوا نزل القرآن جملة ليلة القدر من اللوح المحفوظ الى بيت يقال له بيت العزة فحفظ جبريل وغشي على اهل السماوات من هيبة كلام الله فمر بهم جبريل وقد افاقوا وقالوا ماذا انزل ربكم قالوا

---

(١) هناك حديث روى عن النبي بذلك .

الحق يعني القرآن وهو معنى قوله تعالى« حتى اذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير . . سورة سبأ ٢٣ » ، فأتى به جبريل الى بيت العزة فأملاه على السفرة الكتبة يعني الملائكة وهومعنى قوله تعالى «بأيدي سفرة، كرام بررة..عبس١٥-١٦»وآية سبأ جاءت في سياق مشهد من مشاهد الآخرة وفيه انذار وتنديد بالكفار وحكي فيه موقف من مواقف الجدل بينهم وبين النبي ولا صلة قط بينه وبين المعنى او المشهد الذي اورده النيسابوري ، وفي هذا مثل آخر لاخذ المفسرين الآيات آية او جملة من آية وعدم ملاحظتهم السياق الذي جاءت فيه . . ومنهم من ناقش ما اذا كانت جملة « انا انزلناه في ليلة القدر » من جملة القرآن الذي نزل جملة واحدة أم لا لانها تتضمن اخبارا وترهم التعارض ، ثم خرجوها بأن معنى انزلناه في الجملة قضيناه وقدرناه (١) .

كل هذا في حين ان هذه الاقوال وخاصة المعزوة الى ابن عباس وهي الاصل فيها ليست مرفوعة الى النبي ، وهي اخبار عن غيب متصل بعلم الله وسر ملكوته ووجوده لا يمكن العلم بها الا من طريق النبي وهو ما لم يثبت فيما اطلعنا عليه ، ونستبعد صدورها عن ابن عباس لما فيها من تخمين في امر لا يصح ان يلقى الكلام فيه جزافا ومن غير سند نبوي ثابت او صراحة قرآنية .

وفي الروايات الوثيقة الواردة ان الوحي نزل لاول مرة على النبي بأول آيات القرآن في ليلة من ليالي رمضان وهو معتكف في غار حراء على عادته من الاعتكاف في هذا الشهر ، وما احتوته آيات البقرة والدخان والقدر هو فيما نعتقد إشارة الى هذا الحادث ، وقد جاءت كلمة القرآن

---

(١) الاقوال التي اوردناها قد ورد جلها في الاتقان للسيوطي .

في اوائل سورة المزمل التي هي من اوائل القرآن نزولا ثم ظلت تتكرر في السور المكية والمدنية ، وكانت تعني بطبيعة الحال الجزء الذي تم نزوله على قلب النبي ، وفي هذا دليل على ان تعبير « انا انزلناه » في آيتي الدخان والقدر وجملة « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » في آية البقرة لا تقتضي ان تكون قصدت جميع القرآن بما يمكن ان يكون عل اشكاله اريد تخريجه على الوجه الذي خرج به .

ولقد اورد السيوطي في اتقانه حديثاً نبويا برواية واثلة ابن الاسقع جاء فيه ان النبي قال ان التوراة نزلت لست مضين من رمضان والانجيل لثلاث عشرة والزبور لثمان عشرة والقرآن لاربع وعشرين خلت منه ، وسيق هذا الحديث في معرض تلك الآيات والروايات والاقوال ، ومهما يكن من امره فليس من شأنه على فرض صحته ان يؤيد تلك الاقوال والروايات لانه ليس فيه صراحتها ، وليس من المستبعد ان يكون اريد به الاشارة الى اول نزول الكتب السماوية بما فيها القرآن كما هو الواقع المروي في الاحاديث الصحيحة بالنسبة الى القرآن .

ومن الطريف ان بعض المعلقين استنبط على ما ذكره السيوطي من عدم الرد على الكفار فيما تحدوه من انزال القرآن جملة واحدة صحة ما قيل من أن الكتب السماوية نزلت جملة واحدة وقال إنها لولم تكن نزلت جملة واحدة لكان القرآن رد على المتحدين .

واذا كان بعض العلماء توقف في ما اذا كانت جملة « انا انزلناه في ليلة القدر » هي من جملة القرآن الذي نزل جملة واحدة ام لا لانها تتضمن اخبارا وتوهم التعارض فكم بالاحرى الآيات الكثيرة المماثلة ثم الفصول الكثيرة جداً الواردة في مختلف السور والتي تحكي حجاج الكفار

وجدلهم في القرآن وتحديه أو تحكي مواقف الكفار من الدعوة النبوية ومن انذارات القرآن وتبشيراته باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه، وهزؤهم بالنبي وتحديه باحداث المعجزات وانزال الملائكة الخ، ثم التي تحكي وقائع السيرة الجهادية والتشريعية، ثم التي تندد بالكفار وتصور عنادهم وتحتم لهم الخلود في النار وتلك التي تذكر اسلام كثير منهم وتوبة الله عليهم وانتقالهم من صف الكفار الى صف المسلمين ومن مصير الخلود في النار الى الخلود في الجنة وأمثال ذلك مما كان يقع نتيجة لسير الدعوة وظروفها الطارئة ومما يغلب عليه طابع الوسائل التدعيمية لاهداف القرآن وأسسه ودعوته. ولا ندري كيف سوغ القائلون لانفسهم بعد هذا ان يقولوا ان القرآن – وهم يعنون جميع ما بين الدفتين من اسس ووسائل – قد نزل جملة واحدة يوم بعثة النبي او قبله.

وعلى كل حال فان ما ساقه القائلون في حكمة انزال القرآن جملة واحدة الى السماء عند بدء النبوة أو قبلها وكذلك ما علقوا به من تعليقات هي الاخرى أقوال تخمينية، وفيها من التكلف والتزيد بل والتهافت ما يستطيع ان يلمسه المدقق الذي ينعم النظر، وان القول في اصله يظل غير مفهوم الحكمة، وغير متسق مع طبائع الامور وحقائق الاشياء، ولقد غاب عنهم فيما يتراءى لنا ان القرآن بصفته وحي الله قد تحققت فيه جميع معاني التعظيم والتفخيم والتكريم، وانه ليس في حاجة الى المزيد بمثل هذه المظاهر كما غاب عنهم انهم يقررون ماهيات مادية عن السماء الاولى وبيت العزة والحفظة والسفرة والتوزيع على جبريل وتلقي جبريل عنهم، ويصفون مشاهد ابصارية لا يصح القاء الكلام فيها جزافا، وليس عندهم اي دليل نقلي ثابت وصحيح صادر عن النبي الذي هو وحده صاحب الحق في الاخبار عن الغيبيات.

ومها يكن من امر فان هذه الاقوال تدل على ان كثيراً من الناظرين في القرآن وعلمائه ومفسريه اعتبروا او يقع الوهم بأنهم اعتبروا القرآن - ومن جملته الفصول الوسائلية والتدعيمية والوقائع الجهادية والاسئلة والاجوبة ومواقف التحدي والجدل والحجـــاج المتقابلة - مستقلا في اصله عن الاحداث التي نزل بمناسباتها، وكون هذه الاحداث ليست الا ظروفا عابرة لنزوله حتى مع قولهم ان القرآن قد نزل منجما حسب الحوادث - لان هذا يبدو غريبا ازاء القول أن القرآن نزل في بدء نبوة النبي او قبلها جملة واحدة الى سماء الدنيا - فقالوا ما قالوه وولعوا بما ولعوا به من اسرار القرآن، واستقراء حروفه ورموزه ومغيبـــاته، واستغرقوا في ماهيات ما جاء فيه من مشاهد كونية وقصص تاريخية، وحاولوا ان يستخرجوا حقائق ما كان ويكون من الوقائع والعـــلوم ونظرياتها، وفي هذا ما فيه من التكلف والتجاوز والتشويش وتعريض القرآن للمغامز والمطاعن في حين انه لا طائل من ورائه ولا ضرورة له ولا اسناد وثيقة تدعمه.

- ٩ -

روايات نزول القرآن بالمعنى واثرها:

ثانيا ومن ذلك ما قاله بعض العلماء من نزول القرآن على قلب النبي بالمعنى لا باللفظ. فقد ذكر صاحب الاتقان هذا الموضوع في فصل كيفية نزول القرآن على قلب النبي بالمعنى لا باللفظ. فقد ذكر صاحب الاتقان هذا الموضوع في حل كيفية نزول القرآن، وقال ان هناك اربعة أقوال (١) انه نزل باللفظ والمعنى وان جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به (٢) ان جبريل انما نزل به بالمعاني خاصة وان النبي علم تلك المعاني

وعبر عنها بلغة العرب ، واستند قائلو هذا القول بظاهر قوله تعالى «نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين. الشعراء ١٩٣ - ١٩٤» (٣) ان القرآن ألقي الى جبريل بالمعنى وانه عــبر عن المعاني بالالفاظ العربية وبها نزل على النبي ، وان أهل السماء يقرأونه بالعربية (٤) ان الوحي نزل باللفظ حينا وبالمعنى حينا فما نزل باللفظ فهو القرآن وما نزل بالمعنى فهو السنة ، اي ان الاحاديث النبوية هي ايضا وحي رباني ولكنها نزلت بالمعنى ، وعلل اصحاب هذا القول انه كان بقصــد التخفيف عن الامة ، ولذلك جازت رواية الاحاديث النبوية بالمعنى .

ويلاحظ ان هذه الاقوال تخمينية ، ولم يورد قائلوها اسنادا موثقة لها في حين ان الموضوع متصل بسر وحي الله وسر النبوة كذلك ، فهو امر غيبي ايماني لا يصح قول شيء فيــه الا بنص صريح من قرآن او حديث ثابت عن النبي ، وما دام انه لم يرد شيء من ذلك ، وان النبي قد بلغ القرآن الموحى به اليه بألفاظه العربية التي دونت وحفظت عنه بالتواتر اليقيني فليس من محل القول ان القرآن اوحي اليه بالمعنى كما انه ليس من ورائه طائل ، وان الحق في هذا هو ما يتسق مع الواقع وحسب وهو ان ما بلغه النبي من ألفاظ القرآن هو ما نزل الوحي به على قلبه ، وانه لا يصح ان يعدل عن هذا الى غيره بالظن والتخمين .

على ان النصوص القرآنية هي في جانب ما نقول ايضا اكثر منها في الجانب الآخر او في جانب السكوت . فآيات يوسف (٢) والزخرف (٣) والزمر (٢٨) وفصلت (٣ و ٤٤) التي تذكر تنزيل القرآن عربيا وجعله عربيا ـ وقد نقلناها في مناسبات سابقة ـ تحتوي قرائن بل دلائل قوية على قصد تقرير كون الالفاظ العربية التي بلغها النبي هي ما نزل الوحي به على قلبه .

ومن الغريب ان القائلين بنزول القرآن بالمعنى استندوا الى آيتي الشعراء ١٩٣ - ١٩٤ اللتين نقلناهما وغفلوا عن ما بعدها « بلسان عربي مبين ١٩٥ » كما هي العادة من اخذ آية دون آية ودون سياق التدليل بها على رأي ما في حين ان بعدهما اي الآية (١٩٥) يحتوي ما ينقض ذلك بصراحة ، ومن الغريب اكثر ان لا يحتج القائلون بنزول القرآن بألفاظه بهذا النص القرآني الصريح القاطع .

ومما يجدر التنبيه عليه في هذه المناسبة أن القول بأن الاحاديث النبوية مما كان ينزل به الوحي بالمعنى على اطلاقه لا يتسق مع الواقع والنصوص القرآنية . فقد احتوت آيات عديدة عتابا للنبي على بعض الحوادث والوقائع والمواقف والاقوال التي صدرت منه بل وعلى بعض الافكار والخطرات التي دارت في ذهنه في العهد المكي والعهد المدني على السواء مما تشير اليه آيات سورة عبس ١ - ١٠ والاسراء ٧٣ - ٧٥ وهود ١٢ والانفال ٦٧ - ٦٨ والتوبة ٤٣ و ١١٣ - ١١٧ والاحزاب ٣٧ والتحريم ١ - ٢ والنساء ١٠٥ - ١١٣ ، فلو كان كل ما قاله النبي وفعله وفكر فيه وحياً على اطلاق القول لما كان محل لمعاتبته . ولقد اثر عن النبي حوادث واخبار واحاديث كثيرة ووثيقة في تقرير كونه بشراً قد يخطيء ويصيب في اجتهاداته في امور الدنيا وسياستها وفي ما يبدو له من ظواهر الامور التي لا يكون مطلعاً على بواطنها وملابساتها ، وانه لا يحلف على شيء فيرى ما هو خير الا كفر عن يمينه وأتى الذي هو خير الخ .

ولقد استند القائلون بالوحي العام الشامل الى آيتي سورة النجم « وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى ٣ - ٤ » مع ان روح الآيات وسياقها هما في صدد توكيد صحة ما اخبر به النبي عن اتصال وحي الله

به بصورة عامة كما هو المتبادر منها ، وهو ما تكررت في صدده الآيات واستهدفته ، وان من التجوز تشميل مداها لكل قول صدر عن النبي لتعارض ذلك مع الوقائع والنصوص .

ونريد ان ننبه على نقطة هامة ، فنحن لا نعني بما نقرره ان لا يكون النبي في كثير مما قاله وفعله وامر به ونهى عنه وخاصة مما لم ينزل فيه قرآن ناقض او معدل او معاتب ملهما به من الله ، ففي القرآن دلائل عديدة على ان كثيراً مما وقع من النبي قبل نزول قرآن به قد وقع بالهام رباني ، وان القرآن الذي نزل بذلك جاء مؤيداً له فيه ، كما ان جميع ما ثبت عن النبي من سنن قولية وفعلية ، وأوامر ونواه مات عنها دون ان ينقضها هو او القرآن هو تشريع واجب الاتباع بنص القرآن (١) ،وانما الذي نعنيه التعليق على القول بأن جميع ما صدر عنـــه من قول وفعل اطلاقا، وبأن جميع السنن النبوية القولية والفعلية وحي من جنس الوحي القرآني مع فارق واحد وهو ان هـــذا باللفظ وذاك بالمعنى مما لم يرد ما يؤيده من حديث نبوي ثابت او نص قرآني صريح ، ومما لا يجوز الكلام فيه بالظن والتخمين والاجتهاد . وفي القرآن مشاهد كثيرة تدل على ان النبي كان يجتهد في امر فينزل القرآن مؤيداً له ومثبتا فيه ومنددآ بالذين وقفوا منه موقف المخالفة او التردد او التمرد ، فلو كان ذلك وحيا من جنس الوحي القرآني مع ذلك الفارق لـكان يقتضي ان ينص عليه حين صدوره عن النبي ، او حين تثبيت النبي فيه قرآنيا بعد صدوره أنه كان وحيا ربانيا وهذا لم يقع .

---

(١) اقرأ آيات الحشر ٧ والنساء ٨٠ وآل عمران ٣١

ولقد استهدف بعض الذين قالوا ذلك تقرير العصمة النبوية . ونتبه على ان ما نقرره لا يمس هذه العصمة ، عدا أنه قائم على براهين محكمة قرآنية وواقعية . فالعصمة النبوية تتنـــاول ما يبلغه النبي عن الله وآيتا النجم مصوبتان على هذا المعنى ، والمبلغ عن الله بصراحة هو القرآن فقط ثم تتناول امتنـــاع النبي عن اقتراف اثم او جريمة او فاحشة او مخالفة للقرآن قولا وفعلا ، ولا تتناول فيما نعتقد الاقوال والافعال والمواقف الاجتهادية والعادية التي لم تؤيد بقرآن وليس فيها نية الاثم والضرر والشر والمخالفة ، والتي قد يكون فيها الخطأ والصواب وخلاف الاولى الذي في علم الله والذي لا ينكشف للنبي الا بوحي . وفي القرآن مشاهد عديدة تدل على ان النبي كان يجتهد في امر فيصدر عنـــه قولا او فعلا فينزل القرآن معاتبا حينا ومنبها او مذكراً حينا بما هو الاولى كمشاهد اسرى بدر وتحريم النبي على نفســه زوجاته واستغفاره لاقاربه من المشركين واذنه للمتذرين عن الانضمام لحملة تبوك ، وزواجه بمطلقة متبنيه وحادث الاعمى وخطرات نفسه في التساهل مع المشركين مما احتوت الاشارات اليه سورة الانفال والتحريم والتوبة والاحزاب وعبس والاسراء ، مما لا يمكن ان يحتمل القول معه ان ذلك كان الهاما ربانيا في معنى الوحي البتة . ونحن من المؤمنين بالعصمة النبوية ولكن لا على ذلك المعنى الذي يجعل النبي يمتنع عليه ان يصدر منه أي اجتهاد في خلاف الاولى المغيب عنه علمه او اي خطأ يرئي مما لا يمكن ان ينتفي عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة في القرآن ، ومما تنعدم به حكمة الثناء العظيم الذي اثناه الله في القرآن على اخلاقه ، وحكمة اختصاصه من دون الناس بالرسالة، ولكن على المعنى الذي يتحقق في الكمال النبوي خلقا وروحا وعقلا والذي

لم يَصل النبي الى درجة الاصطفاء الرباني الا بعد ان وصل اليه ، فصار من سمو الاخلاق وصفاء الروح وعظم القلب ورجاحة العقل الى ما يرتفع به من كل مايشين ، ثم على معنى عصمته من أي خطأ في تبليغ ما اوحي اليه والتزامه له بكل دقة وامانة وصدق واستغراق .

ومهما يكن من امر ، ومع ان كثيراً من العلماء على رأي ان القرآن نزل بألفاظ عربية ، وان ما بلغه النبي من الفاظه هو ما القي اليه من الوحي فالذي يتبادر لنا ان لتلك الاقوال أثراً في الروايات الكثيرة عن خلافيات القراءة وخاصة الخلافيات اللفظية والنظمية من بدل كلمة بكلمة ومن تقديم وتأخير مما اوردنا امثلة عديدة عنه في مناسبة سابقة ، او ان الذين تداولوا ودونوا هذه الخلافيات دون تمحيص ونقد قد تأثروا بهذه الاقوال ، او ان الذين اخترعوا ودسوا هذه الخلافيات او بعضها بقصد التشكيك قد استغلوا وروجوا هذه الاقوال ، او ان كل هذا قد وقع معا ، كما انه مما يتبادر لنا ان تكون هذه الاقوال قد اثرت او تأثرت بأحاديث الاحرف السبعة وتأويلاتها العجيبة التي ذكرنا بعضها سابقا ، وخاصة ما ورد في بعض وجوهها من انها بقصد تقرير ان القرآن قد نزل بمعان متسق مفهومها مختلف مسموعها حيث يجوز التغاير اذا لم تبدل كلمة عذاب بكلمة رحمة .

ولعل ما عزي الى أبي حنيفة من تجويزه الصلاة بقراءة القرآن بالترجمة الفارسية ، وتقريره ان المهم في القرآن هو المعنى متصل بهذه الاقوال . وقد ذكر الزمخشري أن أبا حنيفة استند الى ما روي عن ابن مسعود من اجازته لقارىء بقراءة « طعام الفاجر » بدلا من « طعام الاثيم » على شرط ان تؤدي الترجمة المعاني على كمالها ، وعلق الزمخشري على هـــذا

بقوله ان هذا الشرط بمثابة المنع لان في كلام العرب وخصوصا القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه واساليبه من لطائف المعاني والاغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، ولم يكن ابو حنيفة يحسن الفارسية فلم يكن ذلك التقرير منه عن تحقيق وتبصر ، ثم قال ان صاحبي ابي حنيفة انكرا جواز الصلاة بالقراءة الفارسية ، وان عليا بن الجعد روى عن ابي يوسف ان ابا حنيفة هو على رأي صاحبيه في الانكار . وننبه على اننا لسنا هنا في معرض منع ترجمة القرآن او عدم جوازه ، بل اننا نرى هذا مفيداً جداً وواجبا لازما في سبيل نشر الدعوة الاسلامية القرآنية العظمى ، كما ان عموم الرسالة النبوية ، وعموم الخطاب القرآني لجميع الناس من الدلائل على هذا الوجوب ، على ان يقوم بها الاكفاء في فهم القرآن ولغته ولغة ترجمته ، وعلى ان يكون القصد منها النشر والدعوة والتبشير لا الصلاة بها ، حيث نعتقد بصواب رأي ابي يوسف والحسن صاحبي ابي حنيفة في انكار الصلاة بها وعدم جوازها الا بالالفاظ القرآنية العربية التي نزل القرآن بها ، لان القرآن قد وصف فيه بأنه قرآن عربي ولا يمكن ان يعتبر قرآنا تصح به صلاة الا بهذا الوصف .

- ١٠ -

الخلاف على خلق القرآن وأثره :

ثالثاً : ومن ذلك ما دار عليه الخلاف الكلامي المشهور من كون القرآن مخلوقاً او غير مخلوق . ومع ان هذه المسألة فرع من أصل موضوع صفات الله ومعانيها ومداها فانها اشتهرت اكثر من غيرها لان الخلاف فيها ادى الى احداث تجاوزت الجدل الكلامي بين العلماء الى الميدان السياسي ، وكان من آثارها فتن عمياء اريق فيها الدماء واضطهدت حرية

الرأي والعقيدة ، وازدري فيها العلماء واشترك فيها الغوغاء مع العامة في ساحة واحدة حتى صارت رئيسية ، وحتى قال بعضهم ان علم الكلام قد سمي بهذا الاسم بسبب الخلاف الشديد المشهور على صفة الكلام الالهي المتصلة بمسألة خلق القرآن وعدمه .

وكان الخلاف من حيث الاساس بين المعتزلة الذين سموا انفسهم اهل العدل والتوحيد وبين اهل السنة الذين التزموا ما كان عليه السلف من قول بما وردت به الاحاديث او دلت عليه الآيات ، او كانوا في موقف يرون انفسهم فيه كذلك . على ان هؤلاء افترقوا في القول حيث ان ابن حنبل وأشياعه قالوا غير ما قاله أبو الحسن الاشعري وجماعته مثلا .

ومن اصول الخلاف بين المذهبين صفات الله ، فالمعتزلة قالوا ان صفات الله هي ذات الله فهو عالم بذاته قادر بذاته متكلم بذاته الخ اي بدون علم وقدرة وكلام زائد عن ذاته اوغير ذاته ، على اعتبار ان الذهاب الى كون صفات الله القديمة بقدمه غير ذاته هو تعدد لله القديم الذي يستحيل عليه التعدد ، واهل السنة قالوا ان لصفات الله معنى زائداً عن ذاته فهو عالم بعلم وقادر بقدرة ومتكلم بكلام ، واحترزوا بهذا لمنع تعدد الله القديم بتعدد صفاته لانهم مثل اولئك معتقدون باستحالة التعدد في حق الله ، ثم تكشف الخلاف في هذا الباب حول صفة كلام الله وماهية القرآن باعتباره كلام الله ، فقال الاشاعرة ان الله متكلم بكلام ازلي قديم زائد عن ذاته وغير منفك عنها ، وان القرآن معنى قائم بذات الله ، وقيدوا انهم لا يعنون بذلك الحروف والاصوات المقروءة المسموعة المكتوبة ، ومثلوا على ذلك بالفرق بين ما يدور في خلد الانسان من كلام دون ان ينطق به ، فهو شامل في آن واحد لجميع الكلام الذي يدور في الخلد ، اما الحروف

والاصوات المقروءة المسموعة المكتوبة من القرآن فانها ليست من تلك الصفة القديمة وانما هي من الحوادث ، لانها تابعة الترتيب يتقدم فيه حرف عن حرف نطقاً وكتابة وسمعا وهذا من سمات الامور الحادثة ، وافترق الحنابلة وهم من اهل السنة عن الاشاعرة في تقريرهم ان حروف القرآن المكتوبة المقروءة وأصواتها المسموعة غير منفكة عن صفة كلام الله الازلي القديم وأنها مثلها قديمة أزلية ايضا اي ليست حادثة ولا مخلوقة . اما المعتزلة – والشيعة الامامية مثلهم في اكثر المذاهب الكلامية – فقد قالوا ان الله متكلم بذاته بدون كلام زائد عنها ، وانه يخلق الحروف والاصوات في الاعراض فتقرأ وتسمع، وان القرآن باعتبار انه متصف بما هو صفات المخلوق وسمات الحدوث من تأليف وتنظيم وانزال وتنزيل وكتابة وسماع ومقروءة وحفظ وناسخ ومنسوخ الخ هو مخلوق ولا يصح ان يكون قديما ازليا ، ويقولون ان القرآن اسم لما نقل الينا عن دفتي المصحف تواتراً وهذا يستلزم كونه مكتوبا في المصاحف مقروءا بالالسن مسموعا بالآذان وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة ، فيجيبهم الاشاعرة بانه كلام الله مكتوب في مصاحفنا محفوظ في قلوبنا مقروء بألسنتنا مسموع بآذاننا غير حال فيها بل هو معنى قديم قائم بذات الله يلفظ ويسمع بالنظم الدال عليه ويحفظ بالنظم المخيل ، ويكتب بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف ويكتب بالقلم ، وان المراد بأن القرآن غير مخلوق هو حقيقته الموجودة في الخارج الخ .

وواضح ان الجماعات المختلفة معترفون بكمال صفات الله ، وان اختلافهم هو حول آثار هذه الصفات الكاملة وتخيلها وتفهمها ومداها ، وان شأنهم في هذا شأنهم في الخلافيات الكلامية الاخرى منهم المعظم لله

ومنهم المنزه له ، وانهم متفقون على ان القرآن منزل من الله على نبيه .

ولا يعنينا التبسط في هذه المسألة الخلافية وتاريخها ، ونعتقدانها ذات صلة بالاحداث السياسية والنحلية والطائفية والعنصرية التي حدثت في القرون الاسلامية الاولى ، وكان لتسرب الاساليب الكلامية والكتب الفلسفية الاجنبية اثر قوي فيها ، وأنها لا تتصل بآثار نبوية وراشدية موثقة ثابتة في ذاتها ، فضلا عن ما هناك من آثار نبوية وراشدية تنهى عن التورط في بحوث قد تنتهي الى الخوض في ماهية الله والقرآن ومحتوياته وانه يكفي للمسلم ان يظل فيها في حدود التقريرات القرآنية من ان القرآن كلام الله ومن عند الله ، ومن ان الله ليس كمثله شيء ، وان ما عدا ذلك متصل بسر الوجود وواجب الوجود وسر الوحي والنبوة مما لا يستطاع ادراكه بالعقل البشري ، وانه لا طائل من الجدل والخلاف فيه ولا ضرورة له ، وانما الذي يعنينا هنا هو تقرير ان هذه المسألة الخلافية قد تكون ادت بين حين وآخر وبقصد وبغير قصد الى اغفال صلة الفصول والآيات القرآنية بأحداث السيرة النبوية وظروف البيئة النبوية ، واعتبار هذه الاحداث والظروف شأنا عابرا . وان هذا قد ادى الى ما قيل من اقوال وضمن من تخمينات حول اسرار القرآن وحروفه ورموزه ومغيباته وماهيات ما جاء فيه من مشاهد الكون ونواميس الخلق وقصص التاريخ والامثال ومطوياتها مما لا يتسق مع حقائق الامور وأهداف القرآن الواضحة في الهداية والارشاد والدعوة الى الخير والحق وأسباب السعادة ، وبما فيه تشويش على الاهداف وعلى الناظر في القرآن والراغب في تفهمه وتفهم السيرة النبوية والبيئة النبوية والاسس والمبادىء القرآنية ، وما كان من سير التشريع القرآني وتطوره .

النهي عن التفسير بالرأي واثره :

رابعاً: ومن ذلك ما ورد في النهي عن تفسير القرآن بالرأي . وماقيل من وجوب الوقوف في تفسيره عند حدود الروايات المروية عن النبي والصحابة والتابعين او علمائهم .

فقد قال بعض العلماء انه لا يجوز لاحد ان يتعاطى تفسير شيء من القرآن الا ان ينتهي الى ما روي عن النبي في ذلك ، وقال بعضهم ان التفسير قسمان قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد ، والاول اما ان يكون عن النبي او الصحابة او رؤوس التابعين ، وإما لم يرد فيه نقل فهو قليل ، وقال بعضهم ان ما ورد فيه حديث نبوي لا يعدل عنه فيه الى غيره ، وما لم يرد فيه حديث نبوي وورد فيه قول صحابي فلا يعدل فيه الى غيره ، وما لم يرد فيه قول صحابي وورد فيه قول عالم تابعي او قول تابعي - على اختلاف في التخصيص والاطلاق - فلا يعدل فيه الى غيره ، وانه اذا كان هناك أقوال عديدة من مصدر من هـــذه المصادر الثلاثة فيجتهد في التوفيق والجمع بينها . وقد روي عن الشافعي أنه قال انه لا يحل تفسير المتشابه الا بسنة او خــبر او اجماع (١) ، ولم يحدد المتشابه في هذا القول مع ان مداه واسع جدا وموضوع خلاف كبير .

---

(١) الاقوال ملخصة عن الاتقان للسيوطي .

ولما كان قد ورد روايات منسوبة الى المصادر الثلاثة المذكورة كثيرة جداً وصف ما ورد عن ابن عباس منها بوصف لا يحصى ، وقيل ان ما روي منها منسوبا الى النبي والصحابة نحو خمسة عشر الفا ، وتكاد تشمل كل آية في القرآن ، بل وان كثيراً ما ورد في آية واحدة اكثر من رواية وحديث ، وقد روى تفسير كامل عن ابن عباس وحده ، ونسب الى تابعين وتابعي تابعين تفاسير عديدة كاملة او ناقصة فان من شأن الاقوال الواردة في ايجاب الوقوف في التفسير عند الروايات والاقوال المنسوبة الى المصادر الثلاثة المشار اليها أن يؤدي الى ان هذا الموقف يجب ان يشمل جميع آيات القرآن .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد روى حديثان نبويان اخرج احدهما أبو داود والترمذي والنسائي جاء فيه « من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » واخرج ثانيهما ابو داود جاء فيه « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وفسر بعضهم تعبيري « برأيه » و « بغير علم » في الحديثين بغير سند من حديث او رواية او خبر .

وقد التزم امام المفسرين بعد عصر تابعي التابعين أي الطبري هذا المبدأ فألف تفسيره الكبير في نطاقه ، ويكاد يكون قاصراً على الروايات المروية عن المصادر الثلاثة المذكورة . وفعل قبله مثله البخاري في الكتاب الذي عقده في صحيحه على التفسير وبوبه على ترتيب السور في المصحف مع التزامه شروطه في رواية الاحاديث والاقوال المنسوبة الى هذه المصادر.

ومع ان من العلماء المتقدمين من خرج الحديثين النبويين تخريجا من شأنه التوسيع فقال انهما في صدد النهي عن التفسير بالهوى ، وعن القول بقول يعلم قائله ان الحق غيره ، وعن الكلام في القرآن بغير علم يساعد

صاحبه على الاستنباط وحسن الادراك من معرفة باللغة والفقه والناسخ والمنسوخ الخ ، وان منهم من اورد بعض الاحاديث التي تسوغ النظر في القرآن والاجتهاد في الاستنباط منه مثل الحديث الذي اخرجه ابو نعيم وجاء فيه « القرآن ذو وجوه فاحملوه على احسن وجوهه » ، وان منهم من قال ان المسلمين مأمورون بنص القرآن بالنظر فيـــه وتدبره وتفهم احكامه وهذا هو متناول التفسير والتأويل ، وان نصوص القرآن تحتم صرف الاحاديث النبوية في حالة صحتها الى مثل ما صرفت اليه ، وانه ما من آية الا ويحب الله ان يعلم الناس فيما أنزلت وما اريد منها ، ومع ان هذا التوجيه متسق مع طبائع الاشياء ، بحيث يكون النهي في الاحاديث اذا صحت قد استهدف النعي على الذين يحاولون صرف نصوص القرآن ودلالاته الى تأييد بدعة في القول أو رأي فيه انحراف عن جادة الحق وتلقينات القرآن الواضحة ومفهوماته المتواترة ، وعلى الذين يلقون الكلام في القرآن على عواهنه ويحملون عبـــاراته غير ما تتحمله ويخوضون في الماهيات الغيبية التي وردت الاشارات اليها بغير سند ، ولم يستهدف حظر التدبر في آيات القرآن واهدافه وتفهم معانيه بالعقل والتفكير والدراسة والاستنباط والمقايسة ، وخاصة في سبيل تجلية الاهداف السامية والمثل العليا والاحكام الشرعية التي تنطوي فيه ، لان هـــذا هو الذي اوجبه القرآن على سامعيه وأنزل على النبي من اجله وجرى السلف الصالح عليه ، وهو الذي تدل عليه الروايات الكثيرة جداً المعزوة الى علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم والوارد كثير منها في كتب الاحاديث الصحيحة ايضا اذ ان كثيرا من هذه الروايات ان لم يكن اكثرها تأويلات وتفسيرات اجتهادية شخصية ، ويدل عليه كذلك سير المفسرين الذين جاؤوا بعد

هذه الطبقة على هذا النمط متجاوزين احيانا كثيرة حدود الروايات المعزوة الى المصادر الثلاثة ، ومدونين هم الآخرون تأويلات وتفسيرات اجتهادية شخصية ، نقول انه مع ذلك كله فان الروايات ظلت عماد التفسير الاقوى وركنه الاعظم .

ومما لا ريب فيه ان الفكرة من حيث اصلها وجيهة كل الوجاهة ، لان الصحابة والتابعين وخاصة علماءهم هم اعلم بمفهومات القرآن ودلالاته ومناسبات نزوله ومدى مقاصده على اعتبار أنهم اشد الطبقات اتصالا بظروف نزوله وجو نزوله ، ومما لا ريب فيه ان القول اقوى صحة ووجاهة وصوابا وأولوية بالنسبة الاحاديث النبوية ، كما ان النهي والتشديد ما يبررهما لان خطورة شأن القرآن من جميع الاعتبارات توجب حتما الاحتياط والتروي والتدبر وعدم القاء الكلام فيه جزافا ، وتجعل الانحراف عن هذه الخطة والخطأ الناشيء عن غير علم وروية اثما كبيرا ، لما يترتب عليه من آثار تمس بأمور الايمان والعقيدة ومصالح الانسانية عامة والمسلمين خاصة .

ومما لا ريب فيه ايضا ان هناك احاديث نبوية وصحابية قوية الاسناد وردت في كتب الصحاح ومتسقة مع روح الآيات القرآنية ومضامينها كما ان هناك اقوالا منسوبة الى الصحابة والتابعين وخاصة علمائهم وردت في كتب الحديث المعتبرة سائغة ومعقولة المتون كذلك في شرح العبارات القرآنية وتفسيرها وايضاح مداها ، فيجب الاخذ بتلك الاحاديث وهذه الاقوال والوقوف عندها وادارة الكلام في نطاقها تبيانا وشرحا وتجلية وتطبيقاً .

غيرا انه مما لا ريب فيه ان الروايات والاقوال لا يصح ان تؤخذ قضايا مسلمة في هذا الصدد كما في غيره الا بعد التمحيص متنا وسنداً

وتطبيقا ومقايسة على العبارات والدلالات القرآنية ، وانه قد تسوهل في هذا الباب تساهلا عظيما ، وان كثيراً مما ورد ان لم نقل اكثره مما يحمل على التوقف فيه من حيث أسناده ومتونه ، لغلبة احتمال الخطأ والتحريف والتلفيق والدس والانتحال والغرض السياسي والطائفي والتعلي فيه وخاصة ما لا يتسق في مداه ومعناه مع روح الآيات والوقائع التي يلهمها القرآن ، وانه يصدق فيه قول ابن حنبل الذي أشرنا اليه في مناسبة سابقة « ثلاثة لا اصل لها التفسير والمغازي والملاحم » بل ولعله انما قيل بسبب هذه العلات .

ومع ان العلماء والمفسرين قالوا بوجوب التمحيص والنقد ، وتوقفوا في روايات واقوال كثـــيرة وناقشوها وجرحوها ، وفي طليعتهم امام مفسري المأثور الطبري فان النهي في أصله والقول بالاخذ بالروايات اولا ، وكثرة الروايات كثرة عجيبة ثانيا جعل هذه الروايات تستفيض في مختلف كتب التفسير على علاتها ، وتكون عماداً قويا بل العماد الاقوى فيها ، ولم يحظ الا القليل منها بالنقد والتمحيص والجرح ، بل وان هذا المنقود المجروح لم يبعد من كتب التفسير ، ومنها ما لم يشر الى جرحه ، وكان هذا من اسباب وعلل ما وقع في هذه الكتب من تشويش واضطراب واغراب ومفارقة ، وما ادى اليه من تشويش على الناظر في القرآن والراغب في تفهمه ، ومن اتخاذه من قبل المغرضين وسيـــلة الى الغمز والطعن وسوء التفسير والاستنباط ، سواء اكان ذلك في احداث السيرة النبوية المختلفة ام في ظروف البيئة النبوية ، ام في ما احتواه القرآن من قصص ومشاهد كونية وأخروية وأخبار ايمانية غيبية ، ام في انسجام الفصول والمجموعات القرآنية وتوجيهاتها وتلقيناتها ومداها الخاص والعام والزمني المستمر .